إســـــرائيل..

في آيات سورة بني إسرائيل..

«تفسير ثمان آيات»

العلامة المحقق

السيد جعفر مرتضى العاملي

المركز الإسلامي للدراسات

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى
2.12 م. - 1433 هـ. ق

المركز الإسلامي للدراسات

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله، محمد وآله الطيبين الطاهرين.. واللعنة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين..

وبعد..

قصة هذا الكتاب:

فهذه دروس في التفسير، خصّصناها لتفسير ثمان آيات من أول سورة الإسراء، ثم استخرجت في بادئ الأمر من أشرطة التسجيل، فأجريت عليها إصلاحات في طريقة العرض، والبيان، بالإضافة إلى بعض التقليم والتطعيم، والإختصار في مواضع كثيرة، فحذفت منها تفاصيل إيضاحية، ومطالب كان قد حصل التعرض لها استطراداً، لمناسبة اقتضاها الحال في حينه.

وقد أحببنا أن نقدمها إلى القارئ الكريم، فعسى أن يجد فيها ما يفيد في بيان بعض ما أشير إليه في هذه الآيات الكريمة والمباركة..

ولكي يكون الأمر أكثر وضوحاً نقول:

كانت الفكرة الأساسية الأولى قد ولدت وتبلورت لدي قبل قيام ونجاح الثورة الإسلامية في إيران بقيادة آية الله السيد روح الله الموسوي الخميني «رحمه الله».

حيث كنت قد طرحت هذه الفكرة أمام ثلة من العلماء في حوزة قم المقدسة منذئذ.. فلاقت قبولاً من بعضهم، وتردداً من بعضهم الآخر..

وقد ذكرنا ذلك في كتاب: الصحيح من سيرة النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله»، وقد طبع بعد قيام الثورة الإسلامية ونجاحها.. فلما عدت إلى لبنان سنحت لي الفرصة لتفسير هذه الآيات المباركة لبعض الشباب في بلدة عدشيت، ثم في الضاحية الجنوبية لبيروت.

مؤاخذتان على الكتاب:

وربما يؤخذ علي في هذا الكتاب أمران:

أولهما: أنني جنحت بعض الشيء إلى التطبيق العملي لبعض الآيات، حيث قلت: إنني أرجح ـ مثلاً ـ أن تكون أمريكا هي عاد الثانية التي سوف تتبر العباد ما علته وأشادته، مع أن الإخوة كانوا قد سمعوا مني مراراً شكواي من التطبيقات التي يمارسها الكثيرون فيما يرتبط بكثير من النصوص التي تتحدث عما يجري من فتن وسواها في آخر الزمان.. باعتبار أن هذه التطبيقات كثيراً ما يظهر خطؤها، فتكون لها مردودات سلبية على الذهنية العامة فيما يرتبط بصدق

الأخبار الغيبية، التي تنسب إلى النبي والأئمة الطاهرين..

وقد تتسرب الشبهة لدى بعض العوام إلى ما هو أبعد من ذلك، فينسب الخطأ إلى النبي «صلى الله عليه وآله» أو الإمام «عليه السلام» مباشرة.

ولكن عذري هنا: أنني لم أورد احتمال الانطباق على أمريكا وشركائها، وأذنابها على أساس أنه هو الواقع الذي لا محيص عنه، بل أوردته على سبيل الإحتمال للإستيناس بالفكرة، بهدف تقريب بعض الاستفادات من الآيات المباركة إلى ذهن القارئ، أو السامع، دون أن أبرئ نفسي من الخطأ في ترجيحي، ولذا لم أمانع، ولا زلت لا أمنع من تبلور مصداق آخر في أي من الأزمنة المتمادية في المستقبل القريب، أو البعيد..

الأمر الثاني: أنني لم أستوف البحوث في تفسير الآيات، ولم أتعرض إلى ما قيل، ويقال حول الإفسادين.. ولم أناقش شيئاً منها.. كما لم أتعرض لكثير مما قيل ويقال حول الإسراء والمعراج أيضاً..

ولم أورد الروايات التي ترتبط بالآيات، لا روايات الإسراء والمعراج، ولا الروايات حول إفسادي بني إسرائيل.

وهذه المؤاخذة أيضاً قد تكون صحيحة في نفسها لو كان الغرض ـ في الأساس ـ هو طرح الموضوع من جميع جوانبه..

والحقيقة هي: أن ذلك لم يكن هو الهدف، بل كان الهدف تفسيرياً محضاً.. تدعو إليه الرغبة بعدم التعدي عن هذا النهج.. لأن ذلك قد

يوجب إخلالاً في السياق البياني، وتشتيتاً في المطالب التي أحببنا أن يكون لها سياق واحد.. ونهج فارد..

على أننا لا نخفي أنه قد ثقل علينا تكرار مطالب ذكرناها في مواضع أخرى من مؤلفاتنا، مثل الصحيح من سيرة النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله» وكتاب المسجد الأقصى أين؟! وغيرهما..

كما أننا لم نرد أن نفسح المجال لبعض الناس للاجتهاد في تطبيق الآيات، وتأويل الروايات وفق رغباتهم.. فآثرت أن أبدأ بنفسي، بالابتعاد عن مظنة ذلك.

وليقبل القارئ الكريم عذرنا هذا، وسنكون له من الشاكرين..

أحرجنا تقسيم الكتاب:

ولا أخفي أن تقسيم هذا الكتاب لم يكن سهلاً علينا، فقد وقعنا فيه ببعض الحرج أمام القارئ الكريم، لسببين:

أحدهما: أن حجم فصوله متفاوت بدرجة ظاهرة، فإن فصول الباب الأخير لا تضاهي في حجمها، ومقادير صفحاتها أحجام ومقادير صفحات البابين الأولين..

ولكن عذرنا في ذلك: هو أن مضامين الآيات المباركة هي التي فرضت علينا هذا التقسيم.

وسيلمس القارئ الكريم ذلك بنفسه، إن شاء الله تعالى..

الثاني: إن الفصلين الرابع والخامس من الباب الأول، وهما:

فصل: «كتاب الهدى لبني إسرائيل..»

وفصل: «نوح لا سواه..»

هما بمثابة همزة الوصل التي تربط بين الآية الأولى ـ وهي آية الإسراء ـ بفصولها الثلاثة.. والآيات الرابعة والخامسة إلى الآية الثامنة.. مما يعني: أنه يمكن جعل هذين الفصلين المرتبطين بتفسير إيتاء بني إسرائيل كتاب الهدى، وآية ذرية من حملنا مع نوح ـ يمكن جعلهما ـ في آخر الباب الأول، وجعلهما في أول الباب الثاني.. لارتباطهما بكلا البابين على حد سواء. كما يمكن جعلهما باباً مستقلاً للدلالة على وسطيتهما بينهما أيضاً.

فلما لم نرَ ما يرجح لنا واحداً من هذه الخيارات الثلاثة ارتأينا إلحاقهما بالباب الأول، شريطة الإشارة إلى هذه الخصوصية في تقديم الكتاب.. ثم الإشارة في عنوان الباب الأول إلى خصوصية هذين الفصلين فيه..

وهذا ما حصل بالفعل.. فليلاحظ ذلك.

رجاء واعتذار:

وبعد.. فإن رجائي الأكيد من كل من وجد في هذه الاستفادات ثغرة، أو نقصاً، أو غلطاً أن يتحفني به لكي أقوم بإصلاحه في الطبعات اللاحقة، بتوفيق من الله تعالى..

وأودُّ لفت نظر القارئ الكريم هنا إلى أنني كنت ولا زلت أعرف من نفسي القصور عن نيل معاني القرآن، ولذا فأنا لا أدعي أنني استطعت، أو سوف أستطيع أن أقف على دقائق معانيه، ولطائف مراميه..

إلا أن ما أطمع به هو أن يكون هذا الجهد المتواضع سبباً في تحريك الناس للعودة إلى القرآن الكريم، لكي يستفيدوا أو يفيدوا من هذا الكنز العظيم ليدركوا حجم التقصير في حقه.. حتى ليكاد هذا التقصير يصل إلى حد الإساءة لمقامه، الأمر الذي يجعلهم في موقع من يستحق العقوبة بالحرمان من بركاته. ومن التوفيق للحصول على شيء من ثمراته، بعد أن رضوا بأن يكونوا كما يقول الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

نعوذ بالله تعالى من ظلم أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، إنه ولي قدير..

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين..

15 شوال 1433هـ.ق

2 أيلــول 2012م. ش

جبل عامل ـ عيتا الجبل (عيتا الزط سابقاً)

جعفر مرتضى الحسيني العاملي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين..

الآيات الكريمة:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ، وَآتَيْنَآ مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً، ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا، وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا، فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً، ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا، إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُووُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا، عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا، وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا

لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)[1]..

(1) الآيات 1 - 10 من سورة الإسراء.

الباب الأول:

حديث الإســـراء توطئــة للحديث عن بني إسرائيل..

الفصل الأول: الإسراء ليلاً..

الفصل الأول:

الإســــــــــراء

أ ،اً

الفصل الأول: الإسراء ليلاً..

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.. وبعد..

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)..

نحيل القارئ الكريم في تفسير هذه الآية إلى كتابنا: تفسير سورة الفاتحة..

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً)(1).

تعرضت هذه الفقرة من الآية رقم [1] من سورة بني إسرائيل إلى الإسراء برسول الله «صلى الله عليه وآله».. وفيها العديد من المطالب، فلاحظ ما يلي:

الإسراء في اللغة:

كلمة الإسراء يراد بها: السير في الليل، أو السير في آخر الليل، في أي اتجاه كان..

يقال: عند الصباح يحمد القوم السرى..

---

(1) الآية 1 من سورة الإسراء.

إلى أين كان هذا الإسراء؟!:

وهل يراد بالمسجد الأقصى هذا المسجد الموجود في بيت المقدس؟! أم المسجد الأقصى الموجود في السماء؟!

الروايات تقول، والقرائن في الآية تؤيد: أنه الموجود في السماء. وعليه فإن الآية تعرضت للمعراج لا للإسراء إلى بيت المقدس أو المسجد الأقصى، الموجود في فلسطين.

وبيت المقدس الذي في فلسطين هو مساحة تبلغ حوالي مئة وخمسة وأربعين ألف متر مربع، ويوجد في هذه المساحة مسجدان:

أحدهما: المسجد الذي اختطه عمر بن الخطاب لما قدم بيت المقدس زمن خلافته.

والثاني: المسجد المبني على الصخرة، وإنما بناه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك. والصخرة قبلة اليهود القديمة.

هذه البداية هي عنوان الحديث عن هذه الآية.

ونبدأ بالحديث عن خصوصيات الكلمات الواردة فيها، وعما يراد منها. وإن كانت عقولنا قاصرة، عن معرفة الحقائق والوقائع، ومضامين آيات القرآن على حدِّها.. ولا يقتصر هذا الأمر علينا، فإن البشر جميعاً عاجزون عن إدراك ذلك، فنحن بحاجة دائماً إلى التوفيق الإلهي وأيضاً إلى البيان من أهل البيان، وهم أهل بيت العصمة

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين..

ونبدأ بالشرح التفصيلي، فنقول:

لماذا كان الشروع بالتسبيح والتنزيه؟!:

بدأ تعالى الآية بالتسبيح (**سُبْحَانَ**)، ولم يبدأ بحمد الله، أو بشكره مثلاً.. ـ وهي السورة الوحيدة في القرآن التي تبدأ بـ (**سُبْحَانَ**) ـ ومن المعلوم: أن «سبحان» صيغة مبالغة في التنزيه.

أي هو تعالى كثير (أو شديد) التنزُّه عن كل ما ينافي كمال ألوهيته وربوبيته، مثل النقائص والعجز، والجهل والظلم، والضعف، والحاجة، وما إلى ذلك.

وهذا التنزه تارة يلاحظ فيه مصاديقه ومفرداته. أي أنه منزه عن أمور وعناوين كثيرة، كتلك التي ذكرناها آنفاً.

وتارة يلاحظ فيه مراتب التنزه في الشدة والضعف، فيراد بهذه الصيغة بيان شدة التحقق في الكمال وعدم المحدودية في درجاته، وشدة الإيغال في الطهارة، والتنزه والنقاء، والسلامة من النقائص والعيوب.

فمثلاً إذا قلنا: إن فلاناً معصوم عن الذنب، فقد تكون درجة مناعته عادية كأي مؤمن يعيش في مجتمع بعيد عن المغريات، وقد تكون درجة صلابته بحيث يستطيع مواجهة الكثير من المغريات، وقد تكون بدرجة يعلم فيها بعدم الخضوع لأي إغراء، مثل عصمة بعض

الأولياء أو الأئمة أو الأنبياء، أو بدرجة صلابة أولي العزم منهم، أو بدرجة صلابة نبينا الأعظم «صلى الله عليه وآله».. وعلي أمير المؤمنين «عليه السلام». فإن درجات الصلابة في العصمة متفاوتة.

والخلاصة: أن عصمة أولي العزم من الأنبياء ليست كعصمة من لم نجد له عزماً، وهكذا.. وعصمة سلمان الفارسي مثلاً، الذي استحق أن يقول عنه رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «سلمان منا أهل البيت» ليست كعصمة أي إنسان عادي آخر.. ممن لم يقل عنه رسول الله «صلى الله عليه وآله» شيئاً..

المقصود بكلمة سبحان هنا:

ونعود لنقول: إن المقصود بكلمة سبحان: أن مستوى التنزه عن الحاجة والجهل والعجز، وكل نقص هو بدرجة الإستحالة العقلية، لا مجرد عدم الوقوع، لأن هذه الأمور تتنافى وتتناقض مع ألوهية الله سبحانه.

وهذا المعنى يلازم استيعاب جميع المراتب بالنسبة للمصاديق أيضاً.

فظهر: أن المراد بهذا التسبيح هو مجموع المعنيين. أعني التعبير عن شدة التنزه، وعن كثرة التنزه الساريين في جميع المعاني والمستويات..

لماذا الحديث عن التنزيه؟!:

والسؤال الأهم هو: لماذا تحدث في مورد الإسراء عن تنزيه الله بصيغة المبالغة بأقصى درجاتها، وليس عن تعداد نعم الله وبيان ألطافه بخلقه؟!

وفي مقام الإجابة لا بد أن نشير إلى أن علينا أولاً أن نجيب على سؤال:

لماذا أسرى بعبده؟!:

والجواب يكمن في قوله: **(لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا)**.. أي بعض آياتنا. أي ليرى بالمشاهدة المباشرة في تلك الآيات طرفاً من حكمته تعالى، وتبين له عظيم قدرته، وبديع صنعه، وحقيقة قيوميته، وبصيريته، وسميعيته، وعليميته، وكل صفاته وأسمائه المظهرة لربوبيته تعالى، وألوهيته سبحانه..

فإن من يعاين هذا الكمال المطلق واللامتناهي في كل حالاته ومجالاته، من خلال ما يراه من عظمة آياته سبحانه، يترسخ لديه الشعور بالتنزيه المطلق الذي يسقط كل الحدود في صفات الكمال والجمال والجلال، لأنها تشي بالنقص والحاجة والضعف والجهل.. وما إلى ذلك.. وهذا التنزيه هو الذي يلغي الحدود للصفات، ويعطيها حقيقة الإطلاق من جميع الجهات، وفي جميع الحالات.

فالمقام مقام تنزيه مطلق له تعالى، وليس مقام شكر، لأن الشكر

مثلاً إنما تلاحظ فيه النعم التي أسداها، وما يفيضه تعالى على البشر من خزائنه. كما أنه ليس مقام حمد وثناء عليه تعالى، لأن الحمد يلاحظ فيه الفعل الجميل الاختياري الصادر منه..

فإن الشكر والحمد وإن أثبتا ـ في نظر الناس العاديين فيما يفهمونه من دلالات وألفاظ ـ الغنى له تعالى، بالإضافة إلى إثبات الصفات الأخرى المرتبطة بصدور الفعل الجميل الاختياري. ولكنهما لا يشيران بصورة مباشرة بحسب دلالة اللفظ التي يفهمها عامة الناس، إلى أنه تعالى واجب الوجود بالذات مثلاً، ولا إلى أنه ليس له جسد ولا صورة، ولا مكان..

ولا يشيران أيضاً عند الناس العاديين!! إلى حكمته تعالى، ولا إلى كثير من صفات الفعل الأخرى، وغيرها.

ولكن التنزيه المطلق له تعالى في كل شيء، ولا سيما إذا كان بصيغة التكثير، ولا سيما إذا كان تكثيراً لا حدود له ولا قيود، وقد جاء بصيغة المبالغة (**سُبْحَانَ**) الذي لا حدود له. إن هذا التنزيه تنزيه له تعالى عن الإمكان، وعن الجهل، وعن البخل، والنقص، والعيب، والضعف، والعجز، وعن الجسم والمكان، والحركة والسكون، وكل ما يتناقض مع، أو ينقص من صفات الكمال والجمال، والجلال.. و.. و.. فيه تعالى.

إن ذلك التنزيه المطلق يحمل معه دلالة واضحة على إثبات

الكمال اللامتناهي واللامحدود له تعالى في جميع صفات الألوهية والربوبية.. ولا يقتصر على عدم التناهي واللامحدودية في صفة الغنى، وبعض صفات الفعل الذي تشير إليه، وتقتصر عليه ـ في أذهان الناس بحسب دلالات ظواهر الألفاظ ـ كلمة الشكر أو الحمد. بل يشمل كل صفات الكمال والجمال.. كوجوب الوجود، والعلم، والقدرة، والحياة، والإرادة.

بالإضافة إلى دلالته على الكمال، وعدم التناهي واللامحدودية في صفة القيومية التي تستبطن صفات الفعل، كالخالقية والرازقية، والعليم، والحكيم، والرحيم، والودود، والكريم، و.. و.. و.. ثم لا يقتصر الأمر على هذا، بل يشمل صفات السلب أيضاً التي هي صفات الجلال، التي تعني سلب الجسمية والمكان والصورة، والحركة والسكون، والخفة والثقل ونحوها مما يرجع إلى سلب الإمكان عنه تعالى المنبثق عن صفة وجوب الوجود له تعالى.

فكلمة (**سُبْحَانَ**) في هذا الموضع بما لها من معنى تنزيهي عتيد هي الأشمل، والأدق والأفضل في التعبير عن المعنى المراد.

أما كلمة الشكر، أو الحمد، أو نحو ذلك.. فلا قدرة لها على ذلك، أو أن ذلك هو ما يتوهمه فيها بعض قاصري النظر.. إن كلمة (**سُبْحَانَ**) تستحضر كل الصفات الثبوتية التي هي صفات الكمال والجمال، وصفات السلب التي هي صفات الجلال، كما أنها من خلال صفة القيومية تستتبع صفات الفعل أيضاً كما تقدم، فتعطي بذلك

صورة عن الكمال اللامتناهي في جميع صفات الألوهية والربوبية..

وذلك أدل على عظمة الله، وأدعى للتفاعل مع هذه الكمالات اللامتناهية واللامحدودة، فترسخ قدم الإنسان الإلهي في معرفة الله، ولا يبقى لمعاني الكمال، والعلم والإيمان والثقة بالله، وصفة كمال وجمال له تعالى أيضاً حدود ولا قيود..

وهذا هو المعنى المطلوب والمناسب في مثل هذا المقام، ولا يناسب هنا أي معنى آخر غير كلمة **(سُبْحَانَ)**، ولو أتى بأي كلمة أخرى لتوهم متوهم أن هناك انتقاصاً، وتحجيماً للمقام الذي يريد الله من خلاله أن يبلِّغه رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وهو المقام المحمود الذي يكون به أفضل الأنبياء والرسل وأشرفهم على الإطلاق..

قال: سبحان الذي، ولم يقل: سبحان الله!!:

وهناك سؤال يقول: لماذا قال: **(سُبْحَانَ الَّذِي)** ولم يقل: سبحان الله الذي، فيصرح بمتعلق التنزيه من خلال إضافة فعل الإسراء إليه مباشرة؟!

والجواب: أن هذا الإسراء الذي صنعه الله تعالى لرسوله يشتمل على مختلف شؤون التنزيه، وهو تجسيد مباشر لمعنى الألوهية والربوبية، بل هو تجليات وظهورات فعلية للصفات والأسماء، فلا

تبقى حاجة للتصريح بالأسماء والصفات بعد هذه المشاهدات لتلك التجليات، التي لخصتها كلمة: **(لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا)**، ونفس مضمون الآية يدل على ذلك.

إن هذا الإسراء ـ ليلاً ـ **(مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى)**، هو دليل القدرة غير المتناهية، وتجسيد لعظمة الخلق، والحكمة، والتدبير، والمعرفة، والعلم، والمالكية، والخالقية، وكل صفات الأفعال وصفات الذات.. وتأكيد على مالكية التصرف، وعلى صفة الحي القيوم، الذي لا يسهو ولا يغفل، ولا تأخذه سنة ولا نوم، إلى آخر ما هنالك.

فإذا كان هذا الإسراء في جزء يسير من الليل، فإنه ـ ولا شك ـ سوف يعطي النبي «صلى الله عليه وآله» من القوة وثبات القدم في المعرفة الدقيقة والعميقة لمعنى الألوهية والربوبية، وكل معاني الأسماء والصفات، بكل تجلياتها بصورة عينية، ومشاهدة تجسيدية..

إنه تسبيح وتنزيه بصورة التجسيد للمعاني التي يريد الله سبحانه لرسوله أن يصل إليها.

متى كان الإسراء؟!:

وقد كان الإسراء في أوائل البعثة.. وهناك من يقول: إنه كان قبل الهجرة بستة أشهر، أو بثمانية عشر شهراً، أو غير ذلك..

ولكن الظاهر هو: أن هذا الإسراء قد حصل بعد البعثة بسنتين أو

ثلاث.. لأن هناك عدة أمور وقرائن تشير إلى ذلك.. من جملتها: أن السيدة الزهراء «عليها السلام» ولدت من ثمر الجنة الذي تناوله رسول الله «صلى الله عليه وآله» حال إسرائه إلى السموات العلى، والسيدة الزهراء «عليها السلام» إنما ولدت بعد البعثة بخمس سنين.

فإن قيل: إنها لم تولد من ثمر الجنة الذي أكل منه «صلى الله عليه وآله» حين الإسراء، بل من ثمر جاءه به جبرئيل «عليه السلام» من الجنة، فأكله «صلى الله عليه وآله».. كما تدل عليه رواية رواها الصدوق «رحمه الله».

قلنا: إن هذا يخالف التصريح الوارد في المروي عن الإمام الرضا «عليه السلام»[1]، وعن عائشة، وابن عباس، وسعيد بن مالك، وعمر بن الخطاب[2].. من أن ذلك قد حصل حين الإسراء والمعراج..

وقد يقال: ربما يمكن الجمع بين الروايات: بأن أكله «صلى الله عليه وآله» من ثمر الجنة قد أثر في أصل وجود النطفة حين

---

(1) راجع: الأمالي للصدوق ص250 ومسند زيد بن علي ص453 .

(2) تاريخ بغداد ص87 ومقتل الحسين «عليه السلام» للخوارزمي ص63 وميزان الإعتدال ج1 ص38 وذخائر العقبى ص43 ولسان الميزان ج5 ص160 وينابيع المودة ج2 ص31 ونظم درر السمطين.

المعراج، ثم جاءه جبرئيل مرة أخرى أو أكثر ليطعمه من ثمر الجنة، لأجل شؤون أخرى ترتبط بسائر شؤون التكوين في نموه، ونشوئه وفق ما أراده الله سبحانه، لبضعة الرسول «صلى الله عليه وآله»، والزهراء البتول «عليها السلام»..

ونقول:

إن هذه الأحاديث تدل على أن المعراج كان في السنة الرابعة للبعثة. إلا إن كان تحوُّل التفاح إلى نطفة يحتاج إلى بعض الوقت، فيترجح بذلك القول الذي يحدد المعراج بالسنة الثالثة من البعثة.

وقد روي: أن الإسراء والمعراج قد تكرر في حياة رسول الله، وذكرت الروايات: أنه «صلى الله عليه وآله» قد مر في عودته على بيت المقدس، ووصفه لقومه، وأخبرهم بما حصل في الطريق لبعض القوافل، فكان ذلك سبباً لتصديق فريق، ودخلوا في الإسلام، ثم نكص من نكص على عقبيه وعاد إلى الكفر **(1)**.

وفي جميع الأحوال نقول:

لقد كان الإسراء في أوائل بعثة النبي «صلى الله عليه وآله»، وهي الفترة الأكثر حساسية وخطورة في حياة هذا الدين، حيث كان «صلى الله عليه وآله» في أشد وأصعب مواجهة بينه وبين قريش والشرك، وعبادة الأصنام.

---

(1) راجع: الكافي ج1 ص442.

فكان المعراج والإسراء، وكان هذا التنزيه ضرورياً في هذا الوقت، فإنه سبحانه وتعالى كان يريد أن يواجه رموز الشرك بهذا التنزيه الذي ينفي به عن ذاته المقدسة كل مظاهر وحالات النقص والضعف، والجهل، والحاجة، والفاقدية، وغير ذلك من حالات يواجهها ويعيشها الإنسان المشرك فيما يعبده من أصنام وأوثان، فيكون هذا التنزيه المؤيد بالمشاهدة للآيات تجسيداً للصفات التي تؤكد معنى الألوهية والربوبية، والمسقطة للشرك المتمثل بعبادة الأصنام، من خلال هذا الإسراء بعبده، ليريه طرفاً من آياته، لأنه تعالى بهذه القوة والعلم، والحكمة، والإحاطة، والتدبير، قد صنع هذا الإسراء والمعراج لنبيه «صلى الله عليه وآله»، ليلمس بنفسه هذا التنزه له سبحانه عن كل نقص وضعف، وجهل وحاجة، وغير ذلك مما يشاهده ويلمسه الإنسان المشرك في أوثانه وأصنامه..

إذن.. هذا الحدث الذي أكد رسول الله «صلى الله عليه وآله» للمشركين أنه صادق فيه، من خلال ما أخبرهم به «صلى الله عليه وآله»، كما حصل لبعض القوافل في الطريق.. الأمر الذي لم يجدوا معه بداً من البخوع له في كل ما يقوله ويخبر عنه من غيوب وآيات رآها في السماوات.. فآمن به «صلى الله عليه وآله» قسم منهم، وإن ارتد بعضهم على أعقابه بعد ذلك..

وكان الهدف من إخبارهم بهذه الحقائق الهائلة هو أن يفسح

المجال أمام فكر وعقل الإنسان، لينطلق في الأفق الأرحب والأصفى.. لكي لا يحصر تفكيره بوثن، أو بصنم عاجز، فاقد لكل شيء، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً. إن هذا الإسراء إلى السموات العلى يعرِّف الناس كل الناس: بأن الله سبحانه وتعالى هو المالك للكون كله، والمهيمن على الحياة كلها، وأن له قدرة وعلماً، وحكمة، وتدبيراً، وغنى وكمالاً مطلقاً لا يتناهى، وليس شيئاً جامداً تجتمع فيه حالات الضعف والعجز والنقص.

وهذا يفتح أمامه آفاقاً جديدة من التفكير بالحياة وبنواميسها، وبعلاقة الإله بكل هذا الكون، وبعلاقة الإنسان بالإله أيضاً، ولا يمكن أن تكون القضية قضية جمادات تُعْبَدُ، وتقرَّب لها القرابين..

فظهر: أن للتسبيح والتنزيه فائدتان:

أولاهما: أنه يظهر نقص وسخافة كل ما يُعبد من دون الله سبحانه وتعالى.

الثانية: أنه يظهر الكمال الإلهي اللامحدود واللامتناهي.

وهذا التسبيح يبطل ما يدعيه الجاهلون من تعدد الآلهة، فإن الشراكة تعني المحدودية والتناهي في كل شيء.

وهذا مما يتنزه الله تعالى أيضاً عنه..

كما أن هذا التنزيه يسهم في الحصول على ضوابط فكرية، وتوسيع آفاق الفكر الإنساني، وترسيخ المنطلقات والقواعد التي تعين البشر على الوصول إلى الحقائق الراهنة، وتنتهي بهم إلى النتائج

الصحيحة.

أما إذا بقي فكر الإنسان محبوساً في صنم أو حجر، أو شخص، أو أي مخلوق محدود، عاجز تافه، يعج بالنقائص والعجز والفاقدية والحاجة، فإنه سيبقى في دائرة هذا المحدود والناقص، ولا يجد سبيلاً للإنطلاق في الأفق الأرحب في فكره وفهمه للأمور، ولا يملك القدرة على الخروج بمعادلات صحيحة يمكن أن توصله إلى الحقائق والدقائق في هذا الكون الرحيب والعجيب.

ثم إن صيغة المبالغة في كلمة (**سُبْحَانَ**).. إنما تكون مبالغة إذا كانت تحكي عن اللامحدود واللامتناهي، فهي إشارة إلى إطلاق المعاني عن القيود والحدود التي يضعها العقل البشري لتصوراته لتكون مانعاً له عن الإمتداد والإنطلاق في الأرحب من الآفاق..

فصيغة المبالغة عند البشر تبقى قاصرة عن حيازة المعاني الحقيقية اللامتناهية واللامحدودة في إطلاقها.

لماذا التسبيح العملي؟!:

ويبقى سؤال، وهو: لماذا كانت أداة التنزيه عملاً عينياً خارجياً هو هذا الإسراء.. ولم يكتف فيه بمجرد إطلاق التسبيح للذات الإلهية؟!

الجواب: هو أن الله تعالى حين يعالج أمور العقيدة يحول الشأن

العقائدي من أمر نظري فكري وحالة تصورية تجريدية ـ يحوله ـ إلى شأن عملي حيوي، يلمسه الإنسان ويعيشه، ولذا نراه يرسخ التنزيه للذات الإلهية من خلال تجسيد الكمال في فعل وممارسة واقعية. وهنا قد جسّد الله معنى الكمال المطلق واللامتناهي، واللامحدود الإلهي في العلم والحكمة، والقدرة، والحياة، والقيومية، وفي كل صفاته وأسمائه تعالى.. جسده لرسوله بأمر عملي يراه ويحس ويشعر به.

وتحويل الشأن العقائدي إلى شأن حياتي عملي، هو نهج قرآني عام، لا يقتصر على هذا المورد، بل يشمل جميع الشؤون، فهو لا يحدثك عن أي إشكال عقلي تصوري محض يلزم من تعدد الآلهة، وإنما يقول: **(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا)**.. فقد تحدّث عن الفساد والخلل الذي تلمسه وتراه، وتشعر به، وتنظر إليه، أو تسمع به، وتحسه بحواسك وتتعامل معه بجوارحك.. ولم يستدل بحاجة الإله إلى المكان، ولم يستدل بالدور أو بالتسلسل، أو بأي لازم عقلي تصوري تجريدي، بل هو يعمد إلى ما هو ذهني وعقلي وفكري فيحوله إلى أمر ملموس تشعر بأنه جزء من كيانك وحياتك، من حيث هو يوجب فساداً، أو صلاحاً، تستقيم به الأمور، أو تصاب بالإختلال والفساد.

فالتوحيد والنبوة، والآخرة، والبداء، وما إلى ذلك، إذن.. لم تعد مجرد معادلة فكرية ذهنية تجريدية لا ربط لها بالواقع.. بل هي أمور عينية خارجية، يفترض بالإنسان أن يتعامل معها سلباً أو إيجاباً..

الباء.. لماذا؟!:

وكلمة أسرى وإن كانت قد نسبت الإسراء إلى نفسه تعالى. وأنه هو الذي فعل الإسراء. ولكنه لم يقل: أسرى عبده. بل قال: (**أَسْرَى بِعَبْدِهِ**) فهذه الباء تدلنا على أن ثمة شيئاً سخره الله عز وجل لينقل هذا العبد من مكان إلى مكان. والسرى: هو السير في الليل، أو في آخره. كما تقدم.

فيأتي هنا السؤال عن الحاجة إلى هذا الشيء، الوسيلة، مع أنه كان يمكن أن يسريه هو تعالى مباشرة، وبصورة تكوينية، بفعل كلمة «كن»، فما الحاجة إلى اعتماد أسلوب الوسيلة هنا في أمر داخل كله في دائرة الإعجاز؟!

ونجيب:

بأن هذا الإسراء، وإن كان معجزاً، وخارقاً للعادة، ولكن الأمر الأهم والأولى بالتأمل والإعتبار هو أنه جار وفق السنن الطبيعية التي أودعها الله تعالى في الكون.. والتي ظهر من هذه الآية وسواها أن هذه السنن ذات مراتب من حيث القوة والتأثير في الأشياء، وحتى في بعضها البعض، فيمكن قهر سنة بأخرى، كما أثبتته التجارب لنا.. فمثلاً قانون الجاذبية يجعل للأجسام ثقلاً يتناسب مع قوة الجاذبية: بدليل أن وزن الشيء الواحد إذا كان على القمر مثلاً يكون أقل بكثير من وزنه إذا كان هو نفسه على الأرض، لأقوائية الجاذبية هنا،

وضعفها هناك. وقانون الجاذبية نعمة إلهية، لأن هذا التماسك على وجه الأرض هو الذي يعطي الفرصة للإنسان ليخطط ويعمل، وليتوقع ويأمل.

وهذه الجاذبية وإن كانت تمنع من الطيران، إلا أن بالإمكان التغلب عليها بالاستفادة من قانون آخر يقهرها، حتى تتمكن الأجسام الثقيلة من الطيران. كما أن القانون الطبيعي يقتضي أن يغوص الجسم الثقيل في الماء، ولكن يمكن معالجة هذا الأمر بالاستفادة من قوانين أخرى أيضاً، ولذلك قال تعالى: **(وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ)**[1]. أي كالجبال..

وهكذا الحال فيما يرتبط بتحول الجسم إلى طاقة حين تعرضه للسرعة الهائلة، فلكي يبقى الجسم متماسكاً في الإسراء نحتاج في قطعه لهذه المسافة التي لا ينالها وهمنا إلى ما يحميه من التلاشي.. والله هو الذي يعرف ذلك الناموس، أو القانون الحامي الذي لو استفيد منه لأعطى هذه النتيجة.

وعلى كل حال، فإن لكل مرحلة سننها وقوانينها الحاكمة عليها والمناسبة لها. والتي تجعل لدى من يخضع لها استعداداً للدخول إلى المراحل الأرقى. كما أنها تجعله في مأمن من سلبيات المراتب الأدنى منها.

---

(1) الآية 24 من سورة الرحمن.

وهذه النواميس المختلفة، المتأثرة ببعضها قد تكون قريبة سهلة المنال. يجد الإنسان مبادئها حوله وفي متناول يده.. فيرى الطائر يطير، ويرى بعض الأجسام الثقيلة لا تغوص في الماء.. فيدرك إمكانية التغلب على السنة التي تفرض الإلتصاق بالأرض، والغرق في الماء، فيتخذ منها مبدأ لانطلاقته في تطوير هذه الظاهرة، وفقاً للإمكانات المتوافرة لديه..

وتوفير هذه المبادئ من حوله كان يشير إلى أنه تعالى يريد أن يفتح أمامه أبواباً من الطموح، ويثير فيه توثباً إلى المعرفة، وشغفاً باستكناه أسرار هذا الكون الرحيب والعجيب. فهي بمثابة دعوة لجميع الخلق للتعرف على أسرار هذا الكون، والتأمل العميق في مساره..

ولتكن عظمة هذه السنن، وسائر ما جرى في هذا الإسراء من أسباب لمح طرف من عظمة الله، وقدرته، وعلمه بمخلوقاته، وتصرفه وتدبيره لها وهيمنته عليها، وسائر ما يرتبط به أو يشير إليه..

وهذا يعطي: أن هذه الباء تسهم إسهاماً عظيماً في الدلالة على عمق وشمولية، وعظمة التنزيه الذي بدأه تعالى في الآية بقوله: **(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ).**

وهذا ينقلنا إلى مفاهيم أخرى لها قيمتها، وحساباتها أيضاً، وهي أنه تعالى لم يتعامل مع هذا الأمر من موقع ألوهيته، فيسري هو عبده

بتصرف تكويني قاهر ومباشر يبطل معه تأثير السنن، وتتعطل النواميس التي أودعها في الكون.. بل تعامل مع هذا الأمر من خلال تحريك السنن التي أوجدها، وإيكال الأمر إلى مخلوقاته التي كونها، إنما أراد أن يشير بذلك إلى أمرين:

أحدهما: أن يظهر لخلقه طرفاً من علمه، وقدرته، وتدبيره وحكمته، وسائر صفاته..

الثاني: أنه تعامل مع هذا الأمر من موقع التدبير والعلم، وسائر صفات الربوبية، وآثر أن يبقى معنى الألوهية على عظمته وجلاله، ربما ليدل الناس على أنه أعظم من أن يناله بشر، أو أن يحيط به إدراك مخلوق. إذ لو أن الله سبحانه تصدى لهذا الحدث من موقع ألوهيته، وفرضه تكويناً. فلربما يتوهم البعض: أن هذه هي حدود العظمة الإلهية، وهي الغاية والنهاية.

أما هذا التعامل الربوبي، فإنه يفرض على المخلوقات أن يدركوا أن من خلق هذا الكون بما فيه من سنن قادرة وقاهرة، ونواميس هائلة، لا يمكن إدراك معنى ألوهيته بحال من الأحوال.

هذا هو مقتضى الحال:

وهنا سؤال ربما يراود الذهن عن سبب اهتمام هذه الآية بالتأكيد على خصوص التنزيه الإلهي دون سواه، بالإضافة إلى الإشارة إلى المعاني والإشارات الأخرى في هذا السياق.

ونجيب:

بأن المقام هو مقام إظهار هذا التنزيه بالذات، لأنه تعالى يريد أن يخص هذا النبي الكريم والعظيم بالمزيد من التشريف والتكريم، وبمنحه المزيد من القوة والثبات والصلابة، والسعة في العلم والمعرفة، ورسوخ القدم في التوحيد، والإشراف على جانب كبير من أسرار هذا الملكوت.. لأن يرصده لمواجهة أصعب المهمات، وأعظم الإنجازات في سياق إيصال هذا الكون كله إلى كماله المنشود، الذي يحتاج إلى ترشيد الدور الإنساني فيه من خلال ترسيخ معنى التوحيد في النفوس، لأن الناس ـ عادة ـ بعيدون عن الغيب، وهو محجوب عنهم، فلا يلتفتون إليه، ولا يعتمدون عليه، بل ينصرفون للتعامل مع ما هو محسوس، أو مع القريب من المحسوس، وهم يظنون أن لديهم قدرات فائقة، وأن بإمكانهم أن يصلوا إلى مراداتهم بجهدهم، وبقدراتهم العقلية والجسدية، وبما يملكونه من وسائل وحنكة ودهاء..

فإذا حصلوا على أي نفع نسبوه إلى أنفسهم، ولا ينسبونه إلى المعطى الحقيقي وهو الرب الكريم، والقادر العليم، والمدبر الحكيم.. ولأجل ذلك قال تعالى: **(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)**[1].

ولا يختص هذا الشعور بفريق بعينه، فحتى المدعون للإيمان

---

(1) الآية 106 من سورة يوسف.

يتعاملون مع الأمور تعامل المشركين، في أفعالهم وسعيهم، وفي ظنونهم، وما يدور في قرارة أنفسهم.

بل قد ترى الإنسان الذي يسعى لشفاء مريضه، أو لحل مشكلته، أو للحصول على رزقه. تراه حين يلتجئ إلى الله لا يثق بأنه سيعطيه، إما لمعرفته بعدم استحقاقه لما يطلبه، أو لأنه لا يملك الإيمان الكافي بأنه تعالى هو المعطي.

ومع ذلك، فإنه حتى إذا أعطاه.. تجد أن في لحن كلامه، وفي طيات حديثه إشارات إلى معنى الجحود والإنكار، وقضم شيء من الحقيقة لصالحه.. حين تراه يجعل من هذا العطاء كرامة من الله، أو لأنه نتيجة إخلاصه، وحسن سريرته..

وهيهات أن يرضى بنسبة شيء لله سبحانه بصورة خالصة من دون أن تكون له نصيب منه، مع أنه يرى نفسه مغموراً بالنعم التي لا تحصى، والتوفيقات التي لا تجارى.. حقاً: (**إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**) و (**إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**).

(الَّذِي):

وقد قال تعالى: (**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى**)، ولم يقل: سبحان من أسرى، بالرغم من أن كلمة من تستعمل للعاقل. وما لغير العاقل..

ولعل سبب اختيار كلمة «الذي» على ما عداها، هو أنها لا نظر فيها إلى أية خصوصية، وإنما تظهر خصوصيتها بالصلة التي بعدها.. فكأنه تعالى يريد أن يدل بنفس هذه الصلة على جميع صفات الله من

العلم والحكمة والقدرة، والتدبير، وغيرها.. لأن المطلوب هو الإشارة ليس إلى صفة واحدة، بل إلى جميع صفاته تعالى.. وأن يكون ذلك بمثابة الدعوى مع دليلها.

ولكنه ليس دليلاً قولياً، وإخباراً لسانياً عن غائب، بل هو دليل محسوس، ومشهود، وملموس. يعطي للشاهد معرفة لها تأثيرها الذي لا يجارى في مضاعفة القوة والاندفاع الحاسم للإنقياد والطاعة، ومواجهة الصعاب.

وتنقل هذا العارف إلى مقامات بالغة السمو، وتؤهله لأوسمة، ولمسؤوليات أسمى وأعظم، وأجل وأفخم من كل ما عهدناه، أو سمعنا عنه.

فظهر: أن هذه الآية بما لها من فعل إعجازي هائل يرتبط بالنفوذ من السماوات في هذا الإسراء، أو في إسراء آخر أشير في سورة النجم إلى أنه «صلى الله عليه وآله» قد وصل إلى سدرة المنتهى، تلتقي ولو بصورة جزئية ـ أي في بعض مراحلها، ومن بعض وجوهها ـ مع قوله تعالى في سورة الرحمن: (**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ**).

حجم السماوات:

1 ـ ثم أن عظمة وأهمية هذه الآية ـ آية الإسراء ـ تظهر إذا ألقينا نظرة على سعة السماوات من منظور قرآني، ففي الآيات: أن هناك سبع سماوات، وفيها أيضاً: إن هناك سماء دنيا، وسماوات على..

وفي بعض الروايات: أن السماء الدنيا ـ وهي الأقرب والأدنى إلينا ـ وأنها إذا قيست إلى السماء الثانية فهي كحلقة ملقاة في فلاة..

والسماء الثانية بالنسبة للثالثة كحلقة ملقاة في فلاة..

والثالثة في الرابعة كذلك، وهكذا الحال بالنسبة للرابعة في الخامسة، والخامسة في السادسة، والسادسة في السابعة، والسابعة في العرش، والعرش في الكرسي(1).

2 ـ وإذا رجعنا إلى الآيات القرآنية أيضاً، فسنرى أنها أشارت إلى أن سعة السماء الدنيا غير قابلة للتصور، فما بالك بالسماوات الأخرى، فقد قال تعالى: **(وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)**.

وفي آية أخرى: **(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)**.

مما يعني: أن كل هذه النجوم التي نراها، وهي لا تعد ولا تحصى، إنما هي زينة للسماء الدنيا، ونحن نعلم: أن وصول ضوء

---

(1) راجع: الكافي ج8 ص153 و 154 والتوحيد للصدوق ص276 و 277 ونور البراهين ج2 ص94 ـ 98 وتفسير نور الثقلين ج5 ص364 و 365 وبحار الأنوار ج57 ص83 و 84 وراجع: ج25 ص385.

بعض النجوم إلينا يحتاج إلى الكثير من السنين الضوئية، عشرات، أو مئات، أو آلاف، في حين أن نور الشمس التي تبعد عنا نحو من مئة وخمسين مليون كيلومتر لا يحتاج ضوؤها ليصل إلى الأرض إلى أكثر من ثمان دقائق.

علماً بأن سرعة النور هي حوالي ثلاث مئة ألف كيلو متر في الثانية.

وهذا يشير إلى مدى سعة ورحابة السماء الدنيا.. فإذا كانت بالإضافة إلى السماء الثانية بمثابة حلقة ملقاة في فلاة.. والثانية في الثالثة كذلك.. وهكذا إلى آخر السلسلة، فهل يمكن للعقل البشري تصور حجم السماوات السبع كلها؟! فما بالك بالوقوف على أسرار هذا الكون، ودقائقه؟!

مع أن الآية التي في سورة الرحمن تريد أن تثير في الإنسان الطموح إلى الخروج من أقطار السماوات والأرض كلها إلى عالم أوسع وأرحب.. حيث وضعت أمام البشر إمكانية حصول ذلك.. وحددت لهم طبيعة العوائق والموانع التي تعترض طريقهم، وكأنها تشير إليهم بلزوم الإعداد لمشروع كهذا، والعمل على إيجاد الوسائل التي تمكنهم من تحقيقه والتغلب على هذه العوائق.

وهذا يدفع التصور الذي يقول: إن هذه الآية جاءت على طريقة: أن فرض المحال ليس بمحال. بهدف إظهار ضعف وعجز الإنسان

أمام قدرة الله تعالى، فهي نظير قوله تعالى: **(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)**(1). وقريب منه قوله تعالى: **(لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)**(2).

فإن هذا غير صحيح، لأن بيان المانع من النفوذ هو بيان لأمر واقعي. كما أنه قد أشار إلى أن من الممكن امتلاك القوة والسلطان الذي يسهل هذا النفوذ.

ثم جاء الإسراء النبوى الذي أشارت الآية إلى اعتماده الوسائل والسنن في قطع المسافات الهائلة، والتغلب على الموانع، ليكون التطبيق العملي لهذا الأمر، ولكنه لم يقتصر على السماوات، بل بلغ في بعض إسراءاته ـ كما أشير إليه في سورة النجم ـ إلى سدرة المنتهى..

فظهر: أن الباء في قوله: **(بِعَبْدِهِ)** تريد أن تفتح أمام الإنسان نافذة على السنن التي أودعها الله في الكون لنتطلع إليها، ونفكر فيها، ونتعامل معها، ونسعى إلى تذليلها، والهيمنة عليها، والإستفادة منها.. ونجعل منها سلماً إلى ما هو أرقى وأسمى.

وليس المراد إبقاء الإنسان في دائرة الإنكفاء والإنطواء، والعجز.

---

(1) الآية 22 من سورة الأنبياء.

(2) الآية 65 من سورة الزمر.

مقام العبودية:

إن العبودية لله هي أعلى مقام يصل إليه الإنسان، وقد قال «صلى الله عليه وآله»: «أفلا أكون عبداً شكوراً»، ونقول في الصلاة مرتين: «أشهد أن محمداً عبده ورسوله».

فذكر صفة العبودية أولاً، ثم ثنى بالشكورية، والرسولية.. ربما لأن العبودية هي التي أهلته للرسولية، وللشكورية..

وهكذا يقال في قوله تعالى: **(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ)**(1).

وقال عن امرأتي لوط ونوح: **(كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ)**(2).

فوصفهما بأنهما عبدان من جملة جماعة عباده، ووصفهما بالصلاح الذي يعني أن الصالح متناسب مع محيطه، ومنسجم معه، ولا يوجب تواجده فيه أي خلل أو فساد، لا في الشكل، ولا في المضمون.. فالإنسان الصالح متناسب مع طبائع الناس، ومع أفكارهم وفطرتهم، ومع الهواء والفضاء، وكل شيء له ارتباط به.. وصلاح الأنبياء ناشئ من عبوديتهم الخالصة لله، حيث يكونون وفق مراده تعالى في كل شيء.

---

(1) الآية 17 من سورة ص.

(2) الآية 11 من سورة التحريم.

وللعبودية مراتب، من حيث درجات التذلل والخضوع أمام المولى، إلى حد أن يمحو نفسه بصورة تامة.

العبودية غاية الخلق:

وإذا رجعنا إلى الآيات القرآنية مرة أخرى، وقرأنا قوله تعالى: **(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)**[1]. فسنلاحظ: أنها دلت على أن غاية الخلق هي العبادة التي تعني الخضوع المطلق، والطاعة والإنقياد.

وهذا إنما يكون نتيجة معرفة الإنسان بنفسه، فيضعها في موقعها اللائق بها.. وهذه العبودية هي التي توصل الإنسان والكون إلى كماله.. ولأجل ذلك كانت هذه العبودية هي القيمة الكبرى والوسام الأعظم الذي يمنحه الله تعالى لأنبيائه، وهي المنشأ والأساس للتفضلات الإلهية عليهم، وهي نابعة من عمق ذات، ومن روح هذا النبي الكريم، وليست أمراً عارضاً عليه[2].

ويبقى سؤال: لماذا لم يقل: أسرى بنبيه، أو برسوله. بل قال: **(بِعَبْدِهِ)**؟! فإن مقام النبوة والرسولية يستحق التنويه به.

ويمكن أن يجاب:

---

(1) الآية 56 من سورة الذاريات.

(2) من عرف نفسه، فق عرف ربه.

بأنه لو اختار هذه العبارة لانعكس المعنى الذي يراد توجيه الأنظار إليه، والدلالة عليه، لأنه لو قال اسرى بنبيه أو برسوله، فلربما يتخيل بعض الناس: أن هذا الإسراء، ليس لأجل أنه مؤهل لنيل هذا المقام، بل لأن الله تعالى تفضل عليه به، لاقتضاء مقام النبوة أو الرسولية له.. لاحتياج هذه النبوة والرسولية إلى ربط الناس بالغيب وإقناعهم به، والتعامل معهم من خلاله وعلى أساسه فيمنحه الله هذا الإسراء، لأن مهمته تحتاج إليه، ومقامه يقتضيه.

فجاءت كلمة: **(بِعَبْدِهِ)** لتقول: إن نفس عبوديته لله التي فاقت كل عبودية هي التي أهلته لهذا العطاء.. كما أهلت علياً «عليه السلام» أيضاً ـ وهو نفس النبي وأخوه ـ لتكون له إسراءات أيضاً إلى السماوات، كما ورد في الأحاديث(1).

على أنه لو كان هذا الإسراء من شؤون مقام النبوة والرسولية لوجب أن يفعله الله بجميع الأنبياء والرسل، من آدم «عليه السلام» إلى النبي الخاتم «صلى الله عليه وآله».

(1) راجع: بحار الأنوار ج39 ص158 - 161 و 150 وج60 ص95 و 96 وج54 ص335 و 336 وج18 ص406 وج40 ص33 وتفسير فرات الكوفي ص199 والخرائج والجرائح ج2 ص868 والبرهان (تفسير) ج3 ص499 و 497 وج5 ص194 والاختصاص ص213 والأمالي للطوسي ص352 .

كما أنه لو كان من شؤون هذا المقام لوجب أن لا يحصل لعلي «عليه السلام».

بل إنه إذا كانت هذه العبودية الخالصة جداً، والتي بلغها رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد أثمرت تسخير السنن الكونية للرسول، ثم لعلي الذي هو بمثابة رسول الله «صلى الله عليه وآله» في عبوديته بنص آية المباهلة.. فإن فعل الإسراء، والتسلط على النواميس، والتصرف في السنن يصبح مقدوراً وميسوراً لمن بلغ هذه المراتب السامية، التي لم يصل إليها إلا النبي الخاتم، وأوصياؤه «صلوات الله عليه وعليهم أجمعين».

الإسراء بالروح أو بالجسد أيضاً:

وقد حاول بنو أمية، وكذلك عائشة بنت أبي بكر إنكار أن يكون الإسراء بالروح والجسد معاً، ورووا عن عائشة أنها قالت: ما فقدت جسد رسول الله «صلى الله عليه وآله» قط ـ يعني في تلك الليلة ـ(1).

بل زعموا: أنها مجرد رؤيا صادقة رآها رسول الله «صلى الله عليه وآله»(2).

---

(1) تاريخ الخميس ج1 ص308 والمواهب اللدنية ج2 ص2 وبحار الأنوار ج18 ص291 والدر المنثور ج4 ص157 والشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ج1 ص187 وتفسير الميزان ج13 ص24 .

(2) جامع البيان للطبري ج15 ص22 وتفسير العز بن عبد السلام ج2

والجواب:

أولاً: بالنسبة لما روي عن عائشة نقول: إنّها لم تكن حين الإسراء في بيت الرسول «صلى الله عليه وآله»، لأنه إنما تزوجها، وانتقلت إلى بيته بعد الهجرة.

والإسراء كان في أوائل البعثة.. وحتى لو كان في السنة الثانية عشرة من البعثة، فإنها أيضاً لم تكن في بيت الرسول. فما معنى استدلالها على دعواها بقولها: ما فقدت جسد رسول الله قط؟!

ثانياً: لو أغمضنا النظر عن ذلك، فإننا نقول:

إن هذا الإسراء قد تم بمجموعه في مدة يسيرة من الليل، فهل هي لم تنم تلك الليلة، ولو بمقدار يسير جداً؟! ولماذا بقيت مستيقظة الليل كله؟!

ثالثاً: إن كلمة: (**أَسْرَى بِعَبْدِهِ**) تدل على أن الإسراء بالروح والجسد، ولو كان الإسراء بالروح فقط لقال: «أسرى بروح عبده». لأن كلمة العبد تطلق على الإنسان بما هو روح وجسد.

ص211 وتفسير القران العظيم ج3 ص25 والدر المنثور ج4 ص157 وتفسير الميزان ج13 ص23 و 32 والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث العربي) ج3 ص141 والسيرة النبوية لابن هشام ج2 ص271 والسيرة النبوية لابن كثير ج2 ص105.

ومهما يكن من أمر، فإن بني أمية كانوا حريصين على إنكار ميزات رسول الله «صلى الله عليه وآله»، والتشكيك بفضائله الكبرى، وكانوا يسعون لإخماد ذكره ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.. وقد روى الرواة عن معاوية أنه لما سمع المؤذن يقول: أشهد محمداً رسول الله قال ما معناه: لله درك يا ابن أبي كبشة ما رضيت إلا أن تقرن اسمك باسم رب العالمين ينادى باسمه كل يوم خمس مرات..

فلما سئل عن ذلك ذكر أن أبا بكر وعمر وعثمان لم يصنعوا شيئاً، بل حين هلكوا هلك ذكرهم.. إلى أن قال عن ذكر رسول الله «صلى الله عليه وآله»: لا والله إلا دفناً دفناً(1).

فلا عجب بعد هذا إذا رأينا بني أمية يزعمون أن الإسراء والمعراج مجرد رؤيا صالحة.

---

(1) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج9 ص238 و (ط دار إحياء الكتب العربية) ج5 ص129 و 130 وكشف الغمة ج2 ص45 و 46 وبحار الأنوار ج33 ص169 و 170 والغدير ج10 ص283 و 284 ووضوء النبي ج1 ص208 ومروج الذهب ج3 ص454 و (ط أخرى) ج2 ص341 والموفقيات للزبير بن بكار 576 ـ 577 والنصائح الكافية ص116 وموسوعة التاريخ الإسلامي ج1 ص47 و 48 وكشف اليقين ص474 و 475 وقاموس الرجال ج9 ص20 وج10 ص110 وبهج الصباغة ج3 ص193 وكتاب الأربعين للماحوزي ص88 و 89.

إنكار معجزات الرسول!!:

وهناك من لا يتجرأ على الجهر بإنكار معجزاته «صلى الله عليه وآله»، فيحاول الإلتفاف على هذا الأمر، فيقول: إنه لا يقبل بالمعجزات إلا إذا كانت منسجمة مع الأمور الطبيعية، فإذا كان جسد الإنسان لا يمكن أن يسير بسرعة هائلة يقطع فيها آلاف الأميال في وقت يسير، لأنه سوف يتلاشى ويتحول إلى طاقة، فلا بد من القول: بأن للإسراء معنى قابلاً للإنسجام مع هذه الحقيقة: كأن يقال: إنه كان بالروح، فقط لكي لا يواجه مشكلة تلاشي الجسد بسبب السرعة الهائلة.

ونقول له:

إذا كان البشر القاصرون قد استطاعوا أن يخضعوا كثيراً من السنن الطبيعية، فسيروا الطائرات الضخمة، وخرجوا من فضاء الأرض، واخترقوا الفضاء ووصلوا إلى القمر والزهرة والمريخ. فهل يعجز سبحانه أن يهيء لعباده المكرمين وأنبيائه المرسلين الوقاية من التحول إلى طاقة بسبب السرعة؟! أم أن البشر أعرف منه تعالى بأسرار الطبيعة، وبكيفيات إخضاع نواميسها لإرادتهم. وتسخيرها لأغراضهم؟!

الإسراء بالليل:

وحول قوله تعالى: (لَيْلاً) نقول:

قال المفسرون: المراد: أن تمام الإسراء، ذهاباً وإياباً قد حصل في الليل. ولو أنه حذف كلمة ليلاً، وقال: «أسرى بعبده لنريه من آياتنا» لدل على أن بدء السير كان في الليل، لكن لم يعلم متى كان انتهاء ذلك الإسراء أفي الليل، أو في النهار، في اليوم التالي، أو بعد أيام قليلة، أو كثيرة ـ كل ذلك محتمل ـ فهو كقولك: أدلجوا في طلب عدوهم.. فإنه لا يدل على زمان وصولهم إلى ذلك العدو..

لماذا لم يكن بالنهار؟!:

وقد يسأل سائل عن سبب اختيار الليل لهذه الرحلة العظيمة والهائلة!! ولماذا لم تكن في وضح النهار؟!

ويمكن أن يجاب:

بأن ذلك لو حصل نهاراً أمام أعين الناس، فلربما فتح ذلك باب الاتهام بالسحر، وأن سبيله هو التخييل والتأثير على الباصرة، كما حصل ذلك بالنسبة لموسى «عليه السلام»، حين دعا فرعون إلى الإيمان بالله الواحد، فطالبه فرعون بآية: **(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)**(1).

فإنه زعم للناس: أن هذا كان من السحر.

---

(1) الآيات 107 ـ 109 من سورة الأعراف.

ولأجل ذلك حصل الإسراء ليلاً، وفي الخفاء، فسدَّ بذلك باب التأيل، والتماس الحيل لإبطال أقواله «صلى الله عليه وآله».. ثم صار «صلى الله عليه وآله» يخبرهم بما دلهم على صدقه.. فآمن له جماعة من الناس في مكة نتيجة لذلك..

كما أنهم حين يرونه قد غاب عن أنظارهم بعد مسافة معينة، قد يجادلون في أن يكون قد بلغ السماوات العلى حقاً وصدقاً أو لم يبلغها، وقد يظنون أنه تغيب في بعض الشعاب أو خلف الجبال.. أو نحو ذلك.

ثانياً: إن المطلوب من الإسراء والمعراج ليس هو مجرد إراءتهم قطع المسافات الطويلة بصورة إعجازية، بل المطلوب هو إراءة الله الآيات لنبيه «صلى الله عليه وآله»، لمصلحة تعود إليه «صلى الله عليه وآله» في نفسه وشخصه..

والمطلوب بعد ذلك: هو أن يخبرهم بهذا الإسراء، ويثبت لهم حصوله بأي طريق من طرق الإثبات، ولو لم يكن للإسراء فيه نصيب أو دور.

لأن الغرض: هو ربط الناس بالغيب، لا مجرد إقناعهم بقطع المسافة.. بل لعل توجيه أنظارهم إلى المسافة، وإثارة الجدل حولها تصديقاً أو تكذيباً يصرفهم عن الهدف الأساس، وهو فتح أبواب الغيب أمامهم، وإشاعة الثقافة الغيبية، فيما بينهم.

كما أنه لو أسرى به نهاراً أمام أعينهم وعاد إليهم بعد ساعة أو

ساعتين، فإنهم سيكذبونه في هذا الأمر على أساس أن الساعة والساعتين لا تكفي لقطع هذه المسافات الشاسعة، لا سيما وأنهم إنما يتعاملون مع الأمور لا من موقع وعي المعجزة، بل من واقع ما يعيشونه ويدركونه بوسائلهم القاصرة والمحدودة..

الفصل الثاني:

المسجــد الحـــرام هـــو المـــبدأ..

من أين؟! وإلى أين؟!:

ثم إن هذا الإسراء إنما كان من مسجد إلى مسجد، فالمبدأ هو المسجد الحرام، والمنتهى هو المسجد الأقصى.. وفي الروايات: أن المراد بالمسجد الأقصى هو مصلى الملائكة في السماء. سنذكره، ونذكر ما يدل عليه. كما أشرنا إليه فيما سبق.

بين المسجدين:

وقبل أن نتعرض لبعض الكلام حول هذا الموضوع نلفت النظر إلى أن هذا الإسراء، قد بقي بين مسجدين، ولم يخرج الله تعالى نبيه من المسجد إلى غير المسجد، بل أخرجه إلى مسجد ثم أعاده إلى المسجد مرة أخرى..

أي أن هذه الرحلة الكونية، التي تكشف بعض الغوامض والأسرار الكونية له «صلى الله عليه وآله» هي في سياق عبادي وعبودي من بدايتها إلى نهايتها.

وملاحظة أخرى هنا، وهي: هذا التناسب التام بين خصوصية المسجدية، وخصوصية العبودية والعبادية.. لا سيما وأن المسجد هو

الذي يعلن عبودية الإنسان ويجسدها على شكل عبادة ظاهرة، وحية وملموسة..

وإن العبودية لله والإنصهار فيها يساوق السمو في أبهى معانيه، وأعظم تجلياته. وأن السجود في المسجد هو عروج إلى الله، وفق ما ورد: الصلاة معراج المؤمن(1).

بقي أن نشير إلى أنه سبحانه لم يشر إلى العودة من المسجد الأقصى إلى الموضع الأول، ربما لأن شاهد الحال يقضي بحصول هذه العودة، فذكره يصبح تطويلاً ممجوجاً، لأنه تطويل بلا طائل.

الإشارة إلى جهة البعد فقط:

ثم إنه تعالى قد بدأ بالمسجد الحرام، وانتهى بالمسجد الأقصى الذي تقول الرواية: إنه في السماء.. فأشار إلى جهة البعد بكلمة «الأقصى»، ولم يصف المسجد الحرام بـ «الأدنى» بل اكتفى بذكر خصوصية أخرى فيه، جليلة وجميلة، وهي أنه «حرام».

فهل تجد لهذا من سبب؟!

ونجيب:

---

(1) مستدرك سفينة البحار ج 6 ص 343 وإعتقادات المسلمين للمجلسي ص29 والحكم الزاهرة ج1 ص211 عن شرح الباب الحادي عشر ص89 وتسديد الأصول ج1 ص61 وسر الصلاة أو صلاة العارفين (ط مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني ـ طهران سنة 1995م) ص56.

أولاً: إن نفس كلمة «الأقصى» تستبطن الإلماح إلى أن بدء الإسراء كان من مسجد لا يتصف بالبعد. بل يتصف بما يقابله، فلا تبقى حاجة إلى ذكر أي وصف آخر..

ثانياً: إن شاهد الحال يعطي: أن مبدأ الإسراء إنما يكون موضع قريب من مكان الشخص الذي سيكون الإسراء به.

ثالثاً: يضاف إلى ما تقدم: أن تحديد المسجد الذي حصل الإسراء منه بواسطة كلمة «الحرام» كاف في إفادة معنى القرب، لأن المقصود بكلمة الأدنى والأقصى هو تحديد الموقع، وقد حصل هذا التحديد بصورة أوفى وأتم، بالتصريح بالاسم والوصف، فيصير ذكر كلمة قريب وبعيد، بعد هذا التحديد الدقيق والأكيد بلا جهة، بل هو من فضول الكلام.

رابعاً: إن التحديد لموضع الإسراء بأنه من **(الْمَسْجِدِ الأَقْصَى)** أفاد معنى آخر غير معنى قرب المسافة، وهو معنى الحرمة والكرامة والتشريف والخصوصية لموقع الإبتداء. والقاعدة تقول: إن التأسيس لمعنى جديد أولى من التأكيد.

من أين كان الإسراء؟!:

ويبقى هنا سؤال يقول: تصرح الآية المباركة: بأن الإسراء كان من المسجد الحرام.. فكيف نفهم الرواية التي تقول: إنه «صلى الله عليه وآله» أسري به من بيت أم هاني؟! أخت أمير المؤمنين؟!

ويجاب:

بأنه لا مانع من أن يكون «صلى الله عليه وآله» قد بات في بيت أم هاني، ثم أوحي إليه «صلى الله عليه وآله» أن الإسراء به سيكون من المسجد الحرام فخرج إليه. فبدأت رحلة الإسراء بوسائله الخاصة به من المسجد..

أما مسيره «صلى الله عليه وآله» من بيت أم هاني إلى المسجد، فكان سيراً على الأقدام ومن دون الإستفادة من أي وسيلة غير عادية..

وهذا الجواب أولى من القول: بأن الحرم يشمل مكة وسواها مما جاورها، فالإسراء من أي مكان فيها هو إسراء من الحرم. فيصبح إطلاق كلمة المسجد الحرام على المجموع على سبيل التوسع. كما يقال: فلان سار من مكة إلى المدينة، وهو إنما سار من نقطة واحدة منها..

وفائدة هذا التوسع هو منح مكة خصوصية تكريمية، من حيث التنصيص على حرمتها تبعاً لحرمة المسجد الموجود فيها.

وهذا الجواب يحتاج إلى توسع وادعاء، والجواب الذي ذكرناه أولاً منسجم مع الإستعمالات الحقيقية للكلمات.

لماذا مسجد؟! ولماذا حرام؟!:

ومن المعلوم: أن هذا هو المسجد الوحيد الذي يوصف بالحرام في الإسلام.. وهذه الخصوصية له تبين أنه يختلف في شرفه وفضله

وعظمته، وحرمته عند الله عن سائر المساجد..

وكأن إطلاق هذا الوصف على نفس المسجد يهدف للدلالة على شدة حرمته، وشمولها لكل حرمة، فهو من قبيل زيد عدل..

وهذا هو المناسب لهذا الإسراء الذي يحمل في ثناياه ما يشير إلى كل الصفات والأسماء، وسائر ما له من ارتباط بمعنى الألوهية والربوبية، ليسهم ذلك في تأكيد وترسيخ معنى العبودية في عمق ذات عبده الذي يريد أن يريه من آياته، لأن العبودية الحقة والمطلقة تستبطن رعاية جميع الحرمات، والإلتزام بجميع الطاعات. والعبادة الخالصة المحضة هي السجود.

فالإنطلاق إنما كان من موقع يجسد أقصى حالات العبودية، إذ لا يجسد شيء العبودية أقصى من تجسيد السجود لها، لأنه عبادة ذاتية، وهو التجلي للعبادة بأقصى حالاتها قصد ذلك فاعله أو لم يقصد.

إن هذا المسجد يخرج الخضوع من دائرة الشعور القلبي، ليصبح واقعاً حياً ملموساً بهذا السجود. ولذا كان الإسراء من المسجد الذي هو موضع السجود الذي لا يمكن إلا أن يكون عبودية وعبادة في كل حال.

إنه يسرى به من هذا المسجد المستجمع لأعظم الحرمات.. إلى مسجد آخر هو مصلى الملائكة، لكي يبقى يعيش هذه الحالة فيه من خلال ما يريه الله إياه في سفر عبودي سجودي خالص لله.

ولهذا المسجد حرمات لا بد من حفظها من كل تعد وهتك، من

قبل أي كان من الناس، ولا يختص الأمر بحرمة دون حرمة، بل يجب حفظ جميع حرماته على أنواعها.

وبعبارة أكثر تفصيلاً نقول:

قد يكون الداعي للخضوع والإنقياد ـ إلى حد العبادة ـ هو الطمع بنفع عاجل، أو رجاء نفع آجل، وقد يكون الداعي ذلك الخوف وحب السلامة من العقوبة والبلاء.

وقد يكون الداعي إلى ذلك هو المعرفة الحقيقية بأن هذا المعبود هو المستحق للعبادة دون سواه.. ومن مكونات هذه المعرفة وترسيخها هو الوقوف على أسرار الخلق والخليقة، ورؤية بعض الآيات الكبرى التي تدل على واجدية الصانع والخالق لكل صفات الألوهية والربوبية، وتصرح بأنه منزه عن كل عيب ونقص، وجهل، وعجز، وحاجة.. وعن كل ما يجب أن يتنزه عنه الإله والرب..

فرؤية الآيات وبديع صنع الله، وعظيم قدرته وحكمته، وعلمه وتدبيره، وقيوميته، وعظيم ملكوته، تنتج معرفة عن الدليل القاطع، ويصبح إيمانه إيمان من عاين ورأى.. لا إيمان من سمع وتصور. فإذا عبد الله بهذا الإيمان، فلأنه رأى مظاهر الجلال وتجليات الكمال، وآثار صفات الجمال، فتكون نتيجة ذلك إيماناً لا يضاهى، ويكون خضوعه وعبادته خضوع العارفين، وعبادته عبادة الأحرار الواصلين.

وهذه الآية تشير إلى أنه تعالى يريد أن يصنع عبده ورسوله الذي

هو المثل الأعلى للمخلوقات ـ يصنعه ـ على عينه، عابداً له عبادة هي نتاج معرفةٍ ويقين، فرضها تلمُّسه للأسرار بصورة مباشرة، ووقوفه على طرف من آيات الله الواحد القهار، لتكون عبادته عبادة إجلال وإكبار، وخالصة له تعالى، بكل ما لهذه الكلمة من معنى..

ونعتقد: أن الله تعالى قد اختص لنفسه بدرجة من الغيب، ومن الأسرار والحقائق اللائقة بمقام الألوهية، الذي لا يصل إليه مقام المخلوقين كلهم حتى الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله».

الكمال درجات؟!:

إن الكمال إن أريد به مجرد الخروج من حال النقص إلى حال التمام، فهو درجة واحدة، وهي الحد الذي يحصل به هذا الخروج، ويصبح تاماً غير ناقص.

وإن كان المراد به حالات ودرجات الكمال فيما لا يتصور فيه نقص أصلاً.. مثل ملكة العصمة عن الذنب والسهو والنسيان مثلاً، فإنها إذا تحققت انتفى الذنب والسهو والنسيان، ولكن درجة رسوخ هذه العصمة ومستوى الصلابة المانعة من حصول هذه الأمور تبقى متفاوتة.. فهناك من يعصم نفسه إذا كان في محيط إيماني، وليس فيه مغريات، أو مثيرات للغرائز والشهوات.. ولكن مقاومته قد تضعف إذا ابتلي بما يثيره، ويوقظ غرائزه.

وفي مثال آخر: إذا كنت في بلد فيه حرب، وسافرت منه إلى بلد آمن، وأحببت أن تقيم في أقدس بلد فيه، فإنك بمجرد دخولك في حدود ذلك البلد الآمن تكون قد حصلت على الأمن. وكلما تقدمت نحو ذلك البلد المقدس، فإن ثوابك يزداد، وتعلو درجتك عند الله.

وإذا قسنا ذلك على حالات أهل الدنيا، فالمثال على ذلك هو أننا إذا فسرنا الغنى بأنه هو الحصول على مؤونة سنة كاملة.. فإذا حصل أحدهم على هذا المقدار فقد تحقق له الغنى وزال الفقر.. ولكنه إذا واصل طلب المال فسيحصل بعد ذلك على درجات أعلى من الغنى

من عشرات الألوف والمئات، ثم إلى الملايين، ثم ينتقل إلى المليارات فما بعدها. ووصف الغنى حاصل له في جميع هذه الدرجات.

وفيما نحن فيه نقول:

إن الله تعالى هو محض الكمال الذي ليس فيه نقص وعجز، ولا حاجة، ولا جهل، ولا.. ولا.. إلخ..

والمفروض: أن هذا الكمال لا يتناهى في نفسه، ولكنه ذو مراتب كامنة فيه، وفي معرفته، فطريق السير إلى الله تعالى ودرجات القرب منه لا تتناهى أيضاً، فالسائر إليه تعالى هو في حالة رقي مستمر.

الرسول هو الأكمل والأفضل:

وقد أراد الله تعالى لرسول الله «صلى الله عليه وآله» الذي هو كامل منذ ولادته، بل هو كامل قبل أن يولد، بل منذ كان مطيفاً بالعرش.. حيث كان شاهداً على الأنبياء ـ أراد له الله ـ أن يتسامى في درجات الفضل والقرب والكمال، ليكون الأكمل والأفضل، والأسمى والأجل مقاماً بين جميع المخلوقات، والشاهد على الأنبياء، وهو الغاية التي لا ترقى إليها غاية في هذا الخلق، وهو المحور، والمعول عليه، والميزان في هذا الخلق كله، وإليه إياب الخلق، وعليه حسابهم.

فكانت هذه الرحلة رحلة الإسراء المباركة تهدف إلى المزيد من التشريف والتكريم، والتعظيم له، وإلى أن يريه الله من آياته، ويزيده من فضله، وينيله من بركاته ما يبلغ به أقصى المراتب، وأعلى

الدرجات.

البركات حول المسجد:

ومن الأمور التي تلفت النظر هنا: هو الإنتقال من الحديث عن الذات الإلهية بصيغة الغائب: (**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى**) إلى الحديث بصيغة المتكلمين الحاضرين، فقال: (**بَارَكْنَا**)، (**لِنُرِيَهُ**)، ثم عاد إلى صيغة الغائب، فقال: (**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**).

الضمائر في الآية المباركة:

وأمر آخر لا بد من الإشارة إليه هنا، وهو: أنه في البداية، حين تكلم تعالى عن نفسه بصيغة الغائب قد أورد الكلام بصيغة الإفراد، فقال: (**الَّذِي أَسْرَى**)..

وحين تكلم عن نفسه بصيغة المتكلم الحاضر تحدث بصيغة الجمع، فقال: (**بَارَكْنَا**)، (**لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا**)..

ثم عاد فتكلم أيضاً بصيغة المفرد والغائب من جديد، فقال: (**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**).

ولعل السبب في الحديث بصيغة المفرد عن نفسه في بداية الآية وفي نهايتها: هو أنه كان في البداية بصدد الحديث عن التنزيه للذات الإلهية الذي ينتهي إلى التعريف بالصفات والأسماء لذاته تعالى بما لها من مقام ربوبية وألوهية.. وهذا منحصر بالذات المقدسة، فلا بد من معرفتها، وتمييزها عن كل ما عداها، ونفي أي احتمال لأي

مشاركة، أو توهمها من أي نوع كانت، وفي أي مورد أتت، وأي مستوى فرضت، حتى لو كانت بمستوى استعمال الألفاظ صورياً.

فإن استعمال صيغة الجمع في مقام التكلم قد يكون للإشارة إلى الوسائط التي جعلها الله، والتي قد تكون ملكاً من الملائكة، أو قانوناً أو سنة طبيعية، أو مزيجاً منهما، كما هو الحال في إنزال المطر، في قوله تعالى: **(فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)** مثلاً. أو واسطة إبلاغ كما هي الحال في الوحي بواسطة الملك، كما في قوله تعالى: **(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً)**.

وقد يكون لأجل إظهار مقام العزة والعظمة، والكبرياء.

ولكنه تعالى في مورد التنزيه وبيان صفات الألوهية والربوبية لا يمكن أن يتكلم إلا بصيغة الإفراد..

قال بعض الأخوة هنا: على هذ، فإن ما يناسب هذا المورد هو كلمة «أسرينا بعبدنا» لاشتمال الإسراء على وسائط وتسخير للنواميس الكونية.

ثم أجاب عن هذا بقوله: إلا إن كان المقصود المزيد من التلطف بالنبي «صلى الله عليه وآله»، بالإشارة إلى أن الله تعالى قد باشر بنفسه وبيده إسراء نبيه «صلى الله عليه وآله» بدون وسائط للتدليل على عظمة ومكانة المسرى به. أما قوله: **(لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا)**، فقد كان الروح الأمين إحدى وسائط هذه الإراءة، فلذلك وردت بصيغة الجمع. (ونعم ما قاله أولاً، وما أجاب به أخيراً).

ثم إنه حين تحدث تعالى عن إفاضة البركات، والتفضلات، والنعم على مخلوقاته يتكلم بصيغة الجمع، لإظهارالعظمة والعزة، أو للإشارة إلى تسخير النواميس الكونية، التي وضعها سبحانه.. فإن القدرة على تحريكها لتلبية مراداته، معجزة أخرى تنضم إلى معجزة العطاء والتفضل، لتشكلا معاً قناعة مضاعفة فيما يرتبط بالصفات والأسماء التي يقتضيها معنى الألوهية والربوبية.

من الغيبة إلى الحضور، ثم الغيبة:

وأما ما أشير إليه من الإنتقال من الغيبة إلى الحضور، ثم الغيبة، فلعل السبب فيه: هو أن ضمير الحضور قد كان فيما يرتبط بالحديث عن الإفاضات والتفضلات، فلعله لأجل حضور مكوناته، التي تجسده واقعاً حياً ملموساً ومشهوداً..

وهو «صلى الله عليه وآله» يرى هذه الآيات ويشاهدها بنفسه، ويشعر بعظمتها، فالمناسب هو استعمال ما يدل على هذا الحضور.

أما فيما يرتبط بالتسبيح والتنزيه، فيراد به نفي العجز والنقص والجهل، وسائر أنواع الفاقدية عنه سبحانه، لكي يثبت عوضاً عنها ما يقابلها، مثل: العلم والتدبير، والحكمة والقدرة، وسائر الصفات والأسماء المرتبطة بمعنى الربوبية والألوهية.

وكل ما يراد نفيه، وما يجب إثباته، مما يدخل في دائرة اللامتناهي واللامحدود، لأنه حديث عن نفس الذات الإلهية. كل ذلك غائب عن حواسنا، وممتنع عن أن يحيط به إدراكنا.

وهذا المعنى هو الذي يقال بالنسبة لصفتي السميع والبصير..

فهذه الغيبة، وهذا العجز عن الإدراك، وهذا الإطلاق وعدم التناهي في معاني صفاته وأسمائه تعالى يتناسب مع ضمير الغيبة، لا مع الحضور.

الفرق بين البركة والقداسة:

وهنا سؤال يخطر على البال، وهو: لماذا استعمل كلمة **(بَارَكْنَا)** ولم يقل: شرفناه، أو قدسناه؟!

والسؤال الآخر هو: لماذا بارك حوله، ولم يصرح بمباركة ذلك المسجد نفسه؟!

والسؤال الثالث هو: ما المراد بالبركة؟!

ونجيب:

أولاً: فيما يرتبط بهذا السؤال الأخير نقول:

معنى البركة:

هناك من يقول: إن البركة هي النماء والزيادة والتكثير لما هو خير، وحسن، ومطلوب ومرغوب..

ومن المعلوم: أن زيادة كل شيء بحسبه، فهناك الزيادة في المال، والزيادة في العلم، وفي الصحة، وفي العمر، وفي العقل، وفي الدين، وفي.. وفي..

ولنا على هذا التفسير مؤاخذة مفادها: أن هذا المعنى يصعب تطبيقه، أو يصعب فهمه في كثير من الموارد، فلاحظ مثلاً قوله تعالى: **(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ)**(1)، فهل يزيد هذا الاسم وينمو؟!

---

(1) الآية 78 من سورة الرحمن.

وقوله: **(فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)**(1).

وقوله عن عيسى «عليه السلام»: **(وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ)**(2). وأمثال ذلك كثير..

فإن تفسير البركة بالنماء والزيادة في مثل هذه الموارد يبقى غير مقنع ولا ظاهر، حتى لو مارسنا فيه المزيد من التوسع، الذي قد يصل إلى حد التكلف. ويبقى لدينا شعور: بأن البركة أكثر من مجرد الزيادة والنماء لأي شيء كان، حتى لو أحبه الكثير من الناس..

لأن الزيادة قد تكون في أمور تضرهم، أو تهلكهم في الدنيا والآخرة، وإن أحبوها ورغبوا فيها، واعتبروها خيراً لأنفسهم، فهل نسمي أو نصف هذه الزيادة بـ «البركة»؟!

فالحقيقة هي: أنه لا بد من إضافة قيود وحدود في معنى البركة، كأن يقال: إنها نماء وزيادة تأتي نتيجة الفضل الإلهي المستند إلى لطفه ورضاه، ورعايته لمن يتفضل عليهم..

وفي البركة معنى روحي يحمل معه معانٍ لها بُعد إيماني. ككونه من العطاء الحلال الطيب الزاكي والنامي، والطاهر، والهنيء، الواصل من موقع الرضا واللطف والمحبة.

فإذا اجتمعت هذا المعاني في شيء، قيل: إنه مبارك.

---

(1) الآية 14 من سورة المؤمنون.

(2) الآية 31 من سورة مريم.

وربما أضيف إلى ذلك، أو إلى بعضه معنى القداسة أيضاً، كما هو الحال في قوله: (**فَتَبَارَكَ اللهُ**). وقوله: (**وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا**).

توضيح غير واضح:

وقد زعم القائلون بأن المراد بالبركة هو مجرد الزيادة، والنماء، ولو من موقع المحبة: بأن المراد بـ «المسجد الأقصى» هو هذا المسجد الموجود في فلسطين، في مدينة القدس.. وقالوا: إن البركة حوله في كثرة قبور الأنبياء، وفي كثرة البساتين والأراضي الزراعية، لأنها نِعم، ونماء، وزيادة في المال..

وربما زعم بعضهم: أن المقصود بقوله تعالى: **(حَوْلَهُ)** هو منطقة جبل عامل، بسبب ولاء أهلها لمحمد «صلى الله عليه وآله» ولأهل بيته الطاهرين «صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين»

ولكننا نقول:

إن زيادة البساتين والأراضي حول بلد ليست دليل محبة، ولأجل ذلك يعطي الله الكفار على قاعدة: **(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ)**(1). وعلى قاعدة: **(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا)**(2). فزيادة النعم ليست دائماً دليل محبة.. وكذلك الحال بالنسبة لقبور الأنبياء حول المسجد الأقصى..

---

(1) الآية 33 من سورة الزخرف.

(2) الآية 178 من سورة آل عمران.

أما الحديث عن جبل عامل، فهو في موقعه هذا البعيد، ولكونه في طرف واحد من أطرافه، فلا يصح إطلاق هذا الوصف عليه..

باركنا أم قدسنا؟!:

ونقول:

لعل هدف الحديث عن البركة دون ما عداها هو:

أولاً: لأن البركة هي الأقرب والأنسب برغبات الناس، كل بحسبه، ما دام أنه يطمح لهذه المعاني التي تستبطنها هذه الكلمة.

ثانياً: لأن المطلوب هو زيادة العطاء الهني والطيب، والمتنامي، والمتعاظم باستمرار. من موقع المحبة والرضا، ومن مقام الربوبية.

والعطاء الذي يرغب فيه الرسول هو العطاء الروحي، الذي يزيده «صلى الله عليه وآله» خضوعاً لله وانقياداً له، وخشوعاً، وتقديساً، ويزيده إدراكاً لشرفه ولقداسته تعالى..

فيكون إعطاء هذه البركات مستنبطاً للتقديس وللتشريف.

لم يذكر مباركة المسجد الحرام:

وقد سبق وقلنا: إن وصف المسجد الحرام بالحرام، وهو المستجمع للحرمات كلها يقتضي كونه مباركاً يزيد في معرفة النبي لربه، وخشوعه وخضوعه، وانقياده وعبوديته له، فيستحق العطاء الرضي والهني، الذي يزداد ويتنامى من خلال انفعال النفس النبوية الشريفة به. فيستحق بذلك المزيد..

البركة حول المسجد!! لماذا؟!:

أما لماذا كانت البركة حول المسجد، ولم يثبتها تعالى للمسجد نفسه؟! فلعله:

أولاً: لأجل أنه تعالى قد وصفه بالمسجد، والمسجد مبارك في نفسه، وإذا كان هذا المسجد في السماء، وكان للملائكة، فلا شك في أن البركة فيه ستكون أبين، وأظهر، وأكبر وأيسر..

ثانياً: إن ذكر حلول البركة فيما حوله إنما هو لشدة تجليها فيه، إذ ليس فيما حوله «قبور أنبياء»، ولا بساتين، ولا أرض زراعية.

ثالثاً: إن المباركة لما حول المسجد إنما هي بالتبع له، وهذا زيادة تشريف وتكريم، من جهة، كما أن نفس الإسراء بالنبي «صلى الله عليه وآله» إليه يزيد من شرفه وكرامته، فإن الأماكن تتقدس بالمناسبات والأحداث التي تتوارد عليها.

رابعاً: هو يشير إلى عمق معنى البركة فيه من جهة أخرى، فكأنها من قبيل إيراد الدعوى مع دليلها.

ولهذا أنت تحرم من مسجد الشجرة مثلاً احتراماً للحرم، بل إنما جعل الحرم احتراماً للمسجد الحرام، وإنما جعل المسجد احتراماً للكعبة وما فيها من قداسة ومقدسات.

فهذا يعطي المزيد من الإحترام والتعظيم للكعبة الشريفة، لأن كل ذلك كان من مقدمات تكريمها وتعظيمها. وإن للشرف الموجب

للبركة، ولو في المجال الروحي درجات الإحرام أولاً من الميقات لدخول الحرم، ثم الحرم، ثم المسجد الحرام، ثم الكعبة الشريفة.

الغاية من الإسراء:

وقد تحدث تعالى عن أن الغاية من هذا الإسراء هي أن يري نبيه طرفاً من آياته.. فالمطلوب هو معرفة أساس الرؤية والمشاهدة. لا مطلق معرفة، ولو عن طريق الإخبار بالوحي الإلهي، أو عن طريق التأمل والتحليل العقلي الصحيح والسليم.

والمراد بالرؤية: هو تلك الرؤية التي ترسخ اليقين، وتحوله إلى طمأنينة وسكينة ورضا ووجدان..

أو فقل: إن الرؤية ليس فقط تقرِّب، بل هي تحول المعقول إلى محسوس.. فإن إبراهيم «عليه السلام» كان على يقين من أن الله تعالى يحيي الموتى، ولكنه مع ذلك طلب من الله أن يريه ذلك **(قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)**(1).

إنه يريد تحويل المعقول إلى ملموس، ليتوافق القلب والعقل، فالعقل يدرك ويحكم، والقلب يحتضن هذا المدرك، ويطمئن له، ويسكن إليه. فإن للقلب حالاته وخلجاته وحاجاته.

فمثلاً قد يصنع الناس ثوباً أو دواءً واقياً من النار، ويجربه الناس

---

(1) الآية 260 من سورة البقرة.

مئات المرات.. ولكن إذا أراد الأب أن يلبس ولده هذا الثوب، أو أن يطلي جسد ولده بذلك الدواء، ويدخله في النار، فإن قلبه يرتعش ولا يستقر، حتى يراه قد خرج منها سالماً.. مع أن الأمر من الناحية العقلية النظرية يقيني عنده.

وكذلك الحال لو أراد أن يدني ولده للمرة الأولى من أسد كان قد روضه على عدم التعرض للناس.

الرؤيا حقيقية لا مجازية:

1 ـ والتعبير بكلمة: **(لِنُرِيَهُ)** ظاهر في الرؤية الحقيقية، فصرفه إلى الرؤية المجازية في عالم المنام في غير محله، فإن احتمال أن يكون ما جرى عروجاً بالروح، أو مجرد رؤية صادقة بعيد عن مساق الكلام. ولاسيما مع إتباع ذلك بقوله تعالى: **(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ)** الذي يلمح إلى كل راءٍ ومشاهد وحاضر: أن حضوره وسماعه ورؤيته يبقى محدوداً. فإن الله تعالى هو السميع البصير، كما سيأتي بيانه.

على أنه لا يقال: أسرى بروحه إذا كان يريد أن ذلك قد حصل في عالم الرؤيا.

2 ـ إن إيراد الكلام بصيغة المتكلم ومعه غيره، يظهر ـ بالإضافة إلى أمور أخرى تقدمت ـ أهمية وعظمة الآيات التي أراه إياها، فضلاً عما لم يره، ولأجل ذلك نسبها إلى مقام العزة والكمال، والعظمة

والجلال.. بالإضافة إلى أن هذه الرؤيا لم تكن بفعل تكويني مباشر، وقاهر منه تعالى، بل كانت نتيجة تسخير النواميس المودعة في هذا الكون، ليكون هذا التسخير بمثابة التأكيد على قدرة الله تعالى، وعظمته، وعلمه، وحكمته، وسائر صفاته، وأسمائه تعالى.

3 - إن نفس هذا المسير العظيم والهائل يشير أيضاً إلى عظمة هذه الآيات أيضاً، وأنها ليست في محيط الأرض، بل صرحت الروايات والآيات: بأنه «صلى الله عليه وآله» قد بلغ المسجد الأقصى، وفي إسراءٍ آخر بلغ سدرة المنتهى، وهذا يدل على أن الوصول إلى المحيط الحاضن لها يحتاج إلى هذا السير الهائل والعظيم.

ومع أن في الأرض آيات عظيمة أيضاً، ولكنها لا تصل في عظمتها إلى عظمة الآيات التي رآها في إسرائه، ربما لأن محيطها كان محدوداً، ولا يحتمل، أو لا يحتاج إلى أكثر من هذا الذي حصل..

فمن هذه الآيات التي صنعت ابتداءً وانتهت بفعل إلهي، مثل الطوفان، وإحياء الموتى، وفلق البحر لموسى، وصيرورة النار برداً وسلاماً على إبراهيم، والإتيان بعرش بلقيس، وغير ذلك. ولكن أين هذا كله من هذه الآيات الكبرى الباقية على مر الدهور؟!

ولأجل ذلك وصفها الله سبحانه في سورة النجم بالكبرى، فقال:

(لَقَدْ رَأَى مِنْ آَيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)[1].

وهذه العظمة هي التي دعت إلى الشروع بالتنزيه الذي يفضي إلى إثبات الصفات والأسماء له تعالى على أكمل وجه وأتمه.

(1) الآية 18 من سورة النجم.

الآيات التي رآها ′ :

ومن المفيد: أن نشير إلى أن المراد من كلمة **(آيَاتِنَا)** في هذه الآية المباركة هو العلامة والدلالة على شيء بواسطة شيء بعينه.. فما هو الشيء الذي يراد أن تكون الآيات التي يراها النبي «صلى الله عليه وآله» في إسرائه مشيرة إليه، ودالة عليه؟! فإن عظمة الدال تشير إلى عظمة المدلول، فكيف إذا كانت على عظمتها بالنسبة إليه لا تساوي شيئاً، بل هي بمثابة سراب، أو خواء وهباء، لأن المدلول عليه، والمشار إليه هو عظمة الله وقدرته، وحكمته، وسائر صفاته وأسمائه التي لا تحد ولا تتناهى..

إن ما رآه رسول الله «صلى الله عليه وآله» في إسرائه بعض من آيات الله، وهو غاية ما يتمكن للبشر من رؤيته..

لماذا السميعية والبصيرية؟!:

ويلاحظ بالنسبة للسميعية والبصيرية:

1 ـ أن هذا السياق البياني يدل على أنه تعالى بصدد حصر السميعية والبصيرية بمعناها الحقيقي والأتم به تعالى..

2 ـ إنه تعالى قد اختار من صفاته صفتين هما: السميعية والبصيرية، دون سواهما.. مثل القادر والحكيم، أو القوي العزيز.. أليس هذا الإسراء، وهذه الآيات من مظاهر عظيم قدرته، وبديع صنعه، وواسع علمه. وهكذا الحال بالنسبة لباقي صفاته؟!

3 - ويلاحظ ثالثاً: أنه تعالى قد ذكر هاتين الصفتين بصيغتي المبالغة، ولم يقل: إنه سامع مبصر.

ونحن في مقام تفصيل هذه النقاط وسواها نقول:

الحصر والتأكيد لماذا؟!:

وقد بدأ كلامه هنا بـ **(إِنَّهُ)** المفيدة للتأكيد، حيث لم يقل: وهو السميع البصير، مثلاً.

ونجيب:

أولاً: بأن الحاجة إلى التأكيد تظهر إذا كان هناك إنكار.. ومن الواضح: أن المشركين وعُبَّاد غير الله بصورة عامة، وجميع الكفار لا ينزهون الذات الإلهية عن كل عيب وضعف، ونقص وحاجة، وما إلى ذلك. كما أنهم لا يثبتون للذات الإلهية الصفات والأسماء كلها، وبالنحو الذي يليق بجلال وعظمة الله تعالى.. ولأجل ذلك مست الحاجة إلى هذا التنزيه العملي - بالإسراء - الذي أظهر أن علم الله تام ولا محدود، ولا متناه، وشامل لكل شيء في السماوات، وفي الأرض، وفي كل الوجود، وقدرته نافذة في جميع الأشياء، وأنه تعالى سميع بصير، قوي قدير، عالم مدبِّر حكيم إلى آخر ما هنالك، وأنه لا يحد بحد، ولا يتناهي.

بل ترى هذا الإنتقاص من القدرة الإلهية، ومن صفاته وأسمائه تعالى - تراه - لدى بعض المسلمين في أيامنا هذه، فيدعي أن الله لا يمكن أن يسري بجسد عبده هذه المسافات، لأن الجسد يتلاشى بسبب

السرعة الهائلة، فالإسراء إما منام، أو هو إسراء بالروح فقط.

وهذا يعني: تكذيب ما ذكره القرآن عن الإتيان بعرش بلقيس من اليمن إلى بيت المقدس قبل ارتداد الطرف، لأنه يتلاشى، ولا يستطيع الله ـ والعياذ بالله ـ منعه من ذلك. كما أن يونس لم يبتلعه الحوت، لأن الإنسان لا يبقى حياً في بطنه هذه المدة كلها، بل هو يختنق، ثم ينصهر ويتلاشى، لأن الله لا يقدر على حفظه..

وهذا انتقاص من قدرته، ومن صفاته وأسمائه تعالى، ووضع حدود لها. وإنكار لعدم تناهيها.

فهذا التعدي على مقام الألوهية والربوبية يحتاج إلى هذا التأكيد.

ثانياً: إن وظيفة التنزيه هي نفي النقص والعيب، والحاجة والجهل، والطيش وما إلى ذلك. فقد يلتفت الإنسان الحاذق واللبيب الأريب إلى أن لازم ذلك هو ثبوت الكمال. وقد يغفل عن ذلك..

والملتفت إلى هذا اللازم قد يلتفت إلى أنه كمال مطَّرد في كل شيء يناسب ويلائم مقام ألوهيته وربوبيته، وقد لا يلتفت إلا إلى بعض الصفات القريبة إلى ذهنه، والتي هي موضع اهتمامه. مثل صفة القدرة، ولكنه لا يلتفت إلى أنه سميع أو بصير أيضاً مثلاً.. فيحتاج إلى هذا التنصيص.

والملتفت إلى العموم والشمول لجميع الصفات والأسماء قد يلتفت إلى أن هذا التنزيه قد جاء مؤكداً بصيغة المبالغة ليفيد عدم المحدودية، وعدم التناهي في التنزيه في إثبات الصفات على حد

سواء، وأن الصفات نفسها غير محدودة، وغير متناهية، وقد يغفل عن ذلك، فجاء هذا التأكيد لهذه الأمور كلها مختلفة بالعديد من المؤكدات وهي:

ألف: التأكيد بإن الثقيلة.

ب: التأكيد بكلمة «هو» المفيدة للإختصاص.

ج: التأكيد بصيغ المبالغة، في قوله: **(السَّمِيعُ البَصِيرُ)**.

د: التأكيد بالألف واللام، كما سنوضحه..

هـ: التأكيد بالجملة الإسمية.

و: هذا فضلاً عن التأكيد بواسطة التنزيه الشديد للذات الإلهية عن جميع مراتب أضداد هذه الصفات، وإثبات هذه الصفات مرتين، مرة بواسطة هذا التنزيه، وأخرى بواسطة التصريح بالصفة نفسها.

ز: إثبات هذه الصفات عملياً من خلال هذا الإسراء، ثم إراءة بعض آيات الله الكبرى..

الضمير في (إِنَّهُ):

ثم إن لهذا الضمير في قوله: **(إِنَّهُ)** ولم يقل: إنني، فائدة، وهي الإلماح إلى عجز الإنسان عن الوصول إلى الله تعالى بخياله ووهمه، وعقله، وتصوره.. فإنه تعالى لا تناله الأوهام، ولا تدركه العقول. وهو إن كان حاضراً بنعمه، وآثار فعله، وبدائع صنعه، وعظيم تدبيره، وحكمته، ومظاهر علمه، وتجليات قدرته. ولكن لا يمكن

تصور الذات الإلهية، لأن كل ما نتصوره في أوهامنا، فالله سبحانه غيره..

فائدة ضمير الفصل:

ومن المعلوم: أن كلمة (**هُوَ**) في قوله: (**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**)، ضمير فصل، يؤتى به لتأكيد ثبوت ما بعده لا لما قبله.

وإذا اجتمع هذا الضمير مع الألف واللام في (**السَّمِيعُ البَصِيرُ**)، فإنه يفيد الحصر به، وهو يساوق نفيه عما عداه..

السَّمِيع أولاً لماذا؟!:

1 ـ وقدَّم السميع على البصير، لأن السمع هو الأقوى، وهو أول ما يصل الإنسان بما هو خارج عن ذاته، فإنه يسمع حتى وهو جنين، والسمع هو آخر ما يموت من حواس الإنسان. وليس كذلك البصر.. ولأجل ذلك خاطب النبي «صلى الله عليه وآله» قتلى بدر حين ألقوا في القليب ـ يعني البئر ـ فاعترض عليه بعض المسلمين بأنه إنما يخاطب أمواتاً، فقال «صلى الله عليه وآله»: «ما أنتم (لستم) بأسمع منهم إلخ..»[1].

---

(1) صحيح البخاري (ط دار الفكر) ج2 ص101 وشرح صحيح مسلم للنووي ج17 ص201 وعمدة القاري ج8 ص201 ومسند أبي داود ص9 وإثبات عذاب القبر ص64 والتمهيد ج20 ص240 والدرر لابن عبد البر

كما أن أمير المؤمنين «عليه السلام» قد خاطب قتلى حرب الجمل(1).

2 - ثم إن كلمتي سميع وبصير هما من صيغ المبالغة. وليس المقصود المبالغة في عدد وكثرة ما يسمعه، بل المبالغة في مراتب قوة هذا السمع، وحدته، ورهافته وشدته، فهو سميع بكل مرتبة يمكن أن تحويها وتقع عليها هذه الصيغة. وحقيقة السمع والبصر ثابتة له تعالى بكل مراتب وجودها مهما كانت، إذا كانت مناسبة لحقيقة ذاته..

لأن المطلوب هنا هو إثبات حقيقة السميعية والبصيرية لنفس الذات الإلهية، لأن المقام مقام تنزيه عن أي نقص أو ضعف أو اختلال. وإنما تلاحظ أفراد الحقيقة خارجاً من حيث هي طريق إثبات للحقيقة نفسها وتحقق الذات بها. إذ لا يراد إثبات أفراد السمع والبصر

ص106 وتفسير السمعاني ج2 ص195 وتفسير الرازي ج14 ص167 والجامع لأحكام القرآن ج7 ص242 والدر المنثور ج5 ص157 ودلائل النبوة ج3 ص48 وراجع: تصحيح إعتقادات الإمامية ص92 وبحار الأنوار ج6 ص254 .

(1) الجمل للمفيد ص210 والإرشاد للمفيد ج1 ص256 والفصول المختارة ص141 والكافئة ص26 وتصحيح اعتقادات الإمامية ص93 والاحتجاج للطبرسي ج1 ص239 و وقعة الجمل لابن شدقم ص157 وبحار الأنوار ج6 ص255 وج32 ص200 و 209 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج5 ص251.

للذات، وإنما المطلوب إثبات حقيقتهما، وتنزيه ذاته تعالى عما ينافي ذلك.

لماذا السَّمِيعُ البَصِيرُ؟!:

أما سبب اختيار خصوص صفتي السميع البصير للتنصيص عليهما هنا، دون سواهما من صفاته تعالى.. فهو:

أولاً: ما أشار إليه بعض الأخوة من أن الله تعالى يريد التأكيد على أن المراد بكلمة: **(لِنُرِيَهُ)** هو الرؤية البصرية الحقيقية، وسماع الكلام الذي جرى في جميع تلك الرحلة العظيمة سماعاً حقيقياً، بالأذن وبالعين، وليس هو من الرؤيا في المنام، أو السماع على طريقة حديث النفس، أو نحو ذلك.

ثانياً: إن هذا الإسراء، وتلك الآيات التي رآها «صلى الله عليه وآله»، وطريقة حديثه في إظهار معنى العظمة والعزة والكبرياء إذا أضيفت إلى التنزيه الذي سبق ذلك..

إن ذلك كله قد أثبت سائر الصفات لله سبحانه، أو أشار إليها باستثناء هاتين الصفتين، فقد استطاعت تلك البيانات أن تشير إلى صفات الحي القيوم، الحكيم القادر، العليم القوي، المتين العزيز، المدبر الرؤوف، الرحيم إلى آخر ما له تعالى من صفات وأسماء. لكن لا شيء فيها يدل بصورة ظاهرة على سميعيته وبصيريته.. مع أن لهاتين الصفتين أثرهما القوي في كل ذلك التدبير الحكيم، والصحيح

والسليم، وللسميعية والبصيرية أثر عظيم في تكريس القناعة، وترسيخ اليقين بالمعرفة التامة، ثم بصوابية أي إجراء يتخذ إذا علم أن مستنده هو العلم الحضوري المباشر، الذي يعبر عنه بكلمة سميع وبصير.. وإن كان تجلى هذا المعنى في الذات الإلهية لا يشبه بشيء سمع البشر وبصرهم الذي لا يكون إلا بالآلة التي زودهم الله تعالى بها في هذه الحياة الدنيا..

ولكن التوافق في التعبير.. قد أعطى الفرصة لأجراء الخطاب مع البشر عن حالة السميعية والبصيرية، بالرغم من شدة التفاوت في المضمون، ولكن الله تعالى تيسيراً منه على الناس أراد أن يخاطبهم بنفس هذه المفردات، فيقول: **(قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا)**(1)، ويقول: **(الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ)**(2). وأمثال ذلك كثير، لأن هذه هي اللغة الأقرب إلى أفهام البشر، وهي التي تلامس مشاعرهم، وبهذه السميعية والبصيرية يمكن ترسيخ الإحساس لديهم بالهيمنة والحضور، والإشراف، ويمنحهم السكينة، ويشيع في داخلهم الطمأنينة.

---

(1) الآية 1 من سورة المجادلة.

(2) الآية 218 من سورة الشعراء.

الفصل الثالث:

المسجد الأقصى هو البيت المعمور..

مصلى الملائكة:

لا دليل على أن المقصود بالمسجد الأقصى المذكور في هذه الآية هو ذلك الذي في بيت المقدس في فلسطين، بل هو مصلى الملائكة في السماء الرابعة(1)..

ويدل على ذلك ما يلي:

أولاً: ما تقدم، من أن الآية المباركة نفسها تقول: إن الله تعالى قد بارك حول المسجد الأقصى.. ولم نجدها تذكر مثل ذلك بالنسبة للمسجد الحرام.. مع أن المسجد الحرام أفضل من جميع بقاع الأرض.

كما أننا لم نجد فيما نعرفه من نصوص ما يدل على مباركة

---

(1) راجع: علل الشرائع ج2 ص406 وعيون أخبار الرضا ج1 ص98 ووسائل الشيعة (ط آل البيت) ج13 ص297 و (الإسلامية) ج9 ص388 و 414 ومستدرك الوسائل ج9 ص325 وتصحيح اعتقادات الإمامية للشيخ المفيد ص78 وغوالي اللآلي ج2 ص83 وبحار الأنوار ج5 ص330 وج6 ص97 وج11 ص110 وج36 ص155 وج55 ص8 و 55 - 59.

المناطق المحيطة بالمسجد الأقصى، الموجود في بيت المقدس. أو ما يدل على خصوصية تميزها على سائر البقاع.. إلا إذا كان المقصود: أنه بارك بسبب قبور الأنبياء وسكناهم في تلك المناطق، وبإسراء النبي «صلى الله عليه وآله» وعروجه منه.. وهذا احتمال بعيد، فإن الأنبياء قد عاشوا في مناطق كثيرة، وماتوا ودفنوا فيها، ولم نجد حديثاً عن مباركتها.

بل هناك ما يدل على تميز مناطق بعيدة عن القدس أكثر من المناطق المحيطة بها، مثل كربلاء، ووادي طوى (النجف) وغير ذلك..

أما إذا كان المراد بالمسجد الأقصى في الآية هو مصلى الملائكة في السماء الرابعة، فلا مانع من أن يكون ما حوله مباركاً أيضاً.. لأن الملائكة ترتاد تلك المواضع، وتسبح الله تعالى وتقدسه فيها.. وربما كانت هناك اعتبارات أخرى توجب كونها مباركة، وإن لم نعرف تلك الاعتبارات بالتحديد..

ثانياً: قال الله تعالى: **(لِنُرِيَهُ مِنْ آَيَاتِنَا)**(1) ولا توجد آيات إلهية وعجائب ربانية فيما بين مكة وبيت المقدس، ليكون هدف الإسراء بالرسول «صلى الله عليه وآله» من مكة إلى بيت المقدس هو إراءته تلك الآيات..

---

(1) الآية 1 من سورة الإسراء.

بل الظاهر: أن المقصود بها: هو الآيات التي هي من قبيل تلك التي رآها «صلى الله عليه وآله» في السماء عند سدرة المنتهى، في إسرائه الذي أشارت إليه الآيات في سورة النجم، فقد قال تعالى: **(وَلَقَدْ رَآَهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آَيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)**(1).

وإن كانت الآيات التي في سورتي الإسراء والنجم تتحدث عن غسراء واحد، فالأمر يصبح أبين وأظهر.

فظهر: أن الإسراء إلى السماء الرابعة يتيح رؤية الكثير من الآيات السماوية وغيرها من آيات الله العظيمة. فما بالك إذا كان إلى سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى.

ثالثاً: إن تسمية بيت المقدس بالمسجد الأقصى قد كان بعد وفاة النبي، وبعد فتحه في عهد عمر بن الخطاب، فإن بيت المقدس في زمان رسول الله «صلى الله عليه وآله» لم يكن فيه مسجد، بل كان مساحة شاسعة هي حوالي مئة وخمسة وأربعين ألف متر مربع. فيها محاريب الأنبياء، وباب حطة، وغير ذلك. ولعله سمي بذلك (أي بالمسجد الأقصى) بعد أمر عبد الملك بن مروان الناس بالحج إليه، حيث بدأت توضع الأحاديث في فضل ذلك المكان، لترغيب أهل الشام

(1) الآية 13 - 18 من سورة النجم.

بالحج إليه، لكي لا يشعروا بالغبن بترك الكعبة الشريفة.

وكان تحت سلطة النصارى، وإنما صار في يد المسلمين في زمان عمر بن الخطاب، وقد تسلمه منهم عمر نفسه، وهو الذي اختط فيه المسجد المعروف بمسجد عمر..

ثم بنيت القبة على الصخرة في زمن الوليد بن عبد الملك، وكان أبوه عبد الملك قد منع الناس من الحج، وأمرهم بالحج إلى بيت المقدس، وجعل الصخرة مكان الكعبة أعزها الله، حيث أمر الناس بالطواف حولها، وجعل لهم مسعى، ومنى وعرفات.. وحولت القبلة إلى بيت المقدس. وقد ظهر ذلك جلياً في مساجد العراق الذي حكمه الحجاج، وخالد القسري وغيرهما..

وقد نزلت سورة الإسراء في مكة قبل الهجرة.. فلم يكن في زمن الرسول «صلى الله عليه وآله» مسجد في بيت المقدس ليكون هو الأقرب، أو الأقصى.. وحين صار فيه مسجد، فقد كانت هناك مساجد أقصى منه ـ كالمساجد التي في بلاد الشام، التي افتتحت قبل بيت المقدس..

ومسجد أهل الكهف أيضاً كان أقصى منه، وقد ذكره الله تعالى في القرآن، بقوله: **(لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً)**(1).

---

(1) الآية 21 من سورة الكهف.

وفي آخر هذا الفصل ستأتي ـ إن شاء الله ـ رواية أخرى، بعضها صحيح السند تدل، بل تصرح بهذا الأمر.

رابعاً: روايات المسجد الأقصى الواردة تقول: إن المسجد الأقصى في السماء، لا في فلسطين، فلاحظ ما يلي:

ألف: روي: أن رجلاً سأل الإمام الصادق «عليه السلام» عن المساجد التي لها الفضل، فقال «عليه السلام»: المسجد الحرام، ومسجد الرسول «صلى الله عليه وآله».

قلت: والمسجد الأقصى، جعلت فداك؟!

قال «عليه السلام»: ذاك في السماء، إليه أسري برسول الله «صلى الله عليه وآله».

فقلت: إن الناس يقولون: إنه بيت المقدس؟!

فقال «عليه السلام»: مسجد الكوفة أفضل منه[1].

ب: ويدل على ذلك أيضاً: ما روي عن أبي جعفر الباقر «عليه السلام»: أنه قرأ آية: **(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ**

(1) تفسير العياشي ج2 ص279 والبرهان ج2 ص401 و (ط سنة 1429 هـ) ج6 ص24 وكنز الدقائق ج7 ص299 ونور الثقلين ج3 ص97 وبحار الأنوار ج18 ص385 وج97 ص405 والتفسير الصافي ج3 ص166 وراجع التفسير الأصفى ص370 ومستدرك الوسائل ج3 ص409 وجامع أحاديث الشيعة ج4 ص539 وتاريخ الكوفة ص24 و 25.

الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى..)[1].. كرر ذلك ثلاث مرات.

ثم قال «عليه السلام» لإسماعيل الجعفي: أي شي يقولون أهل العراق في هذه الآية يا عراقي؟!

قلت: يقولون: أسري به «صلى الله عليه وآله» من المسجد الحرام إلى البيت (بيت) المقدس.

فقال «عليه السلام»: ليس كما يقولون، ولكنه أسري به من هذه إلى هذه، وأشار إلى السماء. ما بينهما حرم[2].

ج: وهناك رواية أخرى تدل على ذلك، وهي عن هشام بن الحكم، في مناظرة له جرت في مجلس هارون الرشيد: أنه قال ليحيى البرمكي: ..فأخبرني عن هذا المسجد الأقصى أين هو؟!

قال يحيى: هو بيت المقدس.

قال هشام: إن الله عز وجل قال: **(الأَقْصَى)** لا يكون وراءه شيء، لأن الله عز وجل ذكر أنه الأقصى. وهذا لا يكون وراءه شيء، وبيت المقدس إن كان وراءه شيء لا يستحيل. فهذا وراء هذا.

---

(1) الآية 1 من سورة الإسراء.

(2) تفسير القمي ج2 ص243 ونور الثقلين ج3 ص97 و98 وكنز الدقائق ج7 ص299 و300 والتفسير الصافي ج3 ص166 وبحار الأنوار ج18 ص372 و373 ونوادر المعجزات ص67 والتفسير الأصفى ج1 ص370.

قال يحيى: هكذا قال الله سبحانه الخ.. (1).

خامساً: إن كلمة الأقصى، التي وصف فيها المسجد في الآية المباركة، إن لوحظ فيها زمان نزول الآية، فلم يكن في بيت المقدس مسجد حين نزولها. وإن لوحظ فيها زمان أخذ بيت المقدس من يد النصارى، فليس بالأمر المقبول أن يكون هو المقصود هنا..

ولو قبلنا إمكان أن يقصد بالآية ما يسمى بالأقصى بعد كل هذه السنين، فإننا نقول:

إن تسميته بالأقصى في غير محلها، لأن الشام قد افتتحت ـ مثلاً ـ قبل ذلك، وقد اتخذت فيها المساجد قبل أن يأتي عمر إلى بيت المقدس، ويختط فيها مسجداً..

وإن لوحظ أن المسجد الذي في فلسطين هو الأقصى مطلقاً، وفي جميع الأزمان، فهو يصادم الواقع أيضاً.. فهذه هي المساجد عامرة في مختلف بقاع الأرض، وأكثرها أبعد من المسجد الأقصى بمسافات هائلة..

سادساً: قد ورد في القرآن التعبير بكلمة أدنى الأرض عن بلاد هي أبعد عن المدينة من بيت المقدس، فقد قال تعالى: (**الم غُلِبَتِ**

---

(1) راجع: مجلة تراثنا، العدد 87 و 88 ص357 و 358 مناظرة هشام ابن الحكم في مجلس هارون الرشيد.

الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ..)[1]، فإذا كانت بلاد الشام أدنى الأرض، فإن أقصاها لا يمكن أن يكون هو بيت المقدس..

سابعاً: إن من يراجع الأحاديث الواردة من طرق شيعة أهل البيت عن النبي «صلى الله عليه وآله» عن أئمة أهل البيت «عليه السلام» لا يجد سوى بضع روايات ذكرت فيها كلمة «المسجد الأقصى» للتعبير عن المسجد الذي في فلسطين، ومصادر غير الشيعة هي التي يكثر فيها التعبير عنه بالمسجد الأقصى.

وهذا أمر غريب، فإن المدة التي عاشها النبي «صلى الله عليه وآله» والأئمة «عليهم السلام» منذ البعثة وإلى أول الغيبة الصغرى هي مئتان وثلاثة وسبعون عاماً.. وإذا ألحقنا بها تسع وستون سنة هي مدة الغيبة الصغرى أيضاً، يصير المجموع ثلاثمائة واثنان وأربعون سنة، مع شدة اهتمام أهل السنة بالمسجد الأقصى، وكثرة ذكرهم له.. وحرصهم على تكريسه كمسجد يضاهي المسجد الحرام، ومسجد النبي «صلى الله عليه وآله».

ومع اهتمام أئمة أهل البيت «عليه السلام» به كبقعة مقدسة لها فضلها العظيم، حتى روي عنهم أن الصلاة في بيت المقدس تعدل ألف صلاة..

فلماذا يعبر أهل البيت «عليهم السلام» عنه بكلمة «بيت المقدس»

---

(1) الآيات 1 - 3 من سورة الروم.

طيلة هذه المئات من السنين مع حرص الآخرين على التعبير عنه بالمسجد الأقصى؟!

ويلاحظ: أن الروايات التي وردت فيها كلمة «المسجد الأقصى» في روايات الشيعة عن أئمتهم لا تصمد كثيراً أمام النقد، لضعف الأسانيد في أكثرها، ولأن كلمة المسجد الأقصى جاءت في بعضها على لسان الراوي، أو السائل للإمام «عليه السلام»، ولغير ذلك من أمور ومؤاخذات ذكرناها في كتابنا: «المسجد الأقصى أين»؟!

عدد الإسراءات:

ثم إن ما نريد قوله هنا: هو أنه وإن كان لا دليل على أن المقصود بكلمة المسجد الأقصى الواردة في هذه الآية المباركة هو بيت المقدس. بل الشواهد والأدلة تدل على خلاف ذلك.

ولكن ذلك لا يعني: أنه لم يحصل إسراء من مكة إليه. بل الظاهر: أن ذلك قد حصل بالفعل، لأننا إذا راجعنا الروايات حول الإسراء والمعراج، فسنجد أن بعض الروايات صرحت بأن الإسراء بالنبي «صلى الله عليه وآله» حصل مرتين[1].

وبعضها صرح: بأنه أسري به سبع مرات[2].

---

(1) راجع: الكافي ج1 ص442 و 443 وبحار الأنوار ج18 ص306.

(2) راجع: الكافي ج1 ص135 - 137 وبحار الأنوار ج18 ص354 وعلل الشرائع ص112 و 113.

ورواية أخرى تقول: أسري به «صلى الله عليه وآله» مئة وعشرون مرة[1].

وبعض الروايات تتحدث عن الإسراء إلى بيت المقدس، وبعضها عن الإسراء إلى السماء، وبعضها عنهما معاً، وغير ذلك.

وقد اختلط الأمر على الكثيرين، فظنوا أنها تتحدث عن أمر واحد، وحادثة واحدة. ولكن آية سورة الإسراء من المسجد إلى السماء مباشرة، كما تقدم بيانه، وسيأتي المزيد من الشواهد التي تؤكد الإسراء من المسجد الحرام إلى السماء مباشرة.. كما دلت عليه الروايات.

والمقصود بالمسجد الأقصى في هذه الآية بالذات هو البيت المعمور. كما قررته الرواية الصحيحة التي سنذكرها إن شاء الله.

---

(1) بحار الأنوار ج18 ص387 وج23 ص69 ونور الثقلين ج3 ص98 وكنز الدقائق ج7 ص300 والبرهان (تفسير) ج3 ص481 والخصال ج2 ص601 والصراط المستقيم ج2 ص40 والمحتضر للحلي ص244 وحلية الأبرار ج1 ص421 ومستدرك سفينة البحار ج7 ص149 وبصائر الدرجات ص99.

نسبوا إلى الإمامية:

وقد نسب بعضهم إلى الشيعة أنهم يقولون: أسري برسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى بيت المقدس**(1)**.

هذا.. وإن كان هو ما تدل عليه كلمات بعض المفسرين، وورد أيضاً في بعض الروايات، ولكن الإمامية لم يقتصروا على هذا، بل قالوا أيضاً، وفقاً لما في آيات سورة النجم، ولورود عشرات الروايات: أنه «صلى الله عليه وآله» قد أسري به إلى السماء أيضاً.. ولا أحد من الشيعة ينكر الإسراء به «صلى الله عليه وآله» إلى السماء.

والظاهر: أن اقتصار بعض المفسرين على ذكر الإسراء إلى بيت المقدس كان لأمرين:

أحدهما: أنهم كانوا بصدد تفسير الآية التي في سورة الإسراء، فقد قالت: (**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى..**). حيث شاع على الألسنة، وأصرت عليه مصادر وروايات أهل السنة أيضاً: أن المراد بالمسجد الأقصى في هذه الآية هو هذا المسجد الموجود في بيت المقدس.. والذي سمي بالأقصى بعد وفاة النبي «صلى الله عليه وآله» بسنين كثيرة.

---

(1) راجع: بحار الأنوار ج18 ص290 عن ابن شهرآشوب.

وقد قلنا فيما تقدم: إن هذا التفسير للآية ليس موفقاً.. وأن المراد بالأقصى هو البيت المعمور الذي في السماء، وسنذكر هنا المزيد مما يشهد لذلك.

الثاني: أن بعض الروايات قد ذكرت أن ثمة إسراءً حصل إلى بيت المقدس. واقتصرت عليه..

إسراءات مختلفة في الروايات:

والذي يراجع الروايات يلاحظ: أنها لا تتحدث عن إسراء واحد.. ففيها ما تحدث عن إسراء من المسجد الحرام إلى طيبة، فإلى طور سيناء، فإلى بيت لحم، فإلى بيت المقدس.. الخ..[1].

وفي بعضها: إلى مسجد الكوفة ثم إلى بيت المقدس[2].

---

(1) بحار الأنوار ج14 ص208 و 319 ومستدرك سفينة البحار ج7 ص147 وراجع: تفسير القمي ج2 ص3 و 4 والتفسير الصافي ج3 ص167 و168 والبرهان (تفسير) ج3 ص473 ونور الثقلين ج3 ص103 وكنز الدقائق ج7 ص307 والكامل في التاريخ ج2 ص52 والخصائص الكبرى ج1 ص154 وسنن النسائي ج1 ص222 ومسند الشاميين ج1 ص194 وتفسير الثعلبي ج6 ص58 وتفسير القرآن العظيم ج3 ص7 والدر المنثور ج4 ص137 وإمتاع الأسماع ج8 ص276.

(2) بحار الأنوار ج11 ص333 وج97 ص386 و 387 ومستدرك الوسائل ج3 ص401 و 402 وتفسير العياشي ج2 ص146 والبرهان (تفسير) ج3

وذكر بعضها: الإسراء إلى بيت المقدس، ثم إلى السماوات[1].

وأن ذلك كما عن أمير المؤمنين «عليه السلام» قد حصل في أقل من ثلث ليلة[2].

ص110 وتاريخ الكوفة ص36 وراجع: من لا يحضره الفقيه ج1 ص231 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج5 ص257 و (الإسلامية) ج3 ص525 والغارات للثقفي ج2 ص413 و 800 والمزار لابن المشهدي ص123 .

(1) بحار الأنوار ج18 ص286 و 289 و 291 و 319 و 320 و 330 و 336 و 337 و 375 و 376 و 379 و 384 ومواضع عديدة أخرى، عن مفاتيح الغيب للرزي ج5 ص365 و 366 وتفسير القمي ج2 ص243 ومجمع البيان ج6 ص216 والخرائج والجرائح ج1 ص141 وتفسير العياشي ج1 ص159 والأمالي للصدوق (ط مؤسسة البعثة) ص535 والتوحيد للصدوق ص323 وروضة الواعظين ص57 و 59 ومستدرك الوسائل ج3 ص402 والهداية الكبرى ص58 والخرائج والجرائح ج1 ص141 واليقين لابن طاووس ص405 و 406 وحلية الأبرار ج1 ص72 والبرهان (تفسير) ج1 ص575 والجامع لأحكام القرآن ج10 ص205.

(2) بحار الأنوار ج18 ص339 وج3 ص320 وج10 ص41 وج17 ص289 والإحتجاج ص116 و (ط دار النعمان) ج1 ص327 والبرهان (تفسير) ج1 ص567 وج3 ص497 و 498 ونور الثقلين ج4 ص319 وج5 ص151 و 413 وكنز الدقائق ج10 ص472 وج12 ص480 وج13

ويظهر من روايات أخرى: أنه أسري به إلى بيت المقدس، ثم رجع إلى مكة(1). وغير ذلك.

وبعض الروايات التي تقول: إنه أسري به «صلى الله عليه وآله» إلى المسجد الذي في بيت المقدس، تذكر أنه «صلى الله عليه وآله» وصف لقريش بيت المقدس، وذكر لهم عدد أساطينه، وقناديله، ومحاريبه(2).

وهذه الرواية موضع ريب، فإن الظاهر: أنه لم يكن في بيت المقدس بناء له أساطين، أو تُعلَّق فيه قناديل، بدليل: أن عمر بن الخطاب اضطر إلى أن يختط فيه مسجداً، واستشار كعب الأحبار أين يضع محرابه، فأشار عليه أن يجعله خلف الصخرة، وقال: «اجعله خلف الصخرة، حتى تكون القدس كلها بين يديك».

ص432.

(1) الكافي ج8 ص262 و 364 و 365 وبحار الأنوار ج18 ص309 و 310.

(2) بحار الأنوار ج18 ص336 و 337 وراجع ص384 والأمالي للصدوق ص269 و (ط مؤسسة البعثة) ص533 وتفسير القمي ج2 ص13 والبرهان (تفسير) ج3 ص480 و 485 وتفسير نور الثقلين ج3 ص100 و 101 و كنز الدقائق ج7 ص303 و 304 وإعلام الورى ج1 ص124 وروضة الواعظين ص56 وراجع: مناقب آل أبي طالب ج1 ص135 و 136.

فقال له: ضاهيت اليهودية يا كعب[1].

ولو أغمضنا النظر عن هذه المؤاخذة، فإننا نقول:

ظاهر هذه الرواية: أنه إسراء آخر غير المذكور في الآيات، فقد اقتصر على زيارة بيت المقدس، ولم يعرج به منه إلى السماء.

كما أن بعض الروايات ذكرت أن النبي «صلى الله عليه وآله» لما أصبح بعد عودته من إسرائه إلى بيت المقدس، ومنه إلى السماء، بعث إلى أنس بن مالك، فدعاه، فلما جاء قال له «صلى الله عليه وآله»: ادع علياً، فأتاه الخ..[2].

وهذه الرواية موضع ريب أيضاً.

فأولاً: لماذا يبعث «صلى الله عليه وآله» إلى أنس فيدعوه، ثم يبعثه إلى علي «عليه السلام»؟! ألم يكن يمكنه أن يبعث نفس ذلك

---

(1) راجع: الأنس الجليل في أخبار القدس والخليل ج1 ص256 والأموال لأبي عبيد ص225 والإصابة ج4 ص105 والأسرار المرفوعة ص457 والبداية والنهاية ج7 ص58 و (ط دار إحياء التراث العربي) ج7 ص65 و 68 وتفسير القرآن العظيم ج3 ص19 ومسند أحمد ج1 ص38 ومجمع الزوائد ج4 ص6 وراجع: كنز العمال (ط مؤسسة الرسالة) ج5 ص703 وج14 ص148 و 143 وتاريخ مدينة دمشق ج2 ص171 ومعجم ما استعجم ج3 ص827.

(2) بحار الأنوار ج18 ص393 وج37 ص316 واليقين لابن طاووس ص292 وتأويل الآيات الظاهرة ج1 ص271.

الذي بعثه إلى أنس ـ يبعثه ـ إلى علي مباشرة؟!

ثانياً: إن بيت علي «عليه السلام» كان إلى جنب بيت النبي «عليه السلام»، فكيف نفسر هذا التصرف الذي تنسبه هذه الرواية إليه «صلى الله عليه وآله»؟!

ثالثاً: إن الإسراء إذا كان في مكة، فإن أنساً إنما التحق بالنبي في المدينة وعمره عشر سنوات..

إلا إن كان هذا إسراء آخر من سائر الإسراءات.

رواية سعد السعود:

وذكر ابن طاووس رواية تقول: إن جبرئيل جاء انبي «صلى الله عليه وآله» فوضعه في شيء كوكر الطير، قال «صلى الله عليه وآله»: «فلما أطرفت ببصري طرفة، فرجَعَتْ إلي وأنا في مكاني، فقال: أتدري أين أنت؟!

فقلت: لا يا جبرئيل.

فقال: هذا بيت المقدس، بيت الله الأقصى، فيه المحشر والمنشر».

ثم ذكرت الرواية: أن جبرئيل قام فإذن مثنى مثنى، ثم صلى النبي «صلى الله عليه وآله» بالأنبياء في بيت المقدس، وكان عددهم أربعة آلاف وأربع مئة وأربعة عشر نبياً، ثم ذكر في بقية الحديث أنه

«صلى الله عليه وآله» أصبح بالأبطح(1).

ونقول:

ألف: صرح ابن طاووس في سعد السعود: بأن هذا الحديث مروي عن رجال من أهل السنة(2).

ب: علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عمر بن أذينة، عن زرارة أو الفضيل، عن أبي جعفر «عليه السلام» قال: لما أسري برسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى السماء، فبلغ البيت المعمور، وحضرت الصلاة، فأذن جبرئيل وأقام، فتقدم رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وصف الملائكة والنبيون خلف محمد «صلى الله عليه وآله»(3).

وسند هذه الرواية لا غبار عليه.

ج: قال ابن طاووس: لعل هذا الإسراء كان دفعة أخرى غير ما هو مشهور، فإن الأخبار وردت مختلفة في صفات الإسراء المذكور. ولعل الحاضرين من الأنبياء كانوا في هذه الحالة دون الأنبياء الذين حضروا في الإسراء الآخر، لأن عدد الأنبياء الأخيار، مائة ألف نبي وأربعة

---

(1) سعد السعود لابن طاووس ص100 و 101 وبحار الأنوار ج18 ص317 و 318 وتأويل الآيات الظاهرة ج1 ص265.
(2) سعد السعود لابن طاووس ص100.
(3) الكافي ج3 ص302 وبحار الأنوار ج18 ص307.

وعشرون نبياً.

ولعل الحاضرين من الأنبياء كانوا في هذه هم المرسلون، أو من له خاصة، وسر مصون[1].

د: ذكر في الكافي حديث إسراء النبي «صلى الله عليه وآله» إلى بيت المقدس، بسند صحيح، ورواه غيره أيضاً. وفيه أذان جبرئيل وإقامته، ثم صلاته «صلى الله عليه وآله» بالحاضرين في بيت المقدس على النحو المذكور في رواية سعد السعود. ولكن رواية الكافي قالت: «حشر الله عز ذكره الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين». فما معنى اقتصار رواية سعد السعود على أربعة آلاف، وأربع مئة وأربعة عشر نبياً؟![2].

بل في رواية أخرى قال: «ثم أم رسوله الله «صلى الله عليه وآله» في مسجد بيت المقدس بسبعين نبياً»[3].

هـ: ثم إنه قد ورد في رواية سعد السعود قوله: «فقال: هذا بيت

---

(1) سعد السعود لابن طاووس ص101 وبحار الأنوار ج18 ص318.

(2) الكافي ج8 ص121 وبحار الأنوار ج18 ص308 و 309 و 363 وج10 ص161 عنه، والبرهان (تفسير) ج2 ص555 وج4 ص870 وتفسير أبي حمزة الثمالي ص300 وتفسير القمي (تفسير سورة الزخرف).

(3) أمالي الصدوق ص269 - 271 و (ط مؤسسة البعثة) ص535 و 536 وبحار الأنوار ج18 ص334 وروضة الواعظين ص57 و 58 وشجرة طوبى ج1 ص194 والبرهان (تفسير) ج3 ص486.

المقدس، بيت الله الأقصى، فيه المحشر والمنشر».

ولم نعرف السبب في اعتبار بيت المقدس بيت الله الأقصى، مع أن مسجد الكوفة أفضل منه.. ولماذا لا يكون بيت الله الأقصى هو البيت المعمور؟! (وهو الضراح) فإنه مسامت للكعبة، وهو بحذاء العرش. كما ورد في الأحاديث. ويصلي فيه (أو يدخله) كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه إلى يوم القيامة[1].

وورد أنه في كل يوم جمعة عند طلوع الفجر يصعد محمد وعلي، وفاطمة، والحسن والحسين «عليهم السلام» على منابر من نور عند البيت المعمور[2].

---

(1) بحار الأنوار ج5 ص330 وج11 ص110 وج55 ص55 - 61 والدر المنثور ج6 ص117 وعلل الشرائع ج2 ص403 ومستدرك سفينة البحار ج7 ص423 والمصنف للصنعاني ج5 ص29 ونظم درر السمطين ص127 وكنز العمال (ط مؤسسة الرسالة) ج2 ص565 و 566 ونور الثقلين ج1 ص53 وكنز الدقائق ج1 ص339 وتفسير الثعلبي ج1 ص274 وتفسير البغوي ج1 ص115 وتفسير القرآن العظيم ج3 ص14 والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

(2) الغيبة للنعماني ص284 وبحار الأنوار ج52 ص297 والبرهان (تفسير) ج4 ص89 و 90 ومستدرك سفينة البحار ج7 ص423 وغاية المرام ج4 ص118 .

وقد أقسم الله تعالى به، فقال: **(وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ)**(1).

وجعله الله تعالى في السماء مثابة وأمناً(2)، كالكعبة المشرفة في الأرض أعزها الله.

وإن له في السماء حرمة على قدر حرمة مكة(3).

فإن صح وصف البيت الذي صلى فيه رسول الله «صلى الله عليه وآله» حين إسرائه بأنه بيت الله الأقصى، فإن المقصود به هو البيت المعمور، ولا سيما بملاحظة الروايات التي ذكرناها، والتي تؤكد أن

---

(1) الآية 4 من سورة الطور.

(2) بحار الأنوار ج11 ص110 و 111 ج55 ص58 وج96 ص201 وعلل الشرائع ج2 ص92 و (ط الحيدرية) ج2 ص407 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج13 ص331 و 332 و (الإسلامية) ج9 ص414 ومناقب آل أبي طالب (ط الحيدرية) ج3 ص299 ومستدرك سفينة البحار ج6 ص595 وتفسير أبي حمزة الثمالي ص108 ونور الثقلين ج1 ص53 وكنز الدقائق ج1 ص340.

(3) بحار الأنوار ج55 ص60 و 61 ومجمع الزوائد ج7 ص113 وكنز العمال (ط مؤسسة الرسالة) ج12 ص229 وج14 ص109 والدر المنثور ج6 ص117 راجع: وشعب الإيمان ج3 ص437 وجامع البيان للطبري ج27 ص23 وتفسير الرازي ج4 ص56 و 256 والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث) ج1 ص43 وشرح إحقاق الحق (الملحقات) ج32 ص59 و 60 .

المقصود بـ «المسجد الأقصى» في الآية المباركة ليس هو الذي في بيت المقدس، بل هو البيت المعمور في السماء.. وكلام المجلسي الآتي يؤكد ذلك..

استفادة للعلامة المجلسي &:

وقد ذكر العلامة المجلسي «رحمه الله» حديث إسماعيل الجعفي عن الإمام الباقر «عليه السلام»، وفيه: أن إسماعيل الجعفي ذكر للإمام «عليه السلام»: أن أهل العراق يقولون: أسرى به من المسجد الحرام إلى البيت المقدس.

فقال «عليه السلام»: ليس هو كما يقولون، ولكنه أسرى به من هذه إلى هذه. وأشار بيده إلى السماء.

قال المجلسي معلقاً: «قوله «عليه السلام»: من هذه إلى هذه، أي المراد بالمسجد الأقصى البيت المعمور، لأنه أقصى المساجد.. ولا ينافي ذهابه أولاً إلى بيت المقدس»[(1)].

البيت المعمور هو المسجد الأقصى:

ونختم هذا الفصل برواية صحيحة السند تصرح: بأن البيت المعمور هو المسجد الأقصى أيضاً، فقد روى محمد بن العباس، عن

---

(1) بحار الأنوار ج18 ص373 و 374.

أحمد بن إدريس، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسين بن سعيد الأهوازي، عن فضالة بن أيوب، عن أبي بكر الحضرمي، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: أتى رجل إلى أمير المؤمنين «عليه السلام»..

إلى أن قال: قال له أمير المؤمنين «عليه السلام»: اجلس أخبرك به إن شاء الله.

إن الله عز وجل يقول في كتابه: **(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا)**. فكان من آيات الله التي أراها محمداً: أنه انتهى به جبرئيل إلى البيت المعمور وهو المسجد الأقصى.

فلما دنا منه أتى جبرئيل عيناً فتوضأ منها، ثم قال: يا محمد توضأ، ثم قام جبرئيل فأذن، ثم قال للنبي: تقدم فصل، واجهر بالقراءة، فإن خلفك أفقاً من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله جل وعز.

وفي الصف الأول: آدم، ونوح، وإبراهيم، وهود، وموسى، وعيسى، وكل نبي بعث الله تبارك وتعالى، منذ خلق السماوات والأرض إلى أن بعث محمداً.

فتقدم رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فصلى بهم غير هائب ولا محتشم.. الخ..[1].

---

(1) بحار الأنوار ج18 ص394 و ج37 ص316 واليقين في إمرة أمير

وسند هذه الرواية صحيح.

وهذا يدلنا على أن قوله في الرواية المتقدمة عن سعد السعود: «وهو بيت الله الأقصى» هو البيت المعمور، لا ذلك الذي في بيت المقدس، فإنه قد جعل مسجداً بعد استشهاد الرسول «صلى الله عليه وآله» بسنوات كثيرة، ومن ثم سمى بالأقصى أيضاً.

المؤمنين «عليه السلام» ص294 و 295.

الفصل الرابع:

كـتاب الهـدى لـبني إسـرائيل..

(وَآتَيْنَآ مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً).

ما الربط بين هذه الآية وسابقتها؟!:

وأول ما يتبادر إلى الذهن هنا هو السؤال عن الرابط والعلاقة بين هذه الآية والآية السابقة. فالآية السابقة تحدثت عن تنزيه الله، وعن الإسراء، وعن صفات الله تعالى.. وهذه الآية تحدثت عن نبي الله موسى «عليه السلام»، وأن الله تعالى آتاه الكتاب، وجعله هدى لبني اسرائيل؟!

وسؤال آخر، يقول: لماذا خص موسى «عليه السلام» بالحديث عنه وعن كتابه، وعن قومه، ولم يذكر إبراهيم وصحفه، وما جرى له مع قومه، أو عيسى وإنجيله، ومعاناته مع اليهود، أو غيرهما من الأنبياء؟!

وسيأتي الحديث عن هذا السؤال في موضعه إن شاء الله تعالى.

أما بالنسبة للسؤال الأول، فنجيب بما يلي:

إن الآية الأولى تحدثت عن التنزيه العملي للذات الإلهية عن كل

سوء ونقص مهما كان، وعن جامعيتها لمعاني الصفات على أتم الوجوه، وأسناها وأبهاها.. وعن نفي الشريك في الألوهية والربوبية، لأنه يتناقض مع الذات الإلهية وصفاتها..

أما هذه الآية فتكفلت بالدعوة إلى جانب توحيدي آخر، وهو نفي الشرك في الولاء والتوجه، والإرتباط كما بينه قوله تعالى: **(أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً)** ولم يقل: لا تتخذوا من دوني إلهاً..

وسيأتي توضيح ذلك إن شاء الله تعالى..

الإيتاء والإعطاء:

وقد بدأ فيها بالحديث عن إيتاء الكتاب فقال: **(وَآتَيْنَآ)**، فلماذا لم يقل: «أعطينا» مثلاً؟!

ونجيب:

بأن كلمة أعطى تفيد مجرد إيصال الشيء إلى الطرف الآخر واستيلائه عليه.. وأية خصوصية أخرى يراد استفادتها من هذا الإعطاء، فإنما يدل عليها بدال آخر، من قرينة حالية أو مقالية..

وأما الإيتاء، فهو يحمل معه خصوصية زائدة على مجرد إيصال الشيء إلى آخذه، وهذه الخصوصية قد تكون هي التشريف أو التكريم، أو اليسر والسهولة فيما يتوقع فيه الصعوبة، أو المودة، أو الرضا، أو ما هو قريب من هذه المعاني..

وشاهدنا على ذلك: هو الإستعمالات القرآنية لكلمتي آتى..

وأعطى..

ألف: آتى..:

فنلاحظ: أن القرآن قد أمر المكلفين بإيتاء الزكاة، ولم ترد كلمة «الزكاة» فيه إلا مع كلمة الإيتاء. فالمطلوب هو أن لا يعطي الزكاة بخشونة، وغلظة، وانزعاج وإزعاج، وضيق وتشدد وتصعيب كما يحصل في أحيان كثيرة، بل يعطيها بكل احترام، ومودة، وسهولة، ومرونة ورضى.

ولعلك تقول: كيف نفسر إذن ما ورد من أن الله تعالى قد اعتبر الزكاة أوساخ الناس؟!

ونجيب:

بأن هذا فيما يرتبط بحث الآخذ على التنزه عنها.. أما بالنسبة للمعطي، فلا بد له من الإكرام والإعزاز للآخذ.

وقال تعالى: **(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ)**.. فالمطلوب هو الإعطاء بسهولة ومودة وتكريم، لا إعطاء تثاقل وتأفف ومهانة وإذلال، وأذى وتمنن، ولاسيما إذا كان من يُعْطَى هو قرابة الرسول الذين يجب إكرامهم..

وقال سبحانه: **(وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً)**(1)، وقال: **(فَمَا**

---

(1) الآية 4 من سورة النساء.

اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآَتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً)[1]. حيث إن الانسان إذا قضى وطره من المرأة، فإنه يجد صعوبة في إعطائها المهر الذي جعله لها في عقد الزواج.. وكأنه بعد أن يبرد غلته يندم ويرى أن ما حصل عليه لا يساوي ما بذله لها، وما سجله لها على نفسه، ويرى أنه قد تسرّع، فيحاول التهرب والمماطلة والتسويف.. ويسعى إلى حملها على التنازل عن أي مقدار كان..

فجاء الأمر الإلهي بلزوم أداء حقها إليها بسهولة ورضى، وإكرام وإعزاز، واندفاع ومحبة، ومن دون خدشة في المشاعر، فإنها إنما أكرمته بأغلى وأعز ما لديها، وهو عنوان شخصيتها، ورمز كرامتها..

أما فيما يرتبط بقوله تعالى على لسان سليمان: **(فَمَا آَتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آَتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ)**[2]. فلعله يشير به إلى أن الله تعالى قد أكرم الإنسان بنعمة الخلق والرزق.. **(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)**[3]. وسخر للإنسان الأرض لتنبت، والسحاب ليمطر، وسخر له الشمس والقمر والأنعام، وكل ما في هذا الكون، ليكون في خدمته، ثم أرسل الأنبياء لهدايته، ومنحه العقل

---

(1) الآية 24 من سورة النساء.

(2) الآية 36 من سورة النمل.

(3) الآية 70 من سورة الإسراء.

والقوة، والفطرة السليمة، فإذا كفر بأنعم الله، وتجاهلها، وسعى في معصيته تعالى، فإنه يستحق الذم والعقوبة، لأنه قابل الإكرام والإحسان، باللؤم والكفران، وقد قال الشاعر:

إذا أنت أكـرمت الكـريم ملكته وإن أنـــت أكـــرمت اللـــــئيم تمــردا

أما الإنسان المؤمن، فإنه يقابل الإكرام والنعم بالشكر، والعرفان والخضوع، والإنقياد، والطاعة، والعبادة، ويسعى لنيل المعارف لتكون له نوراً يضـيء له دربه، وللحصول على الكمالات لتكون زينة وكرامة له، ويهذب نفسه، ويلزمها بتقوى الله، والعمل الصالح. فيؤكد إنسانيته، ويستفيد بذلك من المزيد من التوفيق للخير والعطاء، فهو يشارك أهل الدنيا في خيراتها، ويسعد في الآخرة بدخول جناتها، فما آتاه الله خير مما آتى الله أهل الدنيا بلا ريب.

كما أننا نلاحظ: أنه تعالى حين يذكر الكتب المنزلة: القرآن، والتوراة والإنجيل والهدى والتقوى، نراه يلتزم بكلمة الإيتاء أيضاً، فيقول: **(وَآَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)**(1).

وقال: **(آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ)**(2).

---

(1) الآية 17 من سورة محمد.

(2) الآية 53 و 87 من سورة البقرة، والآية 154 من سورة الأنعام، والآية 110 من سورة هود، والآية 2 من سورة الإسراء، والآية 49 من سورة

ويقول على لسان عيسى «عليه السلام»: **(آَتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا)**(1).

وقال: **(آَتَيْنَا آَلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآَتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا)**(2).

وقال: **(وَآَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا)**(3).

وقال: **(وَلَقَدْ آَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآَنَ الْعَظِيمَ)**(4).

وقال: **(وَآَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ)**(5).

وما ذلك إلا لأجل أن هذه الكتب هي دليل حب الله تعالى لعباده، ولتيسير أمر الهداية لهم، وهو عطاء مودة، وتشريف وتكريم.. ولم نجد أي مورد تستعمل فيه كلمة الإيتاء إلا فيما كان حسناً ومحبباً، وجميلاً..

هذا كله فيما يرتبط بالأنبياء.

المؤمنون، والآية 35 من سورة الفرقان، والآية 43 من سورة القصص، والآية 23 من سورة السجدة، والآية 45 من سورة فصلت.

(1) الآية 30 من سورة مريم.

(2) الآية 54 من سورة النساء.

(3) الآية 36 من سورة النمل.

(4) الآية 87 من سورة الحجر.

(5) الآية 27 من سورة الحديد.

ب: أعطى:

أما الإعطاء، فهو يستعمل في المكروه والمحبوب، فقد قال تعالى: (**حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**)(1).

فقد استفيد منها معنى الكراهة، وعدم الرضا. ولكنها استفادة جاءت بمعونة القرائن، ولاسيما بلحاظ كونها جزية، وكون الإعطاء في حال الصغار.

وقال في الجانب الإيجابي: (**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**)(2).

وقال: (**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى**)(3).

وقال: (**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**)(4).

وقال عن أهل الجنة: (**جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا**)(5).

وقال: (**عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ**)(6). أي غير مقطوع.

ولكن استفادة التكريم في هذه الموارد أيضاً إنما هي بقرائن الأحوال، أو قرائن المقال.. فإن إعطاء الكوثر إنما هو في مقام الرد

---

(1) الآية 29 من سورة التوبة.

(2) الآية 1 من سورة الكوثر.

(3) الآية 5 من سورة الليل.

(4) الآية 5 من سورة الضحى.

(5) الآية 36 من سورة النبأ.

(6) الآية 108 من سورة هود.

على الشانئ الأبتر، وهذه قرينة على إرادة التكريم بإعطاه الكوثر..

كما أن الإعطاء الدائم وبدون انقطاع يشير إلى أن المطلوب هو الإعزاز، واستبعاد أي نوع من أنواع الحاجة، وهذه قرينة مقالية على هذا المراد. وكذلك الحال في قوله تعالى: **(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)**، فإن التصريح: بأن الغاية من مواصلة الإعطاء هو استجلاب الرضا، قرينة على التكريم والإعزاز المشار إليه..

فتلخص: أن الإعطاء هو مجرد الإيصال والتمكين من الشيء.. وتستفاد الخصوصية من قرينة خارجية، لا من نفس الإعطاء.

الإسناد إلى ضمير الجمع:

وقد قال تعالى: **(وَآتَيْنَآ)**، فأسند كلمة «آتى» إلى كلمة «نا» التي هي ضمير جماعة المتكلمين. ولعل السبب هو إظهار حال التعزز والجلال، والكبرياء والعظمة.. من حيث أن هذا المقام قد اقتضى توسيط الوسائط ـ مثل جبرائيل لإيصال هذه الكتب بعد مزيد من الإعداد، والإستعداد لاستقبالها، لأن نعمة الهداية الإلهية هي من أعظم النعم، وأغلاها، وأهمها وأسناها..

لماذا موسى دون سواه؟!:

وقد حان الآن وقت الإجابة على السؤال المتقدم في أول هذا الفصل، عن السبب في اختيار موسى «عليه السلام»، والكتاب الذي آتاه الله إياه للحديث عنهما في هذا المورد بعد حديث الإسراء، دون

إبراهيم «عليه السلام» وصُحُفِه، وعيسى «عليه السلام» وإنجيله، وداود «عليه السلام» وزبوره.. مع أن إبراهيم «عليه السلام» أفضل الأنبياء بعد رسول الله «صلى الله عليه وآله». ومع أن عيسى «عليه السلام» أقرب زماناً إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» من موسى «عليه السلام»!!

ونجيب:

أولاً: بأن داود وعيسى «عليهما السلام» هما مثل موسى في كونهما مبعوثين لبني إسرائيل، ولكن كان لموسى «عليه السلام» دور أكبر في معالجة طغيان فرعون.. وفي مواجهة رعونة بني إسرائيل، وقد أظهر الله تعالى له آيات كبرى معهم، ومع فرعون.

ولعل الأحوال الصعبة التي مرت على موسى مع فرعون، ومع بني إسرائيل، والتي كانت محناً كبيرة، كلها عِبَرٌ وعظات، ودروس. يضاف إلى ذلك: أن هذه الأمة المرحومة، أمة رسول الله محمد «صلى الله عليه وآله».. ستواجه محناً عظيمة مع بني إسرائيل، وسيكون لهم أثر عجيب وغريب على فكرها وسلوكها، وسياساتها، وستكابد منهم الكثير من مكائد ستواجه المهالك والمصائد، وسيمارسون الكثير من الكيد والإفساد في هذه الأمة.

وستجري على هذه الأمة نفس السنن التي جرت في الأمم السالفة، ولاسيما ما كان في بني إسرائيل أيضاً.. من أجل ذلك كان الحديث عن هذه الأمور، والتحذير منها، وإعداد الناس لها هو الأولى

والأصوب.

ثانياً: يرى بعض الأخوة: أن سبب هذا الإنتقال هو الإشارة إلى عظمة نبينا «صلى الله عليه وآله»، وتقدمه على سائر الأنبياء، بما فيهم موسى «عليه السلام»، فإن تكليم الله تعالى لموسى ليس بأعظم من قضية الإسراء، مع أن جميع الفضائل الثابتة للأنبياء ثابتة لنبينا الأعظم «صلى الله عليه وآله».

ثالثاً: إن مساق الكلام في بداية هذه السورة المباركة يتجه إلى الحديث عن أمر إعجازي هائل يهدف إلى ربط الناس بالغيب الإلهي، وإذكاء الشعور لديهم بأن لدى هذا الغيب ما يحميهم، ويغنيهم، ويقويهم، ويحل مشاكلهم، وأن عليهم أن يعودوا إليه، وأن يعتمدوا عليه، وأن يتعلقوا به، ويتوقعوا منه كل مفاجأة. وسيرى منه أهل الطاعة ما يسرهم، ويجبر كسرهم، وسيرى أهل الطغيان والعدوان، ما يرد كيدهم، ويخضد شوكتهم، ويقصم ظهرهم..

فبدأ بحديث الإسراء العظيم، الذي لا يناله وهم، ولا يسمو إليه خيال، ولا يحيط به علم، أو ينفذ إليه تصور، أو عقل.. إلا من قبل خالقه وصانعه ومدبره سبحانه.

ثم ربط ذلك بأمر غيبي أخبر بأنه سوف يحصل بلا ريب، وهو إفساد بني إسرائيل مرتين، وبأن الذين سوف يتصدون لهم هم عباد مؤمنون، وأولياء صالحون.. وبأن للمسجد الحرام دوراً كبيراً وأساسياً في هذا الحدث الكبير والخطير.

وهذا كله يكرس الأهمية الكبرى، والأثر العظيم للخبر الذي تحمله هذه الآيات في تحصين الناس من السقوط في مصائد الطواغيت، ومن إصابة المؤمنين بالوهن والإحباط والسقوط أمام قوى الباطل مهما عظمت وطغت، وبغت، وجمعت من القدرات التدميرية، في مختلف المجالات، وعلى جميع الصعد: الأمنية، والإقتصادية، والعسكرية، والتسليحية، والإعلامية، والتكنولوجية، وسائر الإختراعات، ومختلف القدرات العلمية الهائلة.

وليعرفوا من خلال هذا الإخبار الغيبي المحفوف بحديث الإسراء على النحو الذي ذكرناه.. أن لا قيمة لكل هذه القدرات الهائلة في مقابل عظمة الله سبحانه، وعظيم ملكه، وجليل قدرته، وغوامض أسرار ملكه، وباهر علمه، وقاهر جبروته.. إذ لا يستطيع أحد أن يدعي لنفسه أنه قادر على شيء في مقابل عظمة الله وقدرته، وملكه الذي أشار في هذه السورة إلى طرف منه.

ولو صدقوا فيما يدعونه لأنفسهم من قدرات، فليأتونا بخبر ما سوف يحصل بعد عشر سنوات، أو بعد سنة، أو شهر، أو يوم..

أو فليخبرونا عن الطريقة التي يمكن لإنسان ما أن ينتقل من الأرض إلى السماء، ولا نقول: إلى خارج السماوات ليصل إلى العرش، ثم إلى الكرسي.. بل نقول: ليصل إلى أقرب كوكب نعرفه، ويرجع إلينا منه خلال ساعة، أو ساعتين..

التشريف لخصوص موسى ×:

(وَآتَيْنَا مُوسَى).

وقد تحدث تعالى عن إيتائه موسى الكتاب.. أما بنو إسرائيل، فعليهم واجب الإهتداء بهذا الكتاب بالذات..

وهذه الطريقة البيانية تدلنا على أنه تعالى يريد أن يخص موسى «عليه السلام» بالتشريف، والتكريم، وأن يحرم منه بني إسرائيل.

لأن موسى «عليه وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام» قد قضى جميع حياته في الجهاد، والكدح في سبيل الله، وفي طاعته، وسخر كل ما حباه الله تعالى به من قوة وحول في رضاه سبحانه، فاستحق التكريم والإعزاز بذلك.

أما بنو إسرائيل، فقد حباهم الله بأعظم النعم وأسناها، ويسر لهم جميع أنواع الهدايات، وبعث لهم نبياً حماهم من ظلم فرعون الذي كان يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، وحملهم على اتخاذه رباً لهم، يعبدونه من دون الله تعالى..

كما أنه تعالى لم يحرمهم نعمة الهدايات العقلية والشرعية أيضاً. وأظهر لهم الكثير من المعجزات، ولبَّى لهم مطالبهم التعجيزية.. و.. و.. لكنهم ما فتئوا ينقضون عهودهم معه، وينكصون على أعقابهم، حتى إنهم لما خرجوا من قاع البحر الذي فلقه الله تعالى لهم، فكان كل فرق كالطود العظيم، مروا على قوم يعبدون أصناماً لهم، فقالوا

لموسى: (**اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ**)!![1].

وكان موسى «عليه السلام» هو المجاهد الصابر على كل هذه المصائب منهم.

ولأجل ذلك آتاه الله الكتاب وما فيه من إعزاز وتكريم، وتشريف وتعظيم.

الكتاب، ولام العهد:

ثم إنه تعالى قال: (**وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ**)، فلماذا قال (**الْكِتَابَ**)، ولم يقل: «كتاباً»؟!

والجواب:

لأن الألف واللام هنا للعهد الذهني.. إذ لم يتقدم ذكر للكتاب، ليقال: إنه عهد ذكرى.. كما أنه لا مورد للعهد الخارجي، لأن الكتاب لم يكن موجوداً خارجاً قبل ولا حين الإيتاء، فالمتعين هو أن يكون العهد ذهنياً، لأن الله تعالى لا يعطي للبشر أي كتاب كان. لا كتاب شعر، ولا كتاب لغة، ولا غير ذلك، بل يعطي كتاب هداية، وتشريع وتعليم، ورعاية ودلالة.

وهذا ما استقر عليه تاريخ البشر أيضاً.

---

(1) الآية 138 من سورة الأعراف.

لماذا كتاب؟!:

ويبقى هنا سؤال: لماذا خص الإيتاء بالكتاب، ولم يقل: «التوراة» مثلاً؟!

ونجيب:

أولاً: إن تعاليم الكتاب ثابته، ومحدودة في قوالب وألفاظ، ونصوص تحمل الهدايات للبشر، بنحو غير قابل للتلاعب، وإعمال الأذواق، والأغراض.. فكلمة «الكتاب» تشير إلى هذه الهداية، وإلى تحديدها وتشخيصها، وإلى أنها مخزونة في قوالب يمكن الرجوع إليها. وهي تساعد على بقائها، وتمنع من التلاعب فيها.

وحفظها على هذا النحو من التحديد، وجعل المرجعية لها، وإخراج الأمر عن دائرة الإجتهادات والأهواء قد أسهم في فضح ممارسات اليهود الرامية إلى الإتجار بهذه الهدايات، وجعلها وسيلة لجمع الأموال، ولخداع الناس.. حيث صاروا **(يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا)**(1).

فهم يزعمون: أن ما يكتبونه بأيديهم هو نفس كتاب الهداية المعهود، الذي أنزله الله تعالى على موسى «عليه السلام»، وإنما يفعلون ذلك لخداع الناس، وإيهامهم بأن هذا هو نفس ذاك.

ثانياً: إنه تعالى كان يعلم أن التوراة سوف تتعرض للضياع، وأن

---

(1) الآية 79 من سورة البقرة.

هناك من سيخرج للناس كتاباً يسميه باسم «التوراة».

فلعله تجنب سبحانه هنا التعبير بكلمة «التوراة» ليدل على أنه إنما يتحدث عن الكتاب الحقيقي النازل من عند الله على موسى «عليه السلام».. فإنه لو عبر بكلمة توراة وحسب، فلربما أمكنهم إيهام الناس بأنه إنما يشير إلى هذا الكتاب المخترع المتداول فيما بينهم، مما كتبوه بأيديهم، وقالوا للناس: هو من عند الله، وليس هو كذلك.

لم ينسب الكتاب إليهم:

وأما لماذا لم ينسب هنا الكتاب إلى بني إسرائيل، بل نسبه إلى موسى «عليه السلام»، مع أنه نسبه إليهم في سورة الجاثية، فقال: **(وَلَقَدْ آَتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ)**(1). فلعل سببه:

أولاً: إن المقام مقام لوم وتوبيخ وحرمان لبني إسرائيل بسبب جحودهم وعصيانهم، فالمناسب أن يحرمهم من هذا الشرف العظيم، الذي أثبتت أفعالهم أنهم لا يستحقونه.

ثانياً: ليدل على أن التوراة كتاب هداية لكل طالب وراغب، وأن نزوله على موسى «عليه السلام» لا يعني اختصاصه ببني إسرائيل، فلا يمنع من أن يستفيد منه كل مؤمن.. لأنه متوافق مع حقائق الدين، وأحكام الشرع المبين..

---

(1) الآية 16 من سورة الجاثية.

ثالثاً: لكي لا يسيء بنو إسرائيل الاستفادة من هذا الأمر، بأن يكرسوا مفاهيم عنصرية واستكبارية، تخالف دين الله، مثل: أنهم شعب الله المختار، وأن الله قد خلق الكون لأجلهم، والبشر لخدمتهم، وما إلى ذلك من ترهات.

موسى × نبي لبني إسرائيل:

وهذه الآية المباركة منسجمة مع سائر الآيات الشريفة في الدلالة على أن موسى «عليه السلام» كان مبعوثاً لبني إسرائيل، وكذلك عيسى «عليه السلام».

وكان نبينا وكذلك إبراهيم «عليهما السلام» مبعوثين إلى البشر جميعاً.. وكان عيسى وموسى من أتباع إبراهيم «عليه وعليهم وعلى نبينا وآله الصلاة السلام»..

واللافت في هذه الآية بالذات: أنه تعالى لم يصرح ببعثة موسى إلى بني إسرائيل، بل اكتفى بالتصريح بجعل كتابه «عليه السلام» هدى لهم. وهذا حرمان آخر لهم، أدى إليه كفرهم وجحودهم.

وحتى بالنسبة للكتاب، فإن الله تعالى قد جعله هدى لبني إسرائيل، ولكن أفعالهم أظهرت أنهم لم يقوموا بفروض الهداية، ولم يحسنوا أخذها. كما أظهرته الآيات التي تلي هذه الآية.

ويلاحظ هنا أيضاً: أنه تعالى لم يثبت، ولم ينف كونه هدى لغيرهم أيضاً. بل سكت عن ذلك، وإنما ذكر بني إسرائيل فقط، لأنهم هم محط

النظر في الآيات التالية.. ولأنهم هم المثل الأظهر للعناد واللجاج، وجحود الحق.

هل الهداية تحتاج إلى جعل؟!:

ثم قال تعالى (**وَجَعَلْنَاهُ هُدًى**).

فقد يسأل سائل، ويقول: هل الهداية تحتاج إلى قرار، وجعل، ووضع أم أنها أمر واقعي، فهي مثل النور، من وجده ووصل إليه استفاد منه واهتدى به، وأبصر طريقه بصورة تلقائية، سواء حصل جعل وقرار، أو لم يحصل، فإن النور إذا كشف للرائي عن حائط، أو عن هوة عميقة، أو عن سبع، أو عن حية، ابتعد الرائي عن هذه الأمور، وتجنبها بصورة تلقائية. فلماذا قال تعالى هنا: (**وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ**)؟!

ونجيب:

المراد بالجعل: هو جعلها المعيار في اتخاذ قرار المثوبة، أو المؤاخذة على أساسها، أي أننا اعتبرناها حجة عليهم، نأخذهم بها ونحاسبهم عليها، ونرتب عليهم آثار الإقدام والإحجام، فنثيب ونعاقب من هذا المنطلق على قاعدة: (**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا**)[1].

وكأنه يشير هنا إلى أنه بالرغم من كون التوراة كتاب هداية في

(1) الآية 15 من سورة الإسراء.

نفسه، وبالرغم من تنصيصه على أنهم مأخوذون ومؤاخذون به، فإنهم عصوا واستكبروا وكفروا ولا يزالون، وما يريد أن يقصه بعد هذه الآية عنهم من إفسادهم في الأرض هو الشاهد والدليل.

الهدايات الإلهية:

وتوضيح ما تقدم: أننا ذكرنا في تفسير سورة الفاتحة بعض أنواع الهداية، وهي كثيرة.. وقلنا: إن الله سبحانه قد تفضل على مخلوقاته بأنواع من الهدايات بعضها يتشارك فيه الإنسان مع الجماد والنبات والشجر والحيوان.. وبعضه يتشارك فيه مع بعض هذه الأمور، وبعضها ينفرد فيه البشر عن سائر المخلوقات بحسب ظاهر الحال ـ ونذكر من هذه الهدايات:

1 ـ الهداية التكوينية.

2 ـ الهداية الإلهامية.

3 ـ الهدية الغريزية.

4 ـ الهداية الفطرية.

5 ـ الهداية العقلية.

6 ـ الهداية التشريعية..

وهذه هي الأهم، والأكثر فعالية، والأعظم أثراً وخطراً.

فالهداية التكوينية: ما يكون من قبيل هداية الشجر والنبات حتى الجنين في بطن أمه، على نسق معين، ووفق ضوابط محددة، فيكبر

وينمو على هذا النحو الذي هو عليه، فلكل صنف من الأصناف: الغنم، والبقر، والإبل، وما إلى ذلك جنين يتكون، وفق نوع النطفة والبويضة التي نشأ منها، ولا يتجاوز الحدود المرسومة في جميع أجزاء وأشكال، وأحجام، ومكونات كل جزء من جسده، داخلي كان ذلك الجزء أم خارجي..

والأشجار والنباتات، حتى الشمس والقمر، والمجرات، وجميع المخلوقات تستفيد في تكوينها وحركتها من هذه الهداية..

والهداية الإلهامية: من قبيل هداية الطفل إلى ثدي أمه.

والهداية الغريزية: من قبيل هداية أنواع الحيوان، وسواها فيما يرتبط بكثير من شؤونها.

والهداية الفطرية: من قبيل تعلق الإنسان بالخالق ولجوئه إليه.

والهداية العقلية: من قبيل إدراك العقل لحسن العدل، ولقبح الظلم، وضرورة شكر المنعم، وما إلى ذلك..

والهداية التشريعية: هي تلك الشرائع والسنن، والبيانات المختلفة في الشؤون المختلفة التي جاء بها الأنبياء، ودعوا الناس إليها، وجاهدوا وضحوا في سبيلها..

حاجة الهدايات إلى الهداية التشريعية:

ولا نجازف إذا قلنا: إن جميع الهدايات تحتاج إلى الهداية التشريعية..

وتوضيح ذلك: أن النصوص الدينية قد حفلت بكثير من التوجيهات التي تحدد للإنسان كيفية التعامل مع ما يحتمل أن يكون موضع ابتلائه في مقام التعامل، فتحدد له مثلاً كيفية التعامل مع الأشجار والأثمار، ومع الأرض والبقاع والسماء، ومع الحيوان، وكل ذي روح، والليل والنهار، والنوم واليقظة.. والسفر والحضر، والجنون والعقل، والغرائز، ومع الماء والهواء، ومع الجنين، ومع الطفل والصغير، ومع الشاب والشيخ الكبير، ومع الزمان والمكان، ومع كل شيء، لأن لشؤون التكوين حالات وخصوصيات لابد من مراعاتها والانسجام معها، وعدم الإضرار بها..

وهذا يعني: أن الهداية التشريعية لم تهمل الهداية التكوينية، ولا الإلهامية، ولا الغريزية، ولا غيرها، بل حاولت الحفاظ عليها، والانسجام معها، وإرشاد الإنسان إلى الإلتزام بما يحفظها له.

وفيما يرتبط بأفعال الإنسان نقول:

إن هناك مصالح ومفاسد كامنة في نفس الفعل، ويمكن أن يكشفها الإنسان، أو أن يكتشف بعضها.. ولكنه إذا بلغ حدَّ الممارسة فقد تدعوه شهوته، أو غريزته، أو أي داع آخر إلى المخالفة، والإقدام على ما فيه مفسدة، وترك ما فيه مصلحة، بالرغم من وضوح هذا وذاك له..

فشرب الخمر مثلاً مما يدرك العقل سوءه، ويشهد لذلك: أن الكثيرين من العقلاء الذين عاشوا في الجاهلية والإنفلات قد حرموها على أنفسهم، لأن نفوسهم الكبيرة أبت الإقدام على فعل ما يفقدهم

عقلهم، ويخل بتوازنهم.. ولكن سائر الناس كانوا ينقادون لأهوائهم وشهواتهم فيعاقرونها، ولا يهتمون لما يصدر منهم.. حتى لو أخل بمرؤتهم.

بل إن عنجهية الانسان، ومحبته للدنيا قد تدعوه الى قتل أخيه بالرغم من اتفاق الخلق والقاتل منهم على قبح هذا الفعل.

ونفور الفطرة الإنسانية السليمة منه. ولكن الأهواء والشهوات قد تلغي دور العقل، وتصم الأسماع عن سماع نداء الفطرة وتبلد الحسّ، وتميت الضمير..

شاهدنا على ذلك: أن إسرائيل التي اغتصبت أرض فلسطين، وتسعى لإبادة شعبها لا تعترف بأنها تتعدى وتظلم. بل تسمي جيشها جيش دفاع.. لأن الظلم قبيح، وتأباه الفطرة، فلا يمكنهم إقناع الناس به، كما أن عقيدتهم بأنهم شعب الله المختار، وأن الله خلق الناس لخدمتهم لا يمكنهم تسويقها، فيخترعون مقولة معاداة السامية.

وكل ذلك وسواه يؤكد لنا أهمية الهداية التشريعية التي جاءت لتضع سدوداً وقيوداً وحواجز أقوى، وأكثر فعالية في المنع والردع عن التعديات بما لا يتصادم مع اختيار الإنسان، وإعمال إرادته، فوضعت أمام عينيه بالإضافة إلى رادع النفور والتحرز من المفاسد، أو دافع الحصول على المصالح ـ وضعت ـ رادع الخوف من غضب الله، في موارد المناهي، وما يتبع ذلك من عقوبة في الآخرة، ومحفزات الفوز برضا الله والجنة والمثوبات فيها في موارد طاعته

في الأوامر وما يلحق بذلك من عزة وكرامة، وشرف وسؤدد في الدنيا في صورة الطاعة. أو سقوط محل، وتضاؤل شأن فيها في صورة المعصية. هذا عدا ما فيها من عدوان على الناس، وظلم، وفساد، وإفساد لحياتهم، وغير ذلك مما يأباه أهل الشرف والكرامة لأنفسهم.

ثم زادت على ذلك رادعاً دنيوياً، وهو العقوبات والزواجر، كالجلد، وقطع اليد، وربما القتل، أو الحبس، أو النفي، وما إلى ذلك مما فيه مهانة في مجتمع أهل الإيمان..

فهذا القسر والقهر الذي يحمله إلى الناس هذا الجعل والتشريع، إنما هو لمواجهة حوافز الغرائز والشهوات، والأهواء، وطغيانها، حين تستبد بالإنسان، وتدعوه للإنغماس بالمآثم حين تمكنه الفرصة، وحين يرى نفسه في مأمن من أي سوء أو مكروه..

وهذا يدلنا على أن سائر الهدايات حتى الفطرية والعقلية فضلاً عما عداها تحتاج إلى الهداية التشريعية، لأنها غير قادرة بمفردها على تحقيق الأغراض المتوخاة منها.

لماذا هُدًى؟!:

ثم قال تعالى: **(وَجَعَلْنَاهُ هُدًى).**

حيث لم يقل: جعلناه هادياً. والفرق بينهما: أن الهدى هو المصدر من هدى يهدي.. وهو يدل على أن المجعول من قبل الله تعالى هو نفس الهداية بواسطة هذه المضامين التي في الكتاب.. من دون أي إضافة أو اختزال. ومن دون نظر إلى زمان ولا مكان، ولا إلى صدوره من شخص بعينه، أو من غيره، ولا أي شيء آخر..

أما كلمة هادياً، فهي اسم فاعل يدل على ذات تصدر منها الهداية في الحال.. فتدل على أمور ثلاثة هي:

أولاً: معنى الهداية.

ثانياً: الإنتساب إلى شخص.

ثالثاً: زمان الحال..

وبعدما تقدم نقول:

إن كلمة **(هُدًى)** تكرس معنى الخلوص والصفاء من أية شائبة، وهذا له مغزى تربوي، فإنه يريد أن يجرد المورد عن أي شعور بحاجة هذه الهداية إلى أي شيء آخر، سوى كون مصدرها ومنشئها هو الله تعالى.

وقد يعترض على هذا: بأن ما أريد الفرار منه، قد وقع وحصل في كلمة «كتاب»، فإنها تدل على كاتب، وعلى مضمون كتب، وعلى

آلة كتب بها أو عليها، وغير ذلك.. فلم يحصل هذا الصفاء والخلوص المدعى..

ونجيب:

بأن كلمة الكتاب في هذه الموارد لا يراد بها أن ثمة مضموناً قد سجل على ورق أو لوح، حتى صار كتاباً، ثم أعطي لموسى، ثم فرض على بني إسرائيل أن يقرأوه، ويهتدوا بمضامينه، بل المراد بالكتاب مجموعة من المضامين ذات منحى واحد، تجعل في متناول أيدي البشر، ويكتب عليهم أن يعملوا بها للوصول إلى هدف بعينه.

فالقرآن، والإنجيل والتوراة، لها مضامين وحقائق، ومعانٍ، وتوجيهات مترابطة ومتناسقة، قد فرض على العباد العمل بها.

فكلمة كتاب هي بمعنى المكتوب والمفروض والمحتم الذي يطالب به العباد، ولو لم تكتب في صحف أو ألواح. إذ يكفي حفظ الناس لها عن ظهر قلب، والتزامهم بتعاليمها.

بل إن قيمة الألفاظ تابعة لقيمة معانيها، ومدى الإلتزام بها حتى لو لم يعرف لها لفظاً، فالإنسان يشعر بالألم والعطش، والجوع، والخوف، ويسعى للحصول على الأمن، وعلى الطعام، والماء، فإذا وجدها واستفاد منها كفاه ذلك.. حتى لو كان أصم، أو أبكم، ولم يسمع لفظاً، ولا تكلم بلفظ طيلة حياته.

فالقرآن والإنجيل وسواهما حقائق راسخة قد يعبر عنها، أو عن أجزاء منها بلفظ أو بأشكال على الألواح، أو في صحف، ولكن المهم

هو العمل والإلتزام بها، ما دام الإنسان بحاجة إلى هذا الإلتزام، أو يطلب منه ذلك.. فإن بعض الناس قد يحتاج إلى الإلتزام ساعة واحدة، أو يوماً، أو شهراً واحداً، ثم يموت أو يستشهد قبل أن يسمع أية آية أو رواية، نظير ذلك الذي أسلم يوم أحد ثم استشهد، ولم يسجد لله سجدة واحدة.

والحاصل: أن المجعول هدى هو المضامين والمعاني.

لا من حيث هي مكتوبة، بل من حيث هي موجودة، ومدركة وميسرة.

ثم قال سبحانه: **(أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً).**

أي أن هذه الهداية التي جعلتها لكم يا بني إسرائيل تتلخص بكلمة واحدة، وأمر واحد، وهي: أن لا يتخذوا من دونه تعالى وكيلاً.

فيرد هنا سؤال عن السبب في أنه تعالى لم يجعل خلاصة الهداية التي أرادها من بني إسرائيل فعلاً «إيجابيا»، فلم يقل ـ مثلاً ـ: أن توحدوا الله تعالى أتم توحيد، وتطيعوه أحسن طاعة.

بل جعل الخلاصة أمراً سلبياً يجب عليهم التخلص منه، وإبعاده والإبتعاد عنه، وهو: أن لا يتخذوا وكيلاً من دون الله. ولم يشر بشيء إلى العقد الإثباتي، وهو التزامهم جانب التوحيد. ولم يبين طبيعته ولا معناه.. كما أنه تعالى لم يبين كيف يتم رفض الوكيل من دونه، ولا بين كيفية التزام التوحيد، وإلى أي مدى يصلون في توحيدهم هذا.

ولعل سبب ذلك: أنه تعالى يريد في مجال البناء الإيماني، أن

يعطي الأولوية للتطهير من الشوائب والتزكية، والتخلص من القذارات والأوساخ، كالشرك، والولاء للظالمين، ومحاباة الطواغيت، وما إلى ذلك.

ولأجل ذلك أشار تعالى إلى الكفر بالطاغوت، وإخراجه من القلوب قبل أن يدخل التوحيد والإخلاص فيه إليها، فإن من أراد أن يزرع أرضاً، يقوم أولاً باستصلاحها، وإعدادها، وتخليصها من العوائق، ثم يختار الوقت المناسب لمباشرة زراعته.

وهذا ما حصل لبني إسرائيل بالفعل، فإن هذا الشرك والكفر والإنحراف كان متمكناً من قلوبهم، وبقي هو المهيمن على عقولهم طيلة المئات والآلاف من السنين.

وهذا يؤكد عملياً: أن الأولوية هي لإخراج هذه القذارات من قلوبهم، وهذا ما أراد سبحانه الإشارة إليه هنا، حيث جعل لهم الكتاب هدى.. ولكن جعل مضمون هذه الهداية هو إخراج الطاغوت، وولاية الظالمين، وممالأته من قلوبهم، وإزالة كل علاقة لهم به..

وقد دلت سيرتهم مع موسى على رسوخ هذه العاهة في قلوبهم إلى حد أنهم كانوا كلما اقتلع موسى «عليه السلام» جذراً منها ظهرت له جذور أخرى، وكلما جاءتهم شبهة انغمسوا فيها، وكلما دعاهم داع إلى الإنحراف والضلال هرعوا إليه وتحلقوا حوله، واستجابوا له. وقد تقدم أنهم حين خرجوا من معجزة البحر، ورأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم طلبوا من موسى أن يجعل لهم أصناماً آلهة..

كما أنه حين غاب عنهم، وجاءهم السامري بعجله تركوا الايمان، وعدلوا إلى عبادة العجل، وهارون النبي بينهم يحذرهم، ويخوفهم، ويسعى لمنعهم، وهم لا يسمعون، ولا يرتدعون..

إلى آخر ما هنالك من مصائب وبلايا واجهها موسى وأخوه هارون معهم. بالرغم من كل الآيات والمعجزات، والنعم التي حباهم الله تعالى بها..

اتخاذ الوكيل:

وقد قال تعالى: (**أَلاَّ تَتَّخِذُواْ**). ولم يقل: ليس من دوني وكيل.. لأنه تعالى يريد أن يبين لهم: أن كل وكيل من دونه تعالى، فإنه لا حقيقة له، ولا واقعية لوكالته، بل هو محض ادعاء واصطناع بلا مبرر، وأنتم الذين اخترتم الوكلاء والطواغيت، وسلطتموهم عليكم، وكان لكم النصيب الأوفر والأكبر في إنتاج طاغوتيتهم، وفي قدرتهم على ممارسة الطغيان عليكم وعلى غيركم.

لم يقل: لا تَتَّخِذُواْ غيري وكيلاً:

وقال تعالى: (**مِن دُونِي**).. ولم يقل: ألا تتخذوا غيري وكيلاً. لأن هذا التعبير قد يفهم منه: أن من الممكن أن يكون هناك وكيل سواه سبحانه وتعالى. مما يعني: أن الإختيار بيدهم، فيمكنهم أن يختاروا الله وكيلاً، ويمكن أن يختاروا غيره لهذا الأمر..

لكن كلمة (**مِن دُونِي**) تفيد: أن هذا الإتخاذ مصطنع، ولا واقعية له ـ كما قلنا ـ ولا ينتج عنه صيرورة غير الله وكيلاً.

كلمة دون تشير إلى المقام:

ثم إن كلمة «دون» إنما تشير إلى الموقع والمقام. مما يعني أن كل من تتخذونه وكيلاً سيكون في موقع الدونية والقلة، والضعة، فاتخاذه وكيلاً يصبح خلاف الحكمة، والعقل، واختيار لغير الصالح، ومن لا يختار لنفسه ما يصلحها، هل يؤمن على مصالح غيره؟! لا

سيما مع ترجيحه الفاقد والمحتاج، والضعيف، والجاهل، والعاجز.. و.. و.. على المالك لكل هذا الوجود والقادر، والغني، والعالم، والقوي، والعزيز إلخ..

الوكيل أدنى المراتب:

وإذا نظرنا إلى مضمون كلمة «وكيل» فسنرى أنها أدنى ما يمكن أن يطلبه عاقل من المراتب لحفظ شؤونه، وتمشية أموره، وتدبيرها، أو على الأقل الإشراف عليها.

فإذا كان هناك من لا يصلح لهذا الأمر، وهو تدبير، وحفظ الموجود هل يصلح لما هو أعظم من ذلك؟! بأن تتخذه ولياً، فضلاً عن أن تتخذه رباً ومعبوداً، وتكل إليه مهمات الربوبية، فتسلمه مستقبلك ومصيرك، وتتكل عليه في الرزق والشفاء، والخلق، والإحياء، والإماتة، وإنزال المطر، وإثمار الشجر، وإنبات النبات، وتحريك الفلك، والشمس والقمر والنجوم، والإمساك بالسماء والأرض، وما الى ذلك.. مما فرضته القاعدة التي أطلقها إبراهيم «عليه السلام» في وجه نمرود: **(فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ)**[1].

وقد فهم من تصرفات بني إسرائيل أنهم يطلبون إلهاً.. ولا يطلبون

---

(1) الآية 258 من سورة البقرة.

وكيلاً، فلاحظ تاريخهم مع موسى «عليه السلام»، حيث عبدوا العجل، وطلبوا من موسى أن يتخذ لهم صنماً إلهاً.. حين مروا على قوم يعبدون الأصنام.

بين الولي والوكيل:

قد عرفنا آنفاً: أن مرتبة الوكيل لا تصل إلى مرتبة الولي، لأن الولاية الإلهية للشخص تنبثق عن مالكيته تعالى لعبده مالكية حقيقية، وهو الذي يملك حق التصرف بالشخص، وبأمواله، وكل ما يرتبط به. وأما الوكالة، فهي تفويض صاحب الحق شخصاً آخر للتصرف في أمور معينة.

وللولاية مناشئها، ككون الولي خالقاً وصانعاً، وهي ما نسميه ولاية التكوين، لأنه يستطيع أن يخلقه ويوجده، وأن يميته، وأن يحييه، وأن يعطيه، وأن يمنعه، ويشفيه ويرزقه، ويستطيع أن لا يفعل ذلك به، بل إن فيض الوجود عليه لحظة بلحظة يبقى مرتبطاً به تعالى..

كما أن الأبوة تصلح منشأ ومبدأ لدرجة من الولاية. ولكنها للخالق بالأصالة، وللأب بالجعل الإلهي، إذ يمكن أن يجعل الله للوالد بحكم والديته نوعاً من الولاية على ولده في نطاق معين، يفيد في حفظ الولد، وتدبير شؤونه، وضمان مصلحته.

فالولاية لله تعالى بما هو خالق وصانع، هي الأساس، والمنشأ لكل ولاية أخرى، حتى ولاية الأب، لأن الأب ليس سوى واسطة في الفيض الإلهي للوجود على هذا الممكن، فالولاية الحقيقية هي لله، لأن علاقة الخالقية بالمخلوق، والإيجاد بالموجود أعمق من كل علاقة، لا سيما وأن حاجة المخلوق إلى الفيض المستمر قائمة باستمرار.

فمصدر الولاية فاعل ومؤثر دائم، وكون الأب واسطة في الفيض لا يعني أن الله لم يكن قادراً على إفاضة الوجود بدون توسط أب أو غيره كما حصل بالنسبة لآدم وحواء وعيسى «عليهم السلام»، فمنحه طرقاً من ولاية التصرف تفضلٌ من الله تعالى عليه، وقد يقتضي الأمر سلبها عن بعض الآباء إذا ظهر سفههم، أو عدم واجديتهم للشرائط..

كما أن الله تعالى قد منح الولاية للرسول وللإمام، **(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا)**(1). وهي أوسع وأعمق من ولاية الشخص على نفسه، وولاية الأب على ابنه، لأن الرسولية والإمامة بما لهما من دور تدبيري للناس ولغيرهم من الموجودات تفرضان هذه الولاية الواسعة، فيصير النبي والإمام أولى بالإنسان من نفسه، فضلاً عن أبيه.. لأن النبي والإمام مظهر إرادة الله تعالى في عباده وبلاده، وهي ولاية تدبير ورعاية، وحفظ ووقاية، وتصرف وهداية، ناشئة عن حق التكوين المحض لله تعالى..

أما ولاية الوالد، فهي ولاية تسبيب منحه الله إياها في دائرة ضيقة جداً، ولم يمنحها للأم لمصالح اقتضت ذلك، مع أن لها نوعاً من التسبيب أيضاً.

---

(1) الآية 55 من سورة المائدة.

وللقاضي والحاكم الشرعي درجة من الولاية أيضاً منحه الله إياها في سياق حفظ مصالح العباد.

وللولد نوع ولاية، وحق جعله الله تعالى له فيما يرتبط بأبويه في حالات بعينها.

حق جعل الولاية:

فظهر: أن الولاية الحقيقية التكوينية المستمرة هي لله تعالى، وولاية غيره إنما تكون بجعل منه تعالى في سياق حفظ وتدبير شؤون مخلوقاته.. ولا يحق لغير الله تعالى أن يجعل ولياً، ولا أن يتخذ ولياً إلا من خلال أمره ونهيه تعالى..

ولذلك يقول الله سبحانه في كتابه: (**..وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا**)(1).

وقال: (**فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ**)(2).

الولاية بنظر البشر العاديين:

ولكن البشر العاديين الذين يعيشون الأجواء الدنيوية يفهمون الولاية على أنها تصرفات يقوم بها الغير لقضاء حاجاتهم، وتلبية رغباتهم الصالحة والطالحة على حد سواء. فهي بمثابة الوكالة، أو أقل منها، حيث لا يجيزون فيها تجاوز رغبات الموكل.

ولعل هذا هو السبب في أنه تعالى لم يقل لبني إسرائيل: « **أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَلِياً**»، بل قال: (**وَكِيلاً**). لأنهم يفهمون الولاية الإلهية بهذا المقدار، فهي بنظرهم لا تعدو قدرات الأصنام التي

(1) الآية 75 من سورة النساء.

(2) الآيتان 5 و 6 من سورة مريم.

يريدون اتخاذها آلهة، وبمستوى عجل السامري.. حيث يطلبون منه تحقيق رغباتهم، فإما أن يطيع، وهذا ما يأملونه أو لا يطيع، فلربما تركوه، وإن كان إلهاً من تمر، فإنهم يأكلونه، ولا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك.

إنهم يريدون إلهاً وكيلاً لهم لا وكيلاً لله، فضلاً عن أن يكون ولياً عليهم من قبله.

تدني مستوى بني إسرائيل:

وطلب الله من بني إسرائيل هذا المقدار من الوعي والفهم لمعنى الألوهية، وحدود تصرفاتها يدل على مدى إسفافهم في الفكر، وضحالة وعيهم، وبعدهم عن أي معنى من معاني الهداية والرشاد.

وقد أثبتت الأحداث: أن بني إسرائيل قد فشلوا في الخروج من مأزق الشرك والكفر والإنحراف.. فكان من نتيجة هذا الفشل أن أصبحوا بمثابة غدة سرطانية تفتك بالمجتمعات الإنسانية، ولا تجد المجتمعات دواء لهذه الغدة، إلا باستئصالها من جسد الأمة، وهذا ما لم يحصل حتى الآن.

الإختلاف في الضمائر:

وقد لوحظ في هذه الآية أيضاً: الإختلاف في الضمائر، فتارة يتحدث بضمائر جمع المتكلمين، فيقول: **(وَآتَيْنَآ)**، و **(وَجَعَلْنَاهُ)**.. وأخرى يتكلم بصيغة المفرد، فيقول: **(مِن دُونِي)**.

وتارة يتكلم عن بني إسرائيل مصرحاً باسمهم المقتضي لكونهم غائبين، وإنما يُصَرَّحُ بالاسم في حال غيبة المسمى، فيقول: (**هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ**)، ثم يغير لحن الكلام إلى صيغة الخطاب، فيقول: (**أَلاَّ تَتَّخِذُواْ**).

وقد قدمنا بعض ما له مساس ببعض المقاصد، والإشارات التي تكمن وراء هذا، ونزيد هنا: أنه تعالى حين تكلم بصيغة الإفراد أراد أن يلزم بني إسرائيل بأمر التوحيد، فتتأكد الحاجة في مثل هذا الحال لخصوص صيغة المفرد، إذ لو قال: «ألا تتخذوا من دوننا» لم يؤمن توهم وجود شريك له، والعياذ بالله، أو محاولة المجادلة في ذلك.

أما قوله تعالى: (**أَلاَّ تَتَّخِذُواْ**)، بعد تصريحه باسم بني إسرائيل، فهو أمر طبيعي، لأنه في قوة قولك: وقلنا لهم: (**أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً**).. فهو كقولك: رأيت فلاناً، وقلت له: اذهب إلى الدكان، واشتر قلماً أو كتاباً..

الفصل الخامس:

نـــــــــوح لا
ســـــــــوه اه

(ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا)

إعراب كلمة ذرية:

(ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ)..

وقد اختلفوا في إعراب كلمة «ذرية»، ولعل أقرب الوجوه في ذلك هو أنها مفعول به لفعل محذوف تقديره: «أعني»، أو «أخص».. فكأنه قال: أقصد من بني إسرائيل الذين جعل لهم كتاب الله كتاب هدى: **(ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ)**.

لماذا نوح لا إبراهيم مثلاً؟!:

وأول ما يتبادر إلى الذهن هنا: السؤال عن سبب ربط بني إسرائيل هنا بنوح «عليه السلام».

ولعل من المفيد في مقام الإجابة: أن نذكر أنه تعالى إنما كان يتحدث عن قوم بني إسرائيل بأجمعهم، والهداية التي يسرها الله تعالى لهم.. وما يتوقعه منهم ـ بالرغم من ذلك ـ من صدود وجحود، واتخاذ أرباب من دونه تعالى.

فالمناسب أن يذكرهم بقوم لهم صلة خاصة بهم، من حيث هم

أسلاف وآباء وأجداد، كانوا قد قبلوا هداية الله تعالى، فنالتهم بذلك أعظم البركات، وحرم منها العصاة من سائر البشر، فحاقت بهم الكارثة التي محقتهم، وهي الطوفان.

فيكون سبحانه قد وضع بني إسرائيل أمام حقائق، وهيأ لهم أجواء الهداية، وأثار لديهم المحفزات لها بصورة أقوى وأتم، وذلك كما يلي:

ألف: إنه تعالى ذكر أن بني إسرائيل هم ذرية وامتداد لمجتمع إيماني نال تلك الحظوة العظيمة عند الله، حيث حباهم ـ بسبب إيمانهم ـ بمعجزة نجاتهم من الطوفان.

أما إبراهيم «عليه السلام» فما حدث له مع النمرود قد بقي في دائرته المحدودة بحدود الصراع بين الحاكم وبين شخص خافه الحاكم على ملكه، وعرف أن دعوته إن شاعت وذاعت، فإنها ستقلب الأمور رأساً على عقب، فراح يصوره للناس، بصورة المعتدي على مقدساتهم، الذي يستحق الطرد، والقتل، والعقوبة، أي عقوبة كانت. فاستجابوا له، وكان ما كان من ظهور المعجزة له.. ونجاته منهم.

أما الذين حملوا مع نوح فقضيتهم ليس فيها ما يصح أن يعد حالة تصادمية مع الناس في معبوداتهم ومعتقداتهم.. بل هي حالة إيمان وإسلام ورعاية من الله لهم، وحفظهم من الغرق. علماً بأن حفظهم هذا فيه حفظ لذريتهم، وهم بنو إسرائيل أنفسهم.

فالحديث عن نوح وما جرى لأسلافهم معه هو الأولى. لا سيما وأن المطلوب هو ترغيبهم بالإيمان والهدى.

ب: إن هذه المعجزة ـ معجزة نوح ـ قد حصلت بوسائل محسوسة، مكنت من التغلب على قانون طبيعي هو غرق الأجسام الثقيلة في الماء، حيث صنع نوح «عليه السلام» السفينة التي حملت مجموعة من الناس، وما معهم، ومنعت من غرقهم حين حدث الطوفان.

ج: إن هذه المعجزة قد ترافقت مع حالة إعجازية، هي أن الناس قد عرفوا بحصول الطوفان من النبي نوح «عليه السلام» قبل حصوله بزمان طويل، ولكن الناس الكافرين كانوا يتلقون هذا الإخبار الغيبي منه بالسخرية، والتكذيب.. حيث لم يكونوا يرون أثراً لماء أو لمطر في منطقتهم، فمن أين يأتي الطوفان؟!

د: إن ظاهر الحال يعطي: أن السفينة هي التي حملتهم، ولكن الله تعالى ينسب ذلك إلى نفسه على سبيل التعظيم، فيقول: **(حَمَلْنَا)**. ربما ليشير إلى تفضله عليهم، حيث لم يبذلوا أي جهد فيه، بل كان الحمل لهم بواسطة قانون وضعه الله، جعل الماء قادراً على حمل الأجسام الثقيلة، وكان بالإمكان إبطال هذا القانون، فلا ينجو أحد من الطوفان.

والدليل على أنه تعالى هو الذي حملهم بواسطة هذا القانون أو السنة قوله تعالى: **(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)**[1]. فجعل التسيير في البر والبحر عملاً خاصاً به تعالى، ويقول: **(إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ**

---

(1) الآية 22 من سورة يونس.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ..)[1]. ولولا هذه السنن لم تصنع الطائرة، ولا السفينة، ولا غير ذلك.

والأوضح والأصرح من ذلك: تصريحه بما يرتبط بنفس هذا المورد في قوله سبحانه: **(وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ)**[2]. فإنه صريح في أن تسيير السنة الطبيعية إنما هو بيد الله، فلا يصح أن ينظر إلى هذه الأمور ببساطة وسذاجة..

ومثل الآية أيضاً قوله تعالى: **(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ)**[3]. وقوله: **(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)**[4].

هـ: وهذا يدلنا على أنه تعالى يريد أن يواجه السياسات التي ترمي لتذويب الشعور بالتأثير الإلهي في الأشياء، وإغراق الإنسان بأجواء المادة، وإبعاده عن الله، بل هناك مساع تبذل لإشاعة الأجواء

---

(1) الآية 41 من سورة فاطر.

(2) الآيتان 32 و 33 من سورة الشورى.

(3) الآية 71 من سورة القصص.

(4) الآية 72 من سورة القصص.

الإلحادية، واعتبار كل ما يجري إنما يجري بنفسه وبطبيعته، وكأنه نتاج تفاعلات طبيعية وذاتية.

ولعل هذا الأمر هو أحد المهمات التي تتولاها الأفلام الوثائقية التي تحاول تكريس هذا الشعور بصورة عفوية وتلقائية في ظاهرها، ومتعمدة خبيثة في الباطن..

وهي إساءة لعقيدة الإنسان، ومحاولة لزرع الإلحاد في وجدانه بصورة خفية، من خلال الإبهام والإيهام.

وهذا يناقض تماماً النهج الإيماني الذي يصر على أن يبقى الإنسان في كنف الله، لا ينصرف ذهنه عنه، بل يبقى الله حاضراً عنده بقوة، وفي كل موقع وموضع حتى تلك التي قد لا يخطر على البال أن للقدرة الإلهية فيها يداً، فإنه يريدك أن تعرف أن كل شيء خاضع للسنن الإلهية، وهي رهن مشيئته، وهو قادر على إلغائها في كل لحظة.

فالنهج الإلهي الإيماني يسعى لاستنقاذ الإنسان من آبار الجهل السحيقة، ومن الوحشة، والوحدة، وحين يكون بعيداً عن الله. إنه يريد أن يدفع به إلى العالم العلوي من جديد، ليرى كيف أن الله تعالى هو الذي يقدر ويدبر.

أما الإلحاد فيسعى لتغريب الإنسان عن الله، والإلقاء به في ظلمات التيه والوحدة والوحشة والضياع.

فكلمة: **(حَمَلْنَا)** تستبطن معنى الواجدية بكل مظاهرها، فإذا كان

تعالى هو الذي حمل المؤمنين وحماهم من الطوفان، فلابد أن يكون تعالى عالماً بصيراً، حكيماً، قادراً، خالقاً، مهيمناً، حياً قيوماً، إلى غير ذلك من صفات الألوهية والربوبية، التي تتجسد وتتجلى أفعالاً، وتصرفات.

وقرار العذاب للكافرين بالطوفان، وإرسال الطوفان عليهم كان فعلاً إلهياً، كما كان التدبير لنجاة المؤمنين أيضاً إلهياً، فألهم تعالى نوحاً ليصنع السفينة، فكان صنعها إلهياً كذلك.

غير أن الإنسان بالرغم من ذلك كله، يظن أنه مستغن عن الله وعن تدبيره وعونه، مع أنه غارق في السنن والألطاف الإلهية، ولكنه يتجاهل ذلك، فيظن أن الولادات فعل طبيعي، وكذلك الطيران في الهواء، وركوب الماء، وشفاء المرض بالدواء، وما إلى ذلك.

و: إذا كان بنو إسرائيل ذرية أولئك المؤمنين الذين أنعم الله عليهم بسبب إيمانهم بهذه النعمة العظيمة.. فإن ذلك يستوجب شكر بني إسرائيل، ويفرض عليهم الإلتزام بخط الإيمان.

ز: إن كفر بني إسرائيل وطغيانهم مع كثرة ما حباهم الله به من نعم، وما أظهره لهم من خوارق العادات، وما أراهم إياه من معجزات، وما اختصهم به من هدايات. إن ذلك يظهر مدى سوء هؤلاء القوم، ويجسد لنا ظرفاً من المعاناة التي كابدها موسى «عليه السلام» معهم، وبالرغم من كل ذلك، فإن عاقبة أمرهم كانت هي الفساد والإفساد، ومحاربة الإيمان وأهله في كل عصر ومصر.

وكان حال نبي الله موسى «عليه السلام» في قومه، يشبه إلى حد بعيد حال نوح «عليه السلام» في قومه، فبعد أن لبث نوح «عليه السلام» في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى الإيمان بالله، لم تكن حصيلة كل جهوده تلك سوى حفنة من المؤمنين أقلتهم سفينة واحدة صنعها هو «عليه السلام» لهم لتنجيهم من الطوفان الذي أرسله الله تعالى على سائر قومه الذي يقول عنهم نوح نفسه بعد تسع مئة وخمسين سنة من الدعوة: **(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آَذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا..)**.. إلى أن يقول: **(وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آَلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا)**(1).

ثم يذكر «عليه السلام» أن غرقهم كان عقوبة لهم: **(مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَارًا)**(2).

ويقول «عليه السلام»: **(وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ**

---

(1) الآيات 5 - 24 من سورة نوح.

(2) الآية 25 من سورة نوح.

الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا)(1).

وإذا كان ما جرى لموسى «عليه السلام» مع بني إسرائيل، وما جرعوه من غصص، وما كابده من آلام يقترب في بعض وجوهه مما جرى لنوح، ذلك الرجل الصابر المجاهد المكافح، الذي بقي حوالي ألف سنة يعمل، بلا كلل ولا ملل، ويبتكر وسائل الهداية والإقناع ـ لهداية قوم دعاهم ليلاً ونهاراً، فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً. وكلما دعاهم ليغفر الله لهم استغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً. فدل ذلك على أنهم في غاية الوقاحة والعناد والجرأة، والإمعان في الكفر والفجور.

إن نوحاً «عليه السلام» هو المثل والنموذج العملي في الأناة والصبر، وعدم اليأس.. وكان في كفاح وجهاد مستمر، ناهز الألف سنة قبل الطوفان.. ولا ندري كم لبث بعده فيهم، وكم لبث في قومه قبل بعثته إليهم عبداً صالحاً، ونموذجاً للإنسان الإلهي.. الذي كان أول نبي من أولي العزم، الذين لم يكن هناك من له عزم وصبر أعظم من صبرهم وعزمهم، إلا إن كان لدى نبينا وأهل بيته الطاهرين «صلوات الله عليه وعليهم أجمعين».

وقد كانت مكافأة نوح على معاناته مع أولئك القوم المجرمين

---

(1) الآيتان 26 و 27 من سورة نوح.

الحاقدين هو السلام والبركات عليه وعلى أمم مؤمنة ستأتي بعده، يكون المؤمنون الذين معه هم المبدأ والنواة التي تنبثق منها. فقد قال تعالى: **(قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)**[1].

ويذكرنا هذا بقول علي «عليه السلام»: «لنا حق فإن أعطيناه، وإلا ركبنا أعجاز الإبل وإن طال السرى»[2].

فإن من أتعب المراكب وأقساها، ركوب أعجاز الإبل، حيث يصعب جداً على الإنسان أن يحفظ نفسه، فكيف إذا كانت الإبل تسير في الليل، فتارة تطأ على حجر، وأخرى تضع رجلها في منخفض، وتارة تقتحم أغصان الشجر، وأخرى ترتطم بالأشواك النابتة، وقد تنفر من أمر يفاجئها، وتارة تصعد على جبل، وأخرى تهبط في واد، وتتجه تارة يميناً، وأخرى تتجه يساراً.. ولا يجد الراكب على عجزها ما يمسك به، أو يستمسك عليه..

فإذا كان ذاك هو حال النبي، وهذا حال الولي في صبرهما على المكاره والآلام في الأزمنة المتطاولة. فألا يستحقان من الله التعظيم

---

(1) الآية 48 من سورة هود.

(2) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج4 ص6 وعيون الحكم والمواعظ ص420 وبحار الأنوار ج29 ص600 وكتاب الأربعين للماحوزي ص271 ومستدرك سفينة البحار ج1 ص35 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج18 ص132.

والتفخيم، والتشريف، والتكريم بأقصى الدرجات وأسماها، وأرضاها وأسناها؟!

ح: إن هذا الذي ذكرناه يجرئنا على القول: بأن من الجائز، بل من القريب جداً: أنه سبحانه أراد أن يظهر طرفاً من فضل نوح ليس على الذين آمنوا من قومه وحسب، بل على كثير من الأمم التي جاءت من بعده. ومنهم بنو إسرائيل.. فلعل السبب في أن الله تعالى حين يتفضل بالنعم على بني إسرائيل، ويمدهم بالهدايات، ويظهر المزيد من الإهتمام بهدايتهم، هو حفظ جهود نوح، وإظهار عظيم فضله، وجليل تضحياته.

ط: إن هذا الربط بين موسى وبني إسرائيل، وبين نوح، وحمل المؤمنين في السفينة، فيه إظهار لمعاناة موسى «عليه السلام»، وفضله، وعظيم صبره، وطول أناته. وجليل تضحياته مع بني إسرائيل.

ي: ووجه الشبه الأهم والأتم بين موسى «عليه السلام» مع بني إسرائيل، وبين نوح وقومه، هو: أن المعاناة كانت في معظمها في الجوانب الإعتقادية والإيمانية، وإرساء قواعد الإيمان في نفوس وعقول الناس، وتحويلها من حالات فردية إلى ظاهرة اجتماعية. ومرتكز أساسي راسخ في وجدان الناس، وفي ضميرهم، وحياتهم.

ك: وهؤلاء هم بنو إسرائيل لا تزال حالهم هي نفسها التي كانوا عليها من عهد موسى «عليه السلام» وإلى يومنا هذا، فهم مفسدون

ظالمون، مزورون للحقائق.. وأهل فتن، مستكبرون متعالون على غيرهم من الناس، قساة القلوب، ممعنون في حب الدنيا..

وهذا يبين لنا حيثيات قوله «صلى الله عليه وآله»: لتركبن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة، ومطابق النعل بالنعل، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتم فيه[1].

---

(1) راجع: مسند أحمد (ط دار صادر) ج2 ص325 و 511 وج3 ص84 و 89 وسنن ابن ماجة ج2 ص1322 وصحيح البخاري (ط دار الفكر) ج4 ص144 و (ط دار إحياء التراث العربي) ج7 ص170 وج15 ص235 وصحيح مسلم (ط دار الفكر) ج8 ص57 و (ط دار الكتب العلمية) ج16 ص189 وصحيح ابن حبان (ط دار الفكر) ج6 ص192 و (ط مؤسسة الرسالة) ج15 ص95 والمستدرك للحاكم ج4 ص455 ومجمع الزوائد ج7 ص261 والدرر لابن عبد البر ص225 والجامع الصغير ج2 ص401 وكنز العمال ج11 ص134 والدر المنثور (ط دار الفكر) ج7 ص466 وجامع البيان (ط المعرفة) ج10 ص121 والجامع لأحكام القرآن (ط دار الكتب العلمية) ج8 ص200 وتفسير القرآن العظيم (ط دار إحياء التراث العربي) ج4 ص152 وجامع المسانيد والمراسيل (ط دار الفكر) ج6 ص23 وج8 ص179 واللؤلؤ والمرجان (ط دار الفكر) ج1 ص827 والفتح الكبير (ط دار الفكر) ج3 ص8 و 334 والمصنف للصنعاني (ط دار الفكر) ج11 ص369.

وراجع: دعائم الإسلام ج1 ص1 وبحار الأنوار ج5 ص22 وج 13 ص180 وج22 ص390 وج24 ص350 وج28 ص7 و 30 و 282 و 2 وج29

وما ذلك إلا لأن هناك أموراً ثابتة لا تتغير في حياة البشر، وفي أحوالهم وطباعهم، وفي حقائق الأشياء من حولهم.. مهما طال الزمن وتقلبت الأحوال، وهناك أمور متغيرة حسب الأحوال..

فقد كان منذ عهد آدم هناك طويل وقصير، وأسود وأبيض، وأحمر وأخضر. وكان هناك توالد بين الناس، وضحك وبكاء، وبخل وسخاء، وخوف وأمن، وجوع وعطش، وصحة ومرض، وحب وبغض. وكانت الخمرة مسكرة، والسم قاتلاً، و.. و..

ولا تزال وستبقى هذه الأمور والحقائق ثابتة إلى يوم القيامة.. وكان أيضاً الهدى والضلال، والحق والباطل، والخير والشر، والظلم والعدل، والصدق والكذب، والطهر والخبث، والخير والشر، وغير ذلك.. كل ذلك كان من عهد آدم وسيبقى أيضاً.

وكان أنبياء الله والأوصياء والأولياء هم أهل الحق والخير، والصدق والعدل، والطهر.. وسيبقون كذلك إلى يوم القيامة أيضاً. فالرجوع إلى الأنبياء ليس استغراقاً في التاريخ، ولا إيثاراً للقديم، لأن الأنبياء هم الجديد الذي يستهجن حضوره في عالم طغى عليه الإنحراف والضلال، والشر، والظلم، والباطل، والظلم، والكذب،

ص450 وج36 ص284 وج51 ص253 وج52 ص110 وج53 ص72 و 141 ومستدرك سفينة البحار ج5 ص185 وتفسير نور الثقلين ج1 ص606.

والخباثة، وما إلى ذلك.

ل: إن ما جاء به الأنبياء إنما جاؤا به من عند الله، وهو الصواب الموافق لجميع السنن التي أودعها الله تعالى في مخلوقاته.. أما ما نستنبطه نحن بعقولنا فقد يكون غلطاً، أو ملوثاً، أو مشبوهاً.. ولكل حالة معالجاتها.

م: كما أن من الثابت: أنه من عهد آدم «عليه السلام» كان هناك امرأة ورجل، وزوج وزوجة، وولد وأخ، وأب وأم، وعم وجد، فأحكام الإرث في هذه الأمور لابد أن تبقى ثابتة، لأن مناشئها ثابتة.

أما ما يتغير، فهو مثل أساليب القتال، فقد كان القتال سابقاً بالحجر والعصا والسيف، ثم صار بالدبابة والمدفع والصاروخ..

ومثل وسائل النقل التي كانت بواسطة الجمل والفرس ونحوهما، ثم صارت بواسطة السيارة والقطار والطائرة، ونحو ذلك.

ومثل وسائل التواصل، فإنها كانت بواسطة الرسل، ثم بالحمام الزاجل، وأصبحت بالهاتف والإنترنت، وغير ذلك.

ولأن الله تعالى هو الخالق والصانع للكون والإنسان، فلا بد من الرجوع إليه تعالى لمعرفة ما يجب أن تكون عليه حركة الإنسان في الحياة مع نفسه، ومع ربه، ومع أخيه الإنسان، ومع الحيوان، ومع كل ما يحيط به..

والأنبياء وأوصياؤهم هم الذين يملكون القائمة الكاملة والصحيحة لهذا السلوك في مختلف المواضع والموانع.

البشر ذرية الناجين من الطوفان:

وقد يقول قائل: لماذا اعتبرتم بني إسرائيل وحدهم ذرية للذين نجوا في سفينة نوح، فإن أمماً أخرى ولدت من ذريتهم أيضاً. فما معنى هذا التخصيص بهم، فإن ذرية إسماعيل بن إبراهيم «عليهما السلام» كانوا أمة من الناس أيضاً.

ويمكن أن يجاب:

بأننا لم ندع حصر ذرية من حملتهم السفينة ببني إسرائيل، بل قلنا:

أولاً: إن جعل التوراة هدى لبني إسرائيل، لا يعني أنها ليست هدى لغيرهم أيضاً، فإن إثبات شيء لشيء لا يعني نفيه عما عداه.

ثانياً: إن المقام مقام حث بني إسرائيل على التزام خط الإيمان، وتحذيرهم من الإخلال بمعنى التوحيد الخالص.. بتذكيرهم بأن أسلافهم كانوا من أهل هذا الخط الذي استحقوا به هذه الكرامة الإلهية، وهي نجاتهم من الطوفان، وحلول العذاب بالكافرين.

ولا مانع من أن يقول القائل لولد شاق عاق: إن هذا الذي يصدر منه لا يناسب حال آبائه المعروفين بالنبل والوفاء والإستقامة.

ولا يدل ذلك على انحصار ذرية أولئك الآباء به، فلعلهم أعداد كبيرة من الذرية الصالحة، ويكون ضلال هذا الضال منهم أمراً مشيناً لهم، لأن انغماسه في السوء والرذيلة لا ينسجم مع حقيقة أنه عاش

وتربى في بيت التقى والإستقامة، المغمور بالهدايات، فما معنى أن يشذ عن الطريق، ويوغل في الإنحراف، فإن ذلك يدل على مدى خبثه، وسوء سريرته..

الثناء على نوح:

وأما قوله تعالى عن نوح هنا: **(إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا)**. فهو يفسر لنا سرّ قدرة نوح «عليه السلام» على تحمل هذه المعاناة الطويلة التي استمرت حوالي ألف سنة قبل الطوفان على الأقل، فما بالك بما تحمَّله قبل أن يبعثه الله رسولاً إلى قومه.

فهذا الثناء على نوح، والتنويه بمقامه وبإخلاصه في عبادته يصبح أمراً مفهوماً، وفي سياقه الطبيعي.

وقد ذكرنا في أكثر من مناسبة: أن وسام العبودية هو أعلى وأغلى وسام يمكن أن يناله الإنسان المؤمن المطيع لله سبحانه.

وعلينا أن نلفت النظر إلى أن تتبع الموارد يعطي: أنه تعالى في نفس الوقت الذي يثني فيه على أنبيائه، بأنهم عباد صالحون، وشكورون، وعابدون له.. فإنه تعالى يتعامل معهم بمزيد من الوضوح والحزم والقاطعية، ليبدو للناظر أنه يوجه إليهم التهديد والوعيد، حتى ليقول عن نبيه: **(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ**

ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ)[1]. ويقول له: **(لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)**[2]. مع أن الغرض منها: هو إفهام الناس أهمية وخطورة بعض الأمور التي ربما يستهينون بها، ومع علمنا بأن عصمة أنبيائه وعظمتهم، ورسوخ قدمهم في الطهر وفي الصلاح يجعل صدور الشرك منهم، والتقول على ربهم من قبيل فرض المحال.. يعرفنا: أنه تعالى إنما يورد الكلام على قاعدة: إياك أعني، واسمعي يا جارة.. بهدف التعريف بأن هذا الأمر مما لا مجال للتراخي فيه، ولا يمكن العفو عنه بأي حال.

ولكنه حين يتعامل مع سائر الناس، نراه يراعي خواطرهم، ويتحبب إليهم، ويلين جانبه لهم، فيقول لهم: **(وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ)**[3]. ويقول: **(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ)**[4]. ويقول: **(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ)**[5].

ولعل السبب في الحزم والشدة والصراحة هناك، والليونة هنا: هو أنه تعالى يعامل الناس وفق معرفتهم، واستعدادهم، فكلما زاد الإنسان في

---

(1) الآيات 44 - 46 من سورة الحاقة.

(2) الآية 65 من سورة الزمر.

(3) الآية 25 من سورة الشورى.

(4) الآية 82 من سورة طه.

(5) الآية 53 من سورة الزمر.

معارفه رقياً، وفي ملكاته الإيمانية سمواً، كلما عرف نفسه بالضعف، والحاجة، والنقص، والفقر، والعجز، وعرف ربه بالقوة والغنى، والكمال، والحكمة، وما إلى ذلك، وتجسدت أمامه عظمة الله، وسعة ملكه، وباهر قدرته.

وهذا يفسح المجال أمام المزيد من الوضوح والصراحة معه، والحزم في التعامل، ويصبح للخطاب الإلهي أثراً عظيماً فيه، لأن مستوى الإدراك للمعاني أرقى، ودرجة التفاعل معه أقوى وأشد.

أما الإنسان العادي والجاهل، الذي لم يرب نفسه على الصالحات، فقد لا يهضم الكلام، ولا يدرك أبعاده، وخطورة ما يرمي إليه. وربما اندفع مع غرائزه وأهوائه إلى ما هو أشر وأضر، وهو اللجاج والعناد والتمرد، فالحكمة تقضي بمعاملته بالرأفة والرحمة، وإفساح المجال له ليصلح الخطأ، ويعود إلى الصواب.

فإن أصر على الباطل، وأظهر البغي والطغيان، فلكل حادث حديث، حيث يوكله إلى عمله، ويعامله بما يستحقه.

أهمية ربط الإنسان بتاريخه:

ثم إن الإنسان موجود متكامل، وكتلة ذات تراكمات كامنة في أعماقه، ولها تأثيرات مختلفة، وبعضها قد يكون ضارب في عمق التاريخ، وله تأثيره في روح الإنسان، وعقله، وسلوكه، ومشاعره، وقوته، وضعفه.. وإن لم يصل إلى حد الجبرية..

ولكن قوة تأثيرها تكمن في أن الإنسان بطبعه يستسلم لدوافعه النابعة من داخله، ويستكين لها، ولا يناقشها الحساب، ولا يتدبر صحيحها من فاسدها.. لأنها تأتي إليه، وتهجم عليه من موضع أمنه، وطمأنينته، فتبادر هي من دون أن يشعر لتأخذ زمام المبادرة، فتقرر عنه، وتتصرف سلباً تارة، وإيجاباً أخرى.

وهذا ما ألمح إليه الإمام علي «عليه السلام» فيما نقل عنه، من أنه حين أعطى الراية لولده محمد ابن الحنفية، وظهر منه بعض التردد، قال له: «أدركك عرق من أمك»(1).

وقد تحدث لنا التاريخ، وشهدت البحوث العلمية: بأن الإنسان قد يرث من أجداده ومن غيرهم من أقاربه بعض الأمور الأخلاقية، والنفسية، وبعض الخصال والأحوال.. بل قد يرث لونه وشكله، وبعض التكوينات الجسدية من هؤلاء الأقارب، البعيدين أو القريبين.

ولأجل هذا نرى الإمام «عليه السلام» يقول: «تخيروا لنطفكم، فإن العرق دساس»(2). أو فإن الخال أحد الضجيعين(1).

---

(1) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج1 ص243 وقاموس الرجال للتستري ج9 ص245 عنه، وبحار الأنوار ج42 ص98 و مروج الذهب ومعادن الجوهر ج2 ص366 وجواهر المطالب لابن الدمشقي ج2 ص32 وراجع: شجرة طوبى ج2 ص321.

(2) إعانة الطالبين ج3 ص312 وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ج6 ص310 والمحجة البيضاء (ط دار التعارف سنة 1401 هـ) ج3 ص93.

وقد وری الصدوق «رحمه الله» عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: إن الله تبارك وتعالى إذا أراد أن يخلق خلقاً جمع كل صورة بينه وبين أبيه إلى آدم، ثم خلقه على صورة أحدهم، فلا يقولن أحد: هذا لا يشبهني، ولا يشبه شيئاً من آبائي(2).

وعن النبي «صلى الله عليه وآله»: أنا أشبه الناس بآدم، وإبراهيم أشبه الناس بي خلقة، وخلقة الخ..(3).

---

(1) الوافي ج21 ص44 وهداية الأمة ج7 ص103 والكافي ج5 ص332 ودعائم الإسلام ج2 ص194 وتهذيب الأحكام ج7 ص402 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج20 ص48 و (الإسلامية) ج14 ص29 ومستدرك الوسائل ج14 ص174 والنوادر للراوندي ص114 وغوالي اللآلي ج1 ص259 وج3 ص301 وبحار الأنوار ج100 ص236 ومرآة العقول ج20 ص22.

(2) علل الشرائع ج1 ص103 وبحار الأنوار ج57 ص340 وج101 ص103 ومن لا يحضره الفقيه ج3 ص484 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج21 ص504 و (الإسلامية) ج15 ص219 ومكارم الأخلاق للطبرسي ص221 وغوالي اللآلي ج3 ص309 و 419 ومستدرك سفينة البحار ج5 ص344 وج10 ص434 وميزان الحكمة ج1 ص786 وتفسير نور الثقلين ج1 ص311 وتفسير كنز الدقائق ج3 ص30.

(3) الخصال للصدوق ص425 وعلل الشرائع ج1 ص128 ومعاني الأخبار ص51 وبحار الأنوار ج16 ص92 ومستدرك سفينة البحار ج5 ص344 وميزان الحكمة ج4 ص3186.

فربط بني إسرائيل بتلك الثلة الإيمانية التي صنع الله تعالى لها ذلك الإنجاز العظيم، من شأنه إيجاد مناخات وأجواء، ومشاعر حميمة فيما بين الفريقين، وذلك يسهِّل على بني إسرائيل الإقتداء بسلفهم، ومتابعة نهجهم، والتشبه بهم، والحفاظ على ما ورثوه منهم، وأخذوه عنهم، حتى لو كان هذا الذي أخذوه قد تعرض لبعض التصرف والتشويه، فإنه يبقى أساساً صالحاً للبناء عليه، وتطويره، وتعديله، وإصلاحه.

ولأجل ذلك أمر أمير المؤمنين «عليه السلام» الأشتر: بأن يختار للعمل أهل البيوتات الصالحة(1)، التي تهتم بتنشئة أفرادها على القيم والمبادئ لتكون هي مكونات وحدود شخصيتهم.

كما أن الإسلام لم يتنكر لتاريخ الإنسان، بل سعى إلى توظيف كثير من مخلفاته وتأثيراته القابلة للإصلاح في بناء حياته، وصياغة شخصيته بعد إجراء ما يلزم من تهذيب وتشذيب، وتقليم وتطعيم..

فمثلاً حين ظهر الإسلام في الجزيرة العربية لم يحارب الكرم

---

(1) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج3 ص95 ودعائم الإسلام ج1 ص361 وشرح نهج البلاغة لابن ميثم ج4 ص184 وج5 ص153 وبحار الأنوار ج33 ص605 وج74 ص252 وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج5 ص181 و 283 وتحف العقول ص137 ومستدرك الوسائل ج13 ص166 .

العربي، الذي فرضته عليهم ظروف حياتهم، بل أبقى عليه، وأصلحه، وغير من دوافعه ومنطلقاته، فبدل أن يكون بداعي كسب ولاء الناس، وبهدف التسلط عليهم، جعله بدافع إنساني، وثمرة تحرك المشاعر الإنسانية، وجعل مقاصده التقرب إلى الله سبحانه، على قاعدة: **(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً)**(1).

كما أبقى على شجاعة الإنسان العربي، ولكنه أصلحها وطورها، فبدلاً من أن تكون مجرد انفعال متهور، وردات فعل غير مسؤولة، بداعي العصبية العمياء، والحمية البلهاء.. طورها وجعلها حالة رادعة لأعداء الإنسانية، وحامية للدين وللشرف، وللمجتمع الإيماني من أي عدوان.

كما أنه حين وجد أن العصبية العشائرية هي الطاغية طورها، وغيَّر محورها ومنطلقها، فبدلاً من أن تكون عصبية للعشيرة حتى وهي ظالمة صارت عصبية للحق والصدق والإنسان..

واستثمر العلاقة النسبية والإنتماء للعشيرة في بناء المجتمع الإيماني المتكامل والقوي، فحولها إلى مسؤولية إصلاح روحي، وفكري وسلوكي.

فظهر بذلك: أن للبيئة الصالحة تأثيراً إيجابياً في إنجاح الدعوات

---

(1) الآية 9 من سورة الإنسان.

الإصلاحية، الهادفة إلى بناء شخصية الإنسان على أسس إيمانية.

توحيد الرموز الكبرى:

وقد لاحظنا هنا: أن السياسة الإلهية تقضي بالإعتماد على تكريس معنى القدوة في وجدان المجتمعات البشرية، وتكريس الوحدة في المحورية الإيمانية في رموز الإيمان.. إذ لا يكفي أن ترسل شخصاً إلى شخص ليقنعه بالفكرة وينتهي الأمر، بل هو يحتاج إلى أسوة وقدوة، ورمز، ومحور، ومركزية في العمل، وفي الشعور، ومرجعية في المواقف، وفي السياسات، وسائر الحركات.

فالرموز البشرية هم: الأنبياء والرسل، والأوصياء، ثم العلماء والأولياء، والصلحاء من حيث كونهم قادة وهداة.. وبالرغم من أن الرواية تقول: إن الأنبياء هم مئة وأربعة وعشرون ألف نبي، فإن المحور والأساس هم خمسة منهم. والمحور الأعظم حتى بالنسبة للأنبياء، فضلاً عن غيرهم هو رسول الله، ووصيه، وأهل بيته «صلى الله عليه وعليهم».

والرموز العملية للإيمان العملي هي مثل الكعبة، والمشاعر، وجميع الأماكن المقدسة.

وقد ذكرنا أن الله تعالى يريد أن يكون البشر أمة واحدة.. لها أب واحد، ومحور واحد، ولهم لغة واحدة، وقبلة واحدة، وقرآن واحد، ودين واحد..

العبد الشكور:

وقد رأينا أنه سبحانه حين أثنى على نوح «عليه السلام» لم يقل: وهو عبد شكور، بل جاء بصيغة أخرى فيها تأكيد على عبوديته وشكوريته «عليه السلام»، فقال: **(إِنَّهُ كَانَ)**.. ولعل الذي كرس الحاجة إلى هذا التأكيد هو الأمور التالية:

أولاً: لعل بني إسرائيل كانوا لا يفقهون كثيراً أهمية هذين الوسامين.. فيحسبون أن هذا من الثناء الذي يعني نوحاً، في علاقته الخاصة بربه، ولا يعني بني إسرائيل في شيء، لا من قريب ولا من بعيد، فأراد تعالى أن يثير فيهم بعض الحماس لمعرفة مغزى وأهمية هذين الوسامين.

ثانياً: إذا كان بنو إسرائيل من ذرية المؤمنين الذين كانوا في السفينة، فلا شأن لهم مع نوح.. وإنما ما يعنيهم هو مواصفات أسلافهم من الآباء والأجداد..

فجاء هذا التأكيد ليدل على أن نوحاً هو الأساس في النعمة التي حظي بها الأسلاف، وكانت بها نجاتهم، وعلى أن عبوديته وشكوريته لله، هي الأساس في هذا الجهد الذي بذله، والمعاناة التي تحملها لكي يسدي هذه الخدمة لآباء بني إسرائيل، ولبني إسرائيل، وسائر الشعوب الأخرى أيضاً..

(كَانَ) هل هي زمانية؟!:

أما قوله تعالى: **(كَانَ)**، فلا يقصد بها الحكاية عن برهة زمانية ماضية.. بل المقصود بها: أن العبودية والشكورية حالة ثابتة له منذ خلقه الله، وإلى آخر لحظة. لأن هاتين الصفتين جزء من حقيقته، لا يمكن فصله عنها، وإذا كان عمل نوح يعبر عن شخصية نوح في كل زمان تحضر فيه أثار ذلك العمل.. فإن هذه العبودية والشكورية تبقى حاضرة أيضاً بآثارها عبر الأجيال التي تنعم بآثار جهاده وأعماله، وعبوديته وشكوريته «عليه السلام».

وسام العبودية لنوح:

وقد تحدثنا عن كلمة **(عَبْدًا)** في الآية الأولى من هذه السورة المباركة، وقلنا: إن عبودية النبي هي التي تجعله يستحق الكرامة، ومحلاً للطف الإلهي، وبمدى عمقها فيه ينال المقامات عنده. ولذا جاء في تشهد الصلاة قول كل مصلٍّ: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»، ربما ليدل على أن هذه العبودية هي التي أهلته للرسولية.

نوح الشكور:

ثم قال: **(شَكُورًا)**. وقد أشرنا فيما سبق إلى أن هذا الوصف قد ورد على لسان النبي أيضاً، حين عرض عليه جبريل بعض الأمور..

إلى أن تقول الرواية: فقال «صلى الله عليه وآله» في نهاية المطاف: «أفلا أكون عبداً شكوراً»؟![1].

وكلمة شكور صيغة مبالغة تدل على الكثرة، أو على شدة الرسوخ والتحقق والتعمق في الشكورية.

وشكوريته «صلوات الله وسلامه عليه وآله» تعني كثرة صدور الشكر منه، وشدة شعوره بالإمتنان لله سبحانه، بسبب ما يراه من تواتر ألطافه ونعمه عليه..

وهذا يدل على عمق معرفته به تعالى وبنعمه، وبما يستحقه المنعم من شكر، مع إدراكه: أن الذي وصلت إليه النعمة، لم تصل إليه عن استحقاق ذاتي فيه لها، بل عن تفضل كتبه الله تعالى على نفسه له في

---

(1) وسائل الشيعة (آل البيت) ج6 ص192 ووسائل الشيعة (الإسلامية) ج4 ص844 ومستدرك الوسائل ج11 ص247 و 253 والأمالي للطوسي ص404 و 736 والإحتجاج للطبرسي ج1 ص326 والخرائج والجرائح ج2 ص917 ومناقب آل أبي طالب ج3 ص289 وبحار الأنوار ج10 ص40 وج16 ص222 و 288 وج17 ص257 و 287 وج46 ص57 و 61 و 79 وج67 ص69 وج68 ص48 وج89 ص198 ومسند أحمد ج4 ص255 وج6 ص115 وصحيح البخاري (ط دار الفكر) ج2 ص44 وج6 ص44 وج7 ص183 وصحيح مسلم (ط دار الفكر) ج8 ص141 وسنن ابن ماجة ج1 ص456 وسنن الترمذي ج1 ص258 ونيل الأوطار ج3 ص93.

حالات كهذه، فصار بذلك مستحقاً، فهو استحقاق ناشئ عن التفضل بالجعل من الله تعالى.

ومن الواضح: أن جعل الإستحقاق هو الآخر تفضل يستحق الله عليه الشكر العظيم. كما أن جعل الجنة ثواباً للمطيع إنما هو تفضل من الله أيضاً.

وكل ما ذكرناه ينتهي بنا إلى حقيقة: أن العبودية لله هي التي أوصلت الإنسان إلى مقام الشكورية، لأن غير العبد الحقيقي لا يمكنه أن يشعر بالإمتنان الحقيقي للمنعم عليه بهذه النعم الجزيلة والجليلة، فيكون شكره صورياً، ومجرد لقلقة لسان.

الحمد والثناء والشكر:

قلنا في تفسير سورة الفاتحة، وفي مواضع أخرى: إن هناك ثلاثة عناوين هي:

1 ـ المدح وهو مجرد الثناء وذكر المحاسن والمزايا، سواء أكان المادح منتفعاً بها، أو لم يكن.

2 ـ الحمد، وهو ـ كما قالوا ـ الثناء على الفاعل لأجل فعله الإختياري. فهو أخص من المدح، وقد قلنا: إن هذا التعريف غير صحيح، لقوله تعالى: (**الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ**

فِي الْمُلْكِ)(1). فإن هذه الأمور ليست من الأفعال أصلاً، فضلاً عن أن يقال: هي اختيارية، أو غير اختيارية.

3 ـ الشكر: وهو الثناء على المنعم، بسبب النعمة، ثناءً يظهر حالة الإمتنان والعرفان لدى المادح.

والسؤال هنا هو:

إن كل من نال نفعاً من شخص آخر يشعر بالإمتنان له، ويثني عليه بسبب ذلك فما الذي ميز نوحاً «عليه السلام» عن غيره، ليستحق التنويه والثناء؟!

ونجيب:

بأن أول درجات المعرفة هي المعرفة الحسية، وهي أن تلمس وتسمع وتذوق، وتشم، وترى، وهي التي ينسجم الإنسان معها، ويسكن إليها، ويطمئن لنتائجها، لأنها تحقق الصلة بالنفس والروح بصورة تلقائية.

وبعدها تأتي المعرفة الوجدانية والضميرية التي تمثل غور الأمر الحسي والتصوري والعقلي في أعماق النفس والروح، لتحوله إلى وجدان وضمير، بصورة عفوية وتلقائية، لأن كل معرفة، حسية كانت، أو تصورات عقلية، أو وجدانية هي رهن بمدى تأثر الروح والنفس بها، وتفاعلها معها.

---

(1) الآية 111 من سورة الإسراء.

فمثلاً الكثيرون تتكون لديهم قناعة بوجود الإله، ولكنهم لا يوظفون هذه القناعة بصورة صحيحة وسليمة. بل هم يشركون معه غيره في التدبير والتصرف، فيرون أن المؤثر مثلاً هو المطر والهواء، والتراب والماء، ويشركون معه الطبيب والنجار، وكل المخلوقات قال تعالى: **(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)**[1].

وروي عن أبي عبد الله «عليه السلام» قوله: إن الشرك أخفى من دبيب النمل[2].

فمعرفة بعض الناس بالله معرفة خاوية من أي مضمون، فهي تشبه معرفتهم بأن الاثنين نصف الأربعة، وبأن الأربعة زوج. فإن هذه المعرفة ليس لها حضور في سلوكهم، وفي سياساتهم، وفي مواقفهم، بل هي محض تصورات في مخيلتهم لم توفق للدخول إلى قلوبهم، ولم تسيطر على شيء فيهم، فليست لها أية سلطة على قلوبهم ومشاعرهم، ولم تصل إلى وجدانهم وضميرهم، فليس الله تعالى هو العين التي يرون بها، والأذن التي يسمعون بها، واللسان الذي يتكلمون به، بل هو بعيد منهم، وكأنهم لا يعرفونه، ولا سمعوا باسمه سبحانه.

---

(1) الآية 106 من سورة يوسف.

(2) معاني الأخبار ص379 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج5 ص99 و (الإسلامية) ج3 ص409 وبحار الأنوار ج68 ص142 وج69 ص96 ومستدرك سفينة البحار ج5 ص398 وميزان الحكمة ج2 ص1438.

فمن يكون هكذا لا يمكن أن يكون شاكراً، لأن معرفته بالله وبنعمه لم تتجاوز مخيلته، ولم تصل إلى قلبه، ولا إلى وجدانه، فكيف يتحقق الشعور بالامتنان، ليعبر عن هذا الشعور بالعمل وباللسان.. لكي يسمى شاكراً، فضلاً عن أن يصير شكوراً.

وبعبارة أخرى: لا يكون الشاكر شاكراً إلا إذا عرف المنعم معرفة قلبية ووجدانية، متصلة بروحه، وبمشاعره، وأحاسيسه.. حتى لو كانت هذه المعرفة قد حصلت من خلال النعم والعطايا، والألطاف والهدايا، لأن الله تعالى لا يعرف برؤية حقيقة ذاته، بل يعرف بتجلياته من خلال بديع صنعه، وعظمة مخلوقاته، وجزيل نعمه وجليل أعطياته.

ونوح «عليه السلام» هو من أعظم الناس معرفة بالله، من خلال شعوره بوافر آلائه، وبجليل نعمه، التي تدل كلها على أسمائه وصفاته.

ولا حاجة إلى التذكير بأن نعمه تعالى يستحيل إحصاؤها، بل إدراكها. فإن كل ما حولنا، بل كل ما في هذا الوجود، وما في السماوات والأرض مسخر لأجل هذا الإنسان، وعامل في خدمته، وتلبية حاجاته، أو له نشاط وأثر من نوع ما في ذلك، وإن قصرت أفهامنا عن معرفته. بل لو اطلعنا على طرف ضئيل من أنشطة ما في جسدنا من خلايا، وأجهزة وما لها من وظائف، لرأينا ما يذهل العقول، وتطيش له الألباب، وقد قال تعالى: **(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا**

تُحْصُوهَا)(1).

وخلاصة الأمر: إن الشكورية هنا تستبطن أموراً:

أحدها: عمق التفاعل والإحساس ورهافته.

الثاني: الامتلاء بالقيم، والأخلاق، والنبل، والشعور بالكرامة والشهامة، وما إلى ذلك.

الثالث: المعرفة الواسعة بالأمور ومناشئها وأحوالها، وآثارها والمعرفة أيضاً بالنعم، وبالمنعم..

فكثرة شكر نوح «عليه السلام»، أو شدة رسوخ وعمق إحساسه بالامتنان لنعم الله التي لا تنتهي، تدل على مدى معرفته به تعالى، وعلى عمق ورسوخ هذه المعرفة، التي كان لهذه النعم بعض الأثر في حصولها، لأنه «عليه السلام» كان يعرف هذه النعم معرفة حسية مباشرة، ولكل طرقها الموصلة إلى معرفتها، من خلال الوسائل المناسبة لها.

وهذا يدل من جهة أخرى على مدى سعة علم نوح «عليه السلام»، وعلى أن لديه قدرات فائقة في مجالات الفهم والتعقل والتمييز والتدبر، والوعي والتحليل للأمور، ومناشئها، وغاياتها، وما لها من آثار، وما فيها من أسرار، وتعني أيضاً عمق معرفته بالمشكور، وبكيفيات الشكر، وما إلى ذلك من كمالات نفسانية تدعوه

---

(1) الآية 34 من سورة إبراهيم.

للقيام بالواجب، وتذكي لديه الشعور بالعرفان والامتنان.

فمثلاً إذا كانت النعمة هي فعل وفيض وعطاء، فذلك يعني: أنها تعطي صورة عن الفاعل، فهي تشير إلى أن لديه قدرة على الفعل، ومعرفة وعلم، وحكمة، ورحمة، ورأفة، وتدبير، وحياة، وما إلى ذلك.

الباب الثاني:

الإســراء في ســـورة الإســراء..

الفصل الأول:

بنو إسرائيل: إفسادان.. وعلو كبير..

(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا)

الإفساد والعلو الكبير:

وبعد أن بين سبحانه أنه آتى موسى «عليه السلام» الكتاب، وجعله هدى لبني إسرائيل. وأوضح لهم: أن عنصر الهداية الأهم في ذلك الكتاب هو أن يلتزموا خط التوحيد، وأن لا يتخذوا من دون الله وكيلاً.

وبعد أن بين أنه تعالى أراد أن يري نبيه طرفاً من آياته، لأنه النبي الأعظم والأشرف، والأفضل، والأجل عنده مقاماً والأسمى موقعاً.. وهو الشاهد على الأنبياء، وعلى أمته، وهو الذي لولاه لما استحقت الكائنات أن تخلق..

نعم.. بعد هذا وسواه مما تقدمت بعض الإشارات إليه، أخبر عما سوف يجري لبني إسرائيل في المستقبل من إفساد في الأرض، وعلو كبير، ليبين للناس إلى يوم القيامة، إحدى الآيات الكبرى الأخرى، التي من شأنها أن تهدي الناس إلى الحق.. وهي إخباره تعالى بأمر

غيبي يعنيهم في الصميم، وهو: أن هؤلاء القوم ـ أعني بني إسرائيل ـ سوف يكونون برغم جهود نبي الله موسى «عليه السلام»، ومعه سائر الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى إليهم، وبرغم كل ما توفر لهم من نعم وهبات، وما عاينوه من كرامات ومعجزات، وما حباهم الله به من تفضلات.

نعم.. برغم ذلك كله لم يقلعوا، ولن يقلعوا عن غيهم، ولن يثوبوا إلى رشدهم، ولم ينتفعوا بذلك كله، بل أصروا على التمرد والعصيان، وطاعة الشيطان، وسيبقون على هذا الحال في المستقبل، حملة لألوية الضلال، ورواد فساد وإفساد، وأعلام علو واستكبار..

إن هذا الخبر الغيبي من شأنه أن يكون له أثر كبير في حفظ إيمان الناس في المستقبل، وفي الدلالة على صحة وصوابية كل ما جاء في القرآن، وعلى أنه وحي منزل، ومعجزة خالدة.

كما أن هذا الخبر الغيبي يفهم الناس: أن عليهم أن لا يصابوا باليأس والإحباط، وهم يواجهون كل هذا الاستكبار، والفساد والإفساد الإسرائيلي في الأرض.

كما أن عليهم أن لا يتأثروا بجبروت قوى الاستكبار العالمي من حولهم، وأن لا يرعبهم جبروتهم العسكري والإقتصادي، والإعلامي، والسياسي، والأمني، وسائر أنواع الجبروت الظالم، والغاشم..

إن هذا الخبر الغيبي دليل حسي على صحة أطروحتهم، وصدق نبيهم، وحقانية قرآنهم. وهذا الإخبار رحمة عظيمة منه تعالى بأهل

الإيمان، وهو يمثل هداية حسية ملموسة ومشاهدة لهم بأم العين، ومن دون حاجة إلى تحليل وحسابات، وترتيب مقدمات نظرية، وجمع شواهد، وتدبيج خطب، وما إلى لك.. فإن كل إنسان يستطيع أن يعاين صدق هذا الخبر مباشرة، مع أنه قد صدر قبل حوالي ألف وأربع مئة وأربعين سنة. ولن يجد مناصاً من الوقفة أمام وجدانه وضميره، ومن دون استكبار أو جحود، ليرى إن كان يحق له بعد هذا أن يشكك في كون القرآن وحياً إلهياً صحيحاً وصادقاً..

وإدراك صدق هذا الخبر لا يحتاج إلى علم عميق باللغة، ولا إلى اعتراف بالله وتوحيده، أو بنبوة محمد «صلى الله عليه وآله».. بل هو أمر يفرض نفسه على الإنسان المنصف، الباحث عن الحق والحقيقة.

كثرة المؤكدات على الوقوع:

إن مراجعة الآيات الخمس ـ أو الست ـ التي تحدثت عن إفساد بني إسرائيل في الأرض مرتين وعلوهم، ثم ما يجري لهم في هذا السياق تعطي: أنه تعالى قد أكد على حصول هذا الأمر بكل جزئياته وتفاصيله، ربما في أكثر من ستين إلى سبعين مؤكداً.

ولعل السبب في ذلك: هو أن ثمة حرصاً أكيداً، وظاهراً على وصول الإنسان المؤمن بالقناعة بمضمونها إلى أقصى حد من اليقين يمكن بلوغه، وإخراج هذا الأمر عن قابلية التشكيك، أو إثارة الشبهة حوله.

وهذه التأكيدات تدل على حجم الثقة بحصول هذا الأمر، وعلى أن المطلوب هو كسر حاجز العناد والمناعة والمقاومة لدى الذين يروق لهم أن يحسنوا الظن، ويتأثرون بمظاهر حالة البراءة، وطهارة الذيل التي يبديها المكَّارون والمفسدون.

حتمية الحصول:

ولا نريد أن نقف عند الواو في **(وَقَضَيْنَا)**، هل هي عاطفة أو استئنافية، لأن ما يهمنا هو أن نلمح إلى الربط بين مضامين هذه الآية والآيات السابقة، وقد تقدمت الإشارة إلى هذا الأمر..

أما قوله: **(قَضَيْنَا)**، فهو:

أولاً: تأكيد قوي وحاسم لما يأتي بعده، من حيث أن فيه استفادة من مادة قضى، الدالة على البت والحسم والحتم.

ثانياً: ليس المراد بالقضاء هنا إصدار الحكم، وإنما يراد به أن حتمية الوقوع من حيث رؤية الأسباب والشرائط متوافرة.

ولعلك تقول: هل كانت هذه الأسباب متوافرة حين صدور الخطاب؟! وما الشاهد، وما الدليل؟! وكيف؟!

ونجيب:

بأن هذا من مفردات الإخبار عن الغيب، ولكن ليس على سبيل التظني والتكهن، لأن المخبر هو علام الغيوب.. الذي يبطل عنده الزمان الماضي والحاضر والمستقبل، لأن علمه شهودي، فالمستقبل حاضر عنده ـ كما هو حال الزمن الحال ـ فهو إخبار حتمي بهذا المعنى.

ثالثاً: إنه تعالى يريد أن يخبر عن أن الحتمية في هذا المورد على أن السنن التي وضعها سبحانه في كل هذا الوجود، ومنها قانون

التسبيب والعلية، تحتم حصول هذا الأمر.. لأن تأثير هذه القوانين والسنن قائم ومستمر.

ومن المعلوم: أن العلة إذا وجدت وتكاملت عناصرها، فإنها تنبئ عن حتمية وجود المعلول..

القضاء هنا إبلاغ:

وقد قال تعالى: **(قَضَيْنَا إِلَى)**، ولم يقل: قضينا على، لأن كلمة «على» تعطي لكلمة «قضى» معنى إصدار الحكم. أما كلمة «إلى» فإنها تفيد معنى الإيصال والإبلاغ. أي أننا أبلغنا بني إسرائيل، وقد انتهى اليهم هذا البلاغ، وتسلموه، وهو أمر مقضي محتم، من حيث تمامية عناصر علة وجوده..

قضاء لا ينافي الاختيار:

فظهر مما تقدم: أن هذا القضاء لا يصادم اختيار بني إسرائيل، ولا يجعلهم مجبرين على الفعل، لأن الحتمية نتجت عن اختيارهم وفعلهم الواقع في سلسلة العلل والأسباب المباشرة. وليس فعلهم مرهوناً بهذا القضاء، ولا متوقف عليه، لأن القضاء المحتم نتج عن حصول الاختيار، الذي هيأ أسباب الفعل، فصار الفعل حتمياً بذلك..

فالحتمية لاحقة للاختيار، وهي من نتائجه، وليست سابقة عليه، ليكون هو من نتائجها.. والذي صنعه الله تعالى في هذه الآية هو مجرد الحكاية عن هذا الواقع بحكم علمه به.. فهو مثل ما لو أخبرك

الطبيب المتمرس بأن هذا المريض إن أكل كذا فسيحصل له كذا حتماً وجزماً..

قوله تعالى: (**إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ**)..

اليهود أم بنو إسرائيل؟!:

وهنا سؤالان:

الأول يقول: لماذا يتحدث هنا عن خصوص بني إسرائيل، ولم يتحدث عن اليهود عموماً؟! فإن اليهودي قد لا يكون من بني إسرائيل أيضاً؟!

السؤال الثاني: لماذا لم يقل: قضينا إلى الإسرائيليين مثلاً؟! فما الفرق بين كلمتي: «بني إسرائيل» و «الإسرائيلين»؟!

ونجيب:

أولاً: إن بني إسرائيل، وهم أبناء يعقوب، هم الرمز والمحور القوي، والأساس، والحساس فيهم، وهم الأبعد أثراً في تحريك عامة اليهود. ولعلهم الأكثر خبرة بحقيقة الدعوة اليهودية، وهم الأقوى نفوذاً فيهم، والمخططون الحقيقيون، وأصحاب القرار في كل ما يمارسه اليهود بما هم عليه من بغي وظلم، وضلال، وتزوير الحقائق، ومكر وخداع، وجحود واستكبار، وعتو وعلو..

وربما كان من أهم ما يدعوهم إلى المكر واللجاج والعناد: هو عصبيتهم لعشيرتهم، وحرصهم على ربط الناس بهم، والحصول على الدنيا عن هذا الطريق.

على أنه لا مجال لإنكار تأثر الأجيال اللاحقة بالسابقة، ولاسيما إذا كانوا من عرق واحد، وعشيرة واحدة.. فيرثون من عاداتهم، ومن

أخلاقهم، وخصالهم، وسياساتهم، وأساليبهم، وغير ذلك.

أما اليهودية، فهي دين لعقائده وتعاليمه آثارها الخاصة بها، ويسخرها بنو إسرائيل لخدمة مصالحهم، ويتلاعبون بها حسب أهوائهم، فمن آثار هذه التعاليم والإعتقادات عداوتهم لأهل الإيمان، ولذلك قال تعالى: **(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا)(1)**.

ثانياً: بالنسة للسؤال الثاني نقول:

لو أنه قال: قضينا إلى الإسرائيليين لفاتت خصوصية النسب التي هي المحور والسبب الأهم، لأنها مُرتكز عصبيتهم، وسبب سعيهم لحفظ هذه الإمتيازات الدينية.. وذكر هذه الخصوصية مهم جداً هنا، لأنها بمثابة الدليل، أو فقل هي بمثابة الجهة التعليلية لحرصهم على الضلال والإضلال..

ثالثاً: لو قال: الإسرائيليون، فإنها تعني كل من له أدنى رابطة ببني إسرائيل، فتشمل من يكون إسرائيلياً في فكره، أو في انتمائه النسبي، أو السياسي، أو من كان متعاطفاً معهم، ومؤيداً لقضاياهم، ولو لم يكن بينه وبينهم صلة نسبية أصلاً.

رابعاً: لو قال: قضينا إلى اليهود، فربما توهم: أن دين اليهود قد أسهم في تنمية روح الإفساد فيهم، فإذا كان هناك من لا يفرق بين

(1) الآية 82 من سورة المائدة.

الدين المحرف والمزور الذي يتعاملون به.. وبين الذي جاء به موسى «عليه السلام» من عند الله. فإنه سوف ينتهي الى أن دين الله كان له نصيب في هذا الإفساد.

وهذا توهم مرفوض، ولا بد من رصده، وإبطاله، والله تعالى لا يريد أن يفسح المجال لاحتمالات كهذه، وإن أمكن إبطالها بالدليل والبرهان.. إذ لعل أحداً لم يصله هذا الدليل، أو لم يفهم معانيه ومراميه، أو دعاه خبث سريرته إلى استغلال هذا الأمر في تشويه الدين وأهله..

فإن قيل: وما المانع من ذلك؟! ألم يتكلم الله تعالى بالمتشابه في موارد أخرى، كقوله: **(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)**(1). وقوله تعالى: **(يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)**(2). وغير ذلك مما يوهم التجسيم الإلهي، الذي لا ريب في بطلانه؟!

ونجيب:

بأن ثمة حاجة ماسة لاستعمال القرآن لأنواع المجازات والكنايات والاستعارات، والاستفادة من كل طاقات اللغة العربية على تحمل المعاني، بأي نحو من أنحاء التحمل.

والذي يفرض ذلك: عظمة، ودقة، وكثرة المعاني،

---

(1) الآية 5 من سورة طه.

(2) الآية 10 من سورة الفتح.

وخصوصياتها، وامتدادها على مساحات الأجيال والأمم، واستيعابها لحاجاتها ومعارفها، وكل ما يعنيها إلى يوم القيامة..

وهذه المجازات والاستعارات قد وردت في كلام الله تعالى هنا في هذه الأمثلة الواردة في السؤال، وقد اعتماد فيها على القرائن الظاهرة، وعلى الدليل العقلي القاطع المزيل لأية شبهة، وعلى التصريح القرآني بما يدل على نفي التجسيم.. ولأنه يريد أن يسمو بأفهام الناس إلى مراتب تعينهم على نيل المعاني الدقيقة والراقية.. فكانت هذه الآيات مفتاحاً لأبواب المعرفة أمام الناس، لإيقافهم على هذه الحقيقة. والذي سمح بذلك وجود ما يوجب الأمن من أي خلل أو خطأ في الفهم كما قلنا.

ولعله تعالى كان يريد أن يجعل ذلك ذريعة لتصحيح عقيدة الناس، وإبعاد شبح التجسيم عنها. ولكن الأمر هنا فيما يرتبط باليهود وبني إسرائيل ليس كذلك.. فإنه ليس ثمة ما يبرر التبرع بتعابير تفسح المجال لأوهام تحمل إلينا المتاعب. من دون أي مبرر، فإن هناك تعابير مأمونة، ومصونة عن تطرق هذه الأوهام، فلماذا نسلك الطريق الوعر، المحفوف بالألغام، ونترك الطريق السوي، الذي لا تعب فيه ولا نصب؟!

ولعلك تقول: إن هذا الجواب غير مقنع، فإن الآية نفسها تدفعه، لأنها قالت: **(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ)**. فكلمة في الكتاب تدل على أن الدين له دوره في هذا الإفساد، ولأجل ذلك سجله الله

تعالى في كتاب أنزله لهداية البشر.

ونجيب:

بأن تسجيل خبر غيبي عن قوم مفسدين وضالين لا يعني أن تعاليم الدين هي السبب في ضلالهم وفسادهم. بل هذا التسجيل يريد أن يدين هؤلاء الناس، ويحملهم كامل المسؤولية عن ضلالهم، ويعلن بأن الله تعالى قد أقام الحجة عليهم، وأرشدهم إلى الحق والصواب، فاختاروا طريق الضلال..

لماذا لم ينسب الكتاب إلى بني إسرائيل؟!:

ولكي نفهم قوله تعالى: **(فِي الْكِتَابِ)** نحتاج إلى طرح السؤال التالي:

لماذا لم ينسب الكتاب إلى بني إسرائيل؟!:

والجواب عنه:

أنه تعالى لم ينسب الكتاب إلى بني إسرائيل، بل ذكره بصيغة لا تأبى الانطباق عليهم، ولا تأبى النفي عنهم. فلم يعلم إن كان هذا الكتاب قد أعطي لبني إسرائيل، أم أنه كتاب للبشر جميعاً، ومنهم بنو إسرائيل؟!

وقد يجاب عن هذا:

ألف: إن شاهد الحال، يدل على أنه لبني إسرائيل أولاً وبالذات، لأن موسى «عليه السلام» مرسل إليهم، لا إلى جميع الناس.. والاعتماد على قرينة الحال مقبول ومعقول.

ب: إن الآية المتقدمة قد صرحت: بأن الله تعالى قد جعل هذا الكتاب هدى لبني إسرائيل. وقد قلنا فيما سبق: إنه تعالى أراد أن لا يعطي لبني إسرائيل أي نوع من أنواع التشريف والتكريم، بعد أن ظهر جحودهم، وإمعانهم في الضلال والكفر بصورة لا يمكن أن تحصل من أي شعب يحظى بكل هذه الهدايات، ويرى هذه الكرامات والمعجزات، وتكون له كل هذه الرعاية، وهذا الجهد، وهذه

التضحيات التي قدمها لهم نبي الله موسى «عليه السلام»..

لماذا اختص بنو إسرائيل بكل ذلك؟!:

غير أن هناك حقيقة لا يمكن تجاهلها، وهي: أن بني إسرائيل كانوا في قبضة فرعون، وكانوا الفئة التي يمكن مخاطبتها، وتوعيتها على واقعها، ويمكن التأثير عليها للقيام بتحرك يؤدي إلى تخليصها من بغي فرعون، وكف يده عن ظلمهم، لأنهم كانوا يعيشون في النقطة الحساسة، والمركزية، والمحورية للنشاط والتجارة، والذهاب والإياب في الممالك المختلفة في آسيا وأفريقيا، ولهم تأثيرهم، وموقعهم الأمثل في المجتمع البشري في تلك الحقبة.

وكانوا في تلك الفترة أيضاً يمتلكون القوة الضاربة عسكرياً واقتصادياً، ولديهم النفوذ الواسع، والملك العريض.

والأهم من ذلك: أنهم قد عاشوا مع الأنبياء وفي محيطهم انطلقت دعواتهم لهداية البشر..

فهم النقطة الصالحة لانطلاقة الدعوة.. وما يعانون منه من عاهات كان يمكن التعامل معه بطريقة إيجابية، لأنهم كانت لديهم مبادئ الثقافة الدينية، التي تسهّل على الداعي مهمته في تعريفهم على معالجات تلك العاهات التي يعانون منها، وإقامة الحجة عليهم في لزوم التخلي عنها والتخلص منها.

والمفترض، أو المتوقع من شعب قد عانى مع فرعون في استكباره، وفي عتوه وعلوه، وادعائه الربوبية، وظلمه الفاحش لهم،

ما عاناه بنو إسرائيل ـ المفترض ـ أن يكون ذلك من أسباب اقتناعهم بلزوم التصدي لذلك الطاغوت، والسعي إلى التخلص من هذا الواقع المزري الذي يجدون أنفسهم فيه.

وهذا ما حصل فعلاً. فقد استجابوا لموسى «عليه السلام» بعض الشيء. وإن كانوا قد أذاقوه الأمرَّين بسبب تقلباتهم السريعة، حيث كانوا يعودون إلى الكفر والضلال، والمكر والاحتيال، والفساد والإفساد كلما سنحت لهم الفرصة. وتاريخهم الطويل أصدق شاهد على تقلبات أحوالهم.

الفساد فرع الإفساد:

ثم قال تعالى: **(لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ)**.

وهذه الكلمات تعطي: أن درجة من الصلاح سوف تكون سائدة في الأرض، ولكن بني إسرائيل سوف يبدلونها بالفساد، وليس المراد: أن الأرض ستكون ممتلئة صلاحاً، فإن ذلك لم يحصل سابقاً، ولن يحصل إلا بظهور الإمام الحجة «صلوات الله وسلامه عليه»..

بل المراد: أن الحياة لا تستقيم مع هيمنة الفساد وشيوعه بصورة فاحشة، فلا بد من توفر قدر من الصلاح يعطي الفرصة لعامة الناس لممارسة حياتهم بصورة طبيعية، مع استدراج قدر من الحماية لهم من آثار ذلك الفساد الضارب في بعض مجالات الحياة العامة.

الصلاح هو الأساس:

وربما يمكن استفادة أمر آخر من هذه الآية المباركة، وهو: أن المفروض هو أن يكون الصلاح هو الأساس والقاعدة، والأصل الثابت في مختلف المجالات، وفي جميع الحالات، فإن الله تعالى خلق الكون على حالة الصلاح في بادئ الأمر، ثم تبدأ عوامل الفساد بالتأثير فيه، فالإفساد هو الغريب الوافد الذي يجب طرده، والتخلص منه.

ومن جهة أخرى نلاحظ: أن الصلاح هو من المفردات القرآنية الأساسية، فهو يثني على الأنبياء بإسباغ صفة الصلاح عليهم، وهو يرى أن الإلتزام بالتوجيهات الإلهية أعمال صالحة..

وهذا يدل على أن موارد تدخل الشريعة لجعل حكم، أو لتكريس سلوك معين، إنما هو لتوخي ترميم مواضع الخلل، أو لأجل سد الفراغات التي ربما تحتاج إلى ذلك بفعل حركة حياة الناس، وتقلبات الأمور، لكي تبقى المنظومة الكونية على النسق السليم الذي يفترض أن تكون عليه، ولها نفس الفعالية في أداء الوظائف، أو في تلبية الحاجات التي ربما تطلَّب الأمر تلبيتها.

أي إفساد يراد؟!:

وقد يسأل سائل عن طبيعة الإفساد الذي سوف يمارسه بنو إسرائيل في الأرض..

ويجاب:

بأن المقصود هو مختلف أنواع الفساد التي تصل إليها أيديهم، فهم يفسدون أمن الناس، وأخلاقهم، ودينهم، وعلومهم، ومعارفهم، وعقولهم، وسياساتهم، ومدارسهم، وأبناءهم، وزراعتهم.. وكل شيء يقدرون عليه..

وطبيعي: أن الفساد إذا حلَّ في مورد، فإن العدوى به تمتد إلى غيره مما له صلة بذلك المورد. وقد ذكرنا في بعض الموارد أن أثر المعاصي والطاعات لا يقتصر على مجرد الجرأة على المولى وينتهي الأمر، بل تتعدى ذلك لتترك آثارها على كثير من الأشياء الأخرى، على الشجر والحجر، والهواء والماء. وقد ورد: أن للذنوب روائح، وأشكالاً وصوراً يظهر للإنسان شطر منها في عالم البرزخ.

وللمعاصي والطاعات تأثيرات في الحياة والموت، فمثلاً صلة الرحم تطيل العمر، وقطع الرحم يقصره[1].. كما أنه إذا كثر الزنا

---

(1) الأمالي للطوسي ص480 وحاشية رد المحتار ج6 ص732 وقرب الإسناد ص355 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج21 ص537 و (الإسلامية) ج15 ص246 ومستدرك الوسائل ج15 ص241 والفصول المهمة للحر العاملي ج1 ص269 وبحار الأنوار ج4 ص121 وج5 ص141 وج47 ص163 وج47 ص206 وج71 ص93 و 99 والبرهان (تفسير) ج3 ص267 و 271 وتفسير العياشي ج2 ص220.

كثر موت الفجأة(1)، بل لقد قال سبحانه: **(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)**(2).

وقال: **(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)**(3).

وقد قالت السيدة زينب «عليها السلام» عما جرى في كربلاء: «أفعجبتم أن مطرت السماء دماً»؟!(4).

---

(1) الكافي ج2 ص374 وج5 ص541 والأمالي للصدوق ص385 وثواب الأعمال للصدوق ص252 وعلل الشرائع ج2 ص584 وتحف العقول ص51 والوافي ج5 ص1040 وج15 ص210 وهداية الأمة إلى أحكام الأئمة ج7 ص149 والمحاسن للبرقي ج1 ص107 وروضة الواعظين ص420 و 463 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج16 ص273 وج20 ص307 و (الإسلامية) ج11 ص513 وج14 ص231 ومستدرك الوسائل ج9 ص107 وبحار الأنوار ج70 ص369 و 372 وج76 ص23 و 27 وج88 ص328 وج97 ص45 و 46 و 72 وج100 ص107 ومرآة العقول ج11 ص72.

(2) الآية 41 من سورة الروم.

(3) الآية 96 من سورة الأعراف.

(4) اللهوف ص64 و 65 و (ط أنوار الهدى ـ قم ـ إيران سنة 1417هـ) ص87 ولواعج الأشجان ص201 وقاموس الرجال (مؤسسة النشر الإسلامي) ج12 ص269 والدر النظيم ص560 وراجع: الإحتجاج ج2

وقد تمنع السماء بركاتها بسبب المعاصي.

فإطلاق كلمة الإفساد مرتين في الأرض، حيث لم يقيد بكونه إفساداً بين الناس، أو للدين، أو للإخلاق، أو.. أو.. يدل على أن المراد به المعنى الأوسع كما قلنا.

والخلاصة: أن هذا الصلاح يحفظ لكل المخلوقات صورتها وحركتها المثلى، التي توصل إلى الأهداف المتوخاة منها. ففي أي نقطة تعرضت هذه الصورة، أو تلك الحركة للإختلال، اعتبر هذا فساداً وإفساداً. سواء حصل ذلك في الأخلاق أو في القيم، أو في السياسات، أو في الشجر، أو الحجر، أو الماء، أو الهواء، أو أي شيء آخر.

الحكمة تجسِّد معنى الصلاح:

ويمكن القول: إن الحكمة التي يسعى الأنبياء لتعليمها للناس هي التي تحمل لنا معها تجسيد معنى الصلاح، الناتج عن وضع الأمر الصالح في الموقع الصالح.. فقد قال تعالى: **(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي**

ص31 وبحار الأنوار ج45 ص109 و 163 و 165 والعوالم، الإمام الحسين ص378 والأمالي للمفيد ص323 و 369 و 372 و 378 والأمالي للطوسي ص93 ومناقب آل أبي طالب (ط المكتبة الحيدرية) ج3 ص262 وبلاغات النساء ص24 وتاريخ الكوفة ص294 وكتاب الفتوح لابن أعثم ج5 ص121.

الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)(1).

فتلاوة الآيات، وتذكير الناس بها إنما هو لمواجهة العقل الذي أراده الله نعمة للبشر، فاتخذوه مطية لأهوائهم وشهواتهم، واتخذوا منه طاغوتاً يعبد من دون الله، وأعطوه، وهو المخلوق العاجز الضعيف، القاصر حق التشريع، وحق التخطئة والتصويب، حتى للذات الإلهية، وتعاظم به الغرور والادعاء حتى لا يرغب بالإعتراف بوجود أي شيء أقوى وأجدر منه بالقيادة والريادة، ولا يعترف بأنه لدى غيره ما يكفي للرعاية والهداية.

فمن وظيفة الرسل:

أولاً: أن يضعوا الناس في مواجهة هذه الآيات، لكي يحدوا من طموح، ويكبحوا جماح عقولهم القاصرة، ويمنعوها من التوثب على ما ليس لها، مما ليس لها سبيل إلى معرفة حقيقته، واستكناه أسراره، والوقوف على دخيلته، وسبر أغواره.

ثانياً: تزكية الناس، بتصفية نفوسهم، وتنقية قلوبهم من الشوائب التي علقت بها نتيجة الإنقياد للشهوات، أو المعاشرات، أو الوراثات، أو ما إلى ذلك.

ليمكن غرس شجرة مكارم الأخلاق في النفوس، ولكي يؤتي

---

(1) الآية 2 من سورة الجمعة.

زرع المعرفة حقه يوم حصاده، فينتج الرقي والسمو، والمجد الباذخ في بناء صرح الإنسانية الشامخ، الذي يتبلور جداً وجهاداً وكدحاً إلى الله بخطى ثابتة، وبإصرار وهمة واقتدار.

ثالثاً: تعليم الكتاب، لأنه هو الذي يعطى الضوابط، والمعايير والقيمة الأخلاقية، والقواعد الإعتقادية والإيمانية، التي لا بد منها في غرس تلك الشجرة، وإنماء ذلك الزرع.

رابعاً: تعليم الحكمة التي هي التعريف، ولو بصورة تدريجية على الخريطة الصحيحة للحياة المتناغمة مع عالم التكوين، وتحديد المعالم الصحيحة للنمط العام، لكي يمكن من خلال ذلك الإرشاد إلى العمل الصالح، الذي يكون به سد ثغراته، وإصلاح تهتكاته، التي تنشأ من العدوان عليه بقصد، أو بغير قصد. شرط أن يتم من دون تفريط أو إفراط على قاعدة: **(وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)**[(1)]. **(ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى)**[(2)].

ومن الطبيعي: أن العالم بحقائق الصنع، ودقائقه، والواقف على أسراره هو الذي يحدد الصالح والمنسجم مع هدف التكوين من غيره. ولذا احتاجت الحكمة إلى التعليم من الله سبحانه.

أما عقولنا القاصرة، فلا سبيل لها إلى ذلك، لقوله تعالى: **(يَعْلَمُونَ**

---

(1) الآية 2 من سورة الجمعة.

(2) الآية 40 من سورة طه.

ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)(1).

فإذا كنا لا نعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، مع أننا ندَّعي أن ذلك مشاهد لنا وملموس، ومحسوس ـ ويلاحظ: أن تنكير كلمة «ظاهراً» إنما هو لإفادة أن ما نعرفه هو ظاهر شديد الضآلة والتفاهة أيضاً ـ فما بالك بالبواطن والأسرار، فضلاً عن أن نعرف شيئاً من الآخرة الغائبة عنا بكل أسرارها، وظواهرها وبواطنها.. **(وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)**(2). وكيف لنا أن نعلم أيضاً بطبيعة ارتباطاتها بالحياة الدنيا؟! أو أن نعرف شيئاً من ظواهرها، فضلاً عما عدا ذلك؟!

ومن جهة أخرى، فقد قال أمير المؤمنين «عليه السلام»: إن كلام الحكماء إذا كان صواباً كان دواءً، وإذا كان خطأً كان داء(3).

وهذا أمر طبيعي، فإن هذه الزيادة بالإضافة إلى أنها لن تؤدي دورها في الصلاح سوف تصبح الزيادة، وكل ما يصدر عنه عبئاً وعائقاً، وربما أفسدت ما حولها مما كان صالحاً لولاها. وكذلك الحال إن نقصت عن المطلوب، فإن نقصها يجعل المورد بحاجة إلى متمم،

---

(1) الآية 7 من سورة الروم.

(2) الآية 64 من سورة العنكبوت.

(3) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج4 ص63 وعيون الحكم والمواعظ للواسطي ص142 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج5 ص378 وغرر الحكم ص3513.

قد يكون له طبيعة وحالات، وآثار أخرى لم يحسب لها حساب.

وذلك كله يوضح: أن الحكمة تحتاج إلى التعليم، ونحتاج إلى الحكمة في كل شيء، كالشجر والحجر، والهواء والماء، والحيوان والجماد، والبحار والأنهار، والجبال والوهاد، وفي العقائد والأخلاق، والسياسة والإقتصاد، والحرب والسلم، والإعلام وكل شيء. **(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)**.

وقد ظهر من ذلك: أن العقل غير قادر على إدراك الحقائق كلها، ولأجل ذلك قال الإمام الصادق «عليه السلام»: «يا أبان، أخذتني بالقياس، وإن السنة إذا قيست محق الدين»[1].

وذلك كله يدلنا على أن ما نعرفه عن الدين والحكمة هو أقل القليل، أما ما نعمل به، أو نسأل عنه لنعمل به، فليس إلا قطرة من بحر..

التأكيدات بالعشرات:

ولعل من المفيد تقديم نموذج عن التأكيدات التي وردت في هذه الآيات المباركة من دون استقصاء لها، وسنذكر منها التأكيدات

---

(1) بحار الأنوار ج101 ص405 والمحاسن للبرقي ص214 والكافي ج7 ص299 وتهذيب الأحكام ج10 ص184 ومن لا يحضره الفقيه ج4 ص118 و 119 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج29 ص352 و (الإسلامية) ج19 ص268 و مستدرك سفينة البحار ج10 ص271.

الإصطلاحية، والتأكيدات الضمنية المستفادة من المضامين، وخصوصياتها، فلاحظ ما يلي:

1 - (وَقَضَيْنَا): فيها تأكيد ظاهر لإفادتها حتمية حصول ما يخبر عنه..

2 - إن نسبة الفعل إلى الله يؤكد حصوله أيضاً، لأن الله تعالى فعَّال لما يريد.

3 - الإستفادة من صيغة الفعل الماضي، الدال على حصول هذا الأمر، وانقضائه.. مع أنه أمر سيحصل في المستقبل.

4 - كلمة «نا» في قوله تعالى: **(وَقَضَيْنَا)**، ولم يقل: قضى، ليدل على أن المتكلم لا يمكن أن يصدر عنه إلا ما هو حق وصدق، لأنه يتكلم من موقع العزة، ومن مقام العظمة، الذي يأبى أن يحصل أي إخلال أو اختلال في مضامين كلامه.

5 - قوله: **(فِي الْكِتَابِ)**[1] يدل على أن هذا المقضي قد كتب

---

(1) قال بعض الأخوة هنا: قد يفهم من لفظ (الْكِتَابِ) كتاب المحو والإثبات، وهذا ما يجعله عرضة للبداء.. خاصة وأنه لا يندرج تحت الوعد الإلهي اللازم التحقق. علماً بأن هذا الإفساد ناتج عن عمل بني إسرائيل. أي إنهم إن أصلحوا عملهم، أو تداركوا أخطاءهم وجب تغيير النتيجة، مثل صلة الرحم لإطالة العمر، أو صدقة السر لدفع البلاء. لأنه قد يفهم مما تقدم: أن بني إسرائيل مسلوبوا الإرادة في هذا الأمر، وأنه قد صدر الحكم الإلهي بحقهم. لا سيما وأن الوعد الإلهي شمل بعث العباد، وجوسهم خلال الديار فقط، ولم يشمل

وسجل، ولا ينسجم هذا مع عدم وقوع مضمون الخبر.

6 - إن «ال» في قوله: **(الْكِتَابِ)** هي العهدية، فهي تشير إلى كتاب معهود ومعروف للناس.. ولا شك في أنه كتاب مقدس، فالإخلال بالأخبار الغيبية الواردة فيه غير معقول ولا مقبول.. لأنه يخل بإيمان الناس. وبتقديسهم لذلك الكتاب، ولمن أنزله..

7 - **(لَتُفْسِدُنَّ)**: اللام لام التأكيد، لأنها لام القسم، والقسم من أشد أنواع التأكيد.

8 - النون في كلمة **(لَتُفْسِدُنَّ)** هي نون التأكيد الثقيلة، فكأنها بمثابة تأكيد متكرر.

9 - **(فِي الأَرْضِ)**: تحديد سعة رقعة الإفساد، يدل على الوثوق والتأكد من حصول الأمر إلى حد أنه واقف على حدوده، ومدى امتداداته.

10 - **(مَرَّتَيْنِ)**: إن الحديث عن عدد المرات شاهد آخر على هذا

إفساد بني إسرائيل. انتهى.

ونقول:

قد ذكرنا أكثر من مرة: أن التأكيدات التي تعد بالعشرات، والتي وردت في آيات يسيرة لا يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة.. والتعرض لأدق التفاصيل التي سيجري يدل على أن المقصود هو التأكيد على أن هذا الأمر ليس في معرض البداء. وأما توهم الجبرية فيما يجري، فقد أجبنا عنه أيضاً في أكثر من موضع من مواضع هذا الكتاب.

الوثوق.

11 - الحديث عما يصاحب الإفساد من حالات وأحداث، كالعلو (**وَلَتَعْلُنَّ**). وبيان تفاصيلها يدل على حصول ذلك الأمر حتمي.

12 - (**وَلَتَعْلُنَّ**): اللام للتأكيد، لأنها لام القسم، والقسم من أشد أنواع التأكيد.

13 - نون التوكيد الثقيلة تدل على مضاعفة التأكيد..

14 - (**عُلُوًّا**): مفعول مطلق. وهو يفيد التأكيد..

15 - (**كَبِيرًا**): فيه بيان نوع العلو.. وهو يفيد التأكيد أيضاً.

16 - (**فَإِذَا**): التعقيب بالفاء المفيد لتحديد مقدار الزمان الفاصل بين الإفساد.. وبين بعث العباد، فيه معنى التأكيد أيضاً.

17 - إذا: تستعمل في مقام الجزم بالحصول.. فهي تأكيد آخر أيضاً.. فإذا قلت: إذا جاءك فلان فاعطه المفتاح، فهو يعني: أن مجيئه حتمي، أما لو قلت: إن جاءك. فهو يعني: أن مجيئه مشكوك فيه، فكأنك قلت: على تقدير مجيئه، إذا صادف مجيئه، فافعل كذا..

18 - (**جَاء**): استعمل الفعل الماضي هنا وأريد به المستقبل، مع أنه كان يمكن أن يستعمل الفعل المضارع، ولكنه عدل عنه إلى الماضي للإيحاء ولو بالشكل بأن هذا المجيء بحكم الحاصل.. ومن المعلوم: أن «إذا» تدخل على الماضي وعلى المضارع على حد سواء، وقد اجتمعا في قوله:

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

وقال تعالى: **(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى)**(1).

19 - (وَعْدُ): تأكيد آخر أيضاً، حيث لم يقل: جاء وقت، أو إذا حصلت أولاهما، ليدل على التأكد على تحققه، فأن الوعد ينتظر الوفاء.

20 - الحديث عن المرة الأولى بقوله: **(أُولاهُمَا)** يدل على الإصرار على تعدد الحصول. لدخوله في بيان امتياز كل مرة عن نظيرتها.. والدخول في التفاصيل يدل على الثقة بحصول الأمر.

21 - (بَعَثْنَا): ولم يقل: نبعث، ليدل على أن ذلك بحكم الحاصل، حتى ليصح أن يخبر عن حصوله بالفعل الماضي.

22 - نسبة الفعل، فعل البعث إلى الله سبحانه يؤكد الحصول أيضاً، لأن الله تعالى فعَّال لما يريد.

23 - إن نسبة البعث بصيغة جمع المتكلم يزيد من هذا التأكيد كما تقدم.

24 - (عَلَيْكُمْ): كان بالإمكان عدم الإتيان بهذه الكلمة، فيقول: بعثنا عباداً لنا.. ولكن ذلك قد يوهم: أنه بعثهم ليحكموا بعض البلاد، فصادف ذلك حصول حرب لكم معهم.. والمطلوب هو بيان أن كل همّ هؤلاء العباد، وكل همتهم مصروفة إلى القضاء على هؤلاء الناس

---

(1) الآيتان 1 و 2 من سورة الليل.

بخصوصهم، وهذا يؤكد حصول هذا الأمر، لأن فيه بيان لدقائق وتفاصيل وجزئيات لا يخير عنها إلا بعد حصول ما قبلها، فلم يعد الأمر مجرد خبر عن حادث قد يعرض البداء فيه، بحصول ما يمنع من حصوله..

25 - (عِبَادًا): هذا التوصيف الدقيق للمبعوثين، وبيان خصوصية الإيمان منهم يحمل معه تأكيد آخر أيضاً، لأن الإخبار عنه يأتي في سياق الإخبار عن حصول تفاصيل كثيرة قبله، فلابد من سبق حصولها بالفعل.

26 - (لَنَا): إن بيان انتسابهم في إيمانهم إلى الله لا إلى غيره هو الآخر بيان لخصوصية جديدة تؤكد حصول جميع ما سبقها، وتؤسس لحصول ما سيلحقها..

27 - إن نسبة ذلك إليه كاف في تأكيد ذلك، لأن الله لا ينسب إلى نفسه أمراً، ثم يظهر عدم صحته، أو عدم وقوعه..

28 - يضاف إلى ذلك: أنه نسبه إليه تعالى مستفيداً من ضمير جمع المتكلمين، ليؤكد أنه يتحدث من موقع عظمته وعزته، وهذا أشد تأكيداً على حصول ما يخبر به.

29 - (أُوْلِي بَأْسٍ): تأكيد جديد، لأنه خصوصية مسبوقة بتفاصيل كثيرة.

30 - (شَدِيدٍ): بيان مستوى البأس. أيضاً فيه شيء من التأكيد على النحو المتقدم..

31 - (**فَجَاسُواْ**): الفاء تدل على التعقيب بلا فصل.. وهو تفصيل جديد، وتأكيد جديد، لأنه يبين مقدار الزمان الفاصل بين البعث، وبين الجوس.

32 - بيان خصوصية وطء عباد الله لخلال الديار، وتحديد مستوى ما يكون منهم تجاه بني إسرائيل تأكيد آخر أيضاً.

33 - بيان مواضع الجوس ـ وهي خلال الديار ـ هو الآخر تأكيد آخر.

34 - (**وَكَانَ**): ليست كان زمانية، بل هي تدل على الثبوت والحصول الحتمي، فهي تأكيد جديد.

35 - (**وَعْدًا**): ولم يقل: أمراً، ليدل على حتمية حصوله، لحتمية الوفاء بالوعد.

36 - (**مَّفْعُولاً**): تأكيد صريح جديد.

37 - (**ثُمَّ**): بيان مقدار الزمان الفاصل بين بعث العباد على بني إسرائيل، وبين إعادة الكرة لبني إسرائيل على العباد. فيه تأكيد أيضاً على النحو الذي ذكرناه.. من أن هذا هو ما تقتضيه خصوصية الدخول في التفاصيل.

38 - (**رَدَدْنَا**): فيه تأكيد من حيث نسبة الرد إلى الله، الفعال لما يريد..

39 - وفيه نسبة هذا الرد إلى مقام العزة والعظمة، الذي لا

يتناسب مع التخلف وعدم الحصول.

40 - وفيه تأكيد لاستعمال صيغة الماضي الدال على الحصول، لا صيغة المضارع، أو المستقبل، الذي قد لا يمكنها التأكيد على ذلك.

41 - (وَأَمْدَدْنَاكُم): فيها العديد من التأكيدات التي تفهم مما سبق. من حيث نسبة الفعل إلى الله، ومن حيث نسبته إليه تعالى بصيغة المتكلم ومعه غيره، ومن حيث استعماله صيغة الماضي، وهي «**أَمْدَدْنَا**».

42 - (بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ): فإن بيان نوع ما أمدهم به، وحصره في أمرين، هما: المال والبنون، فيه تأكيد أيضاً، حيث ذكر أن المراد: الأبناء دون البنات، لا مطلق الذرية، وبيَّن مقدارهم، وأنهم كثيرون، فيكون قد بين الجنس والنوع والمقدار بكلمة واحدة.

43 - بيان مقدار ما أمدهم به بواسطة تنوين التنكير المفيد للتكثير..

44 - (وَجَعَلْنَاكُمْ): فيها ثلاث تأكيدات أيضاً تفهم مما ذكرناه.

45 - (أَكْثَرَ نَفِيرًا): نفس المقارنة والمفاضلة، وبيان المقدار وبيان خصوصية جديدة وتفصيل جديد، هو الآخر تأكيد جديد.

46 - «إن» الشرطية: تفيد التأكيد أيضاً، لأنها تستبطن إخباراً آخر، وهو: أنهم لن يحسنوا في المستقبل، كما سنبينه إن شاء الله..

47 - (فَإِذَا): فيها تأكيدان.

الأول: التأكيد بالتفريع بالفاء، من حيث إفادته الإخبار عن مقدار الزمان، مما يعني: أن الأمور السابقة وغيرها مما لا ريب في حصولها.

الثاني: كلمة إذا التي تستعمل حين الجزم واليقين. وقد أشرنا إليهما فيما سبق.

48 - (جَاء): تأكيد.

49 - (وَعْدُ): تأكيد آخر.

50 - اللام في **(لِيَسُووُواْ)**.. تأكيد..

وتستمر التأكيدات وتتواصل إلى آخر الآيات.. ولعلها تصل إلى سبعين تأكيداً أو تزيد. وقد وردت كلها في آيات يسيرة وقصيرة لا تصل إلى عدد أصابع اليد الواحدة.

لماذا كل هذا؟!:

ويبقى هنا سؤال: لماذا كل هذه التأكيدات؟!

ويجاب:

بأن من القريب جداً: أن يكون الهدف هو الإقناع بأن هذا الحدث واقع لا محالة، وأنه ليس مما يقع فيه البداء. فيمكن البناء عليه في مقام إثبات حقانية القرآن، وأنه وحي من عند الله سبحانه..

كما أن فيه تحذير لبني إسرائيل، وإقامة للحجة عليهم، فلعل منهم من يحذر، ويرتدع. بالإضافة إلى فوائد أخرى.

ما المراد بالأرض؟!:

ثم قال تعالى: **(فِي الأَرْضِ)**: فيرد هنا سؤال، يقول: يحتمل أن تكون الألف واللام في قوله: **(فِي الأَرْضِ)** عهدية، أي أن إفساد بني إسرائيل سوف يقتصر على الأرض التي يتواجدون فيها، ويرتبطون بها، لأجل تاريخ مضى لأسلافهم فيها، أو لأي سببب آخر. وهذه هي أرض فلسطين.

وقد يؤيد ذلك: بأن اليهود وهم قلة قليلة لن يتمكنوا من الإفساد في جميع الأرض، لأن الناس سيكونون لهم بالمرصاد.. وإن تمكنوا من ذلك، فلن يتمكنوا من العلو الكبير.

ويحتمل أن المقصود بالأرض ما يشمل فلسطين، وغيرها. وذلك استناداً إلى إطلاق الكلام، الظاهر في أن إفسادهم سيشمل الأرض كلها..

ويبدو لنا: أن هذا هو الأقوى، إن لم يكن هو الأصوب. انسجاماً مع إطلاق الكلام، ولأن الاحتمال الأول لا شاهد له إلا الاستبعاد، وهو لا يصلح شاهداً كما سنرى.

وقد يقال: إن ذلك لو كان هو المراد، فإن بني إسرائيل سيقضى عليهم بسرعة، لأنهم سيواجهون ممانعة قوية من سائر شعوب الأرض، مع قلة عددهم، وضعف عدتهم، لا سيما مع ذلتهم، ومسكنتهم التي ضربت عليهم.

ونجيب بما يلي:

إن الإفساد لا يعني الإعلان بالمواجهة، لأنه قد يحصل بدس الدسائس، وتجنيد المرتزقة، والاستفادة من جماعات صغيرة متناثرة ترفع شعارات براقة، وتمارس في الخفاء إفساد المجتمعات بالمخدرات، وإشاعة الفاحشة، وتخريب القيم والمفاهيم في أذهان الناس، وإفساد الأخلاق بالمغريات والمفاسد والشهوات، وإساءة الظن بالمخلصين، وتمزيق البلاد والعباد بالعداوات والحروب، والعصبيات، والتناحر، والتدابر، وتمكين الأشرار من التحكم برقاب الأخيار، إلى آخر القائمة التي تطول، وتطول جداً. ونشهد في عصرنا الحاضر فصولاً كثيرة منها يشيب لها شعر الوليد..

أما العلو في الأرض، فله أيضاً أساليبه، ومنها: ما نشهده من مكر يمارسه بنو إسرائيل في سياساتهم بنجاح باهر، وهو المتمثل باستغلال شعارات معاداة السامية، وطرح قضية المحرقة التي اخترعوها، وزرعوها، ثم شهروها سيفاً يقطع رقاب كل من خالفهم، وكذلك الفضائح المالية وسواها من وسائل المكر بمخالفيهم لإخضاعهم لإرادتهم، بل لإذلالهم.

فإن ذلك وسواه قد سلطهم على المفكرين، والعلماء، والأغنياء، وعلى ساسة العباد في مختلف البلاد..

ولعل هذا هو السر في أنه تعالى تحدث في هذه الآية المباركة عن إفساد بني إسرائيل وعلوهم، لا عن ملك ينالونه، وحكم يمارسونه، لأن الوسيلة التي يستفيدون منها للتسلط والعلو لو كانت

هي الملك الظاهر، والسلطان القاهر، لتصادم مع ملك وسلطان الآخرين. ولسقط الملك والسلطان الضعيف أمام القوي، حين يتعارضان ويتكافحان، وإنما هم يستفيدون من وسائل ماكرة وخفية، وهي الإفساد على النحو الذي ذكرناه.

وهذا العمل ماكر وذكي، يستغل روح الإنسان، ويحطم وجوده وكيانه، ويظن ذلك الغبي المسكين أنه يهبه القوة والحياة والسعادة. فتراه هو الذي يسعى وراء قاتله، ويشحذ له المدية، ثم يغريه بكل ما يملك ليبادر إلى ذبحه بها.

العلو الكبير مرة واحدة:

ثم قال تعالى: **(وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا)**. وليس ثمة ما يدل على أن هذا العلو سوف يتكرر مرتين، كما يتكرر الإفساد مرتين.

وربما كان هذا العلو واحداً متواصلاً من حين شروعهم بالإفساد الأول، وإلى أن ينتهى الإفساد الثاني، الذي نتج عنه سَوْءُ وجوههم، ودخول المسجد، و.. و.. كما سيأتي..

ولعل مما يقرب الفكرة أكثر: أن الإفساد عمل يقصد به حياة الآخرين، وأمنهم، واقتصادهم، وقيمهم، واستقرارهم، وتجاراتهم، وأخلاقهم، ودينهم إلخ.. فلعل بعث العباد عليهم بعد الإفساد الأول، يحد من قدرتهم على ممارسة الإفساد، أو مواصلته.. ولكنه لا يدفع علوهم، الذي هو نتيجة طموحات شخصية تظهر آثارها على

الحركات والتصرفات، حتى لو كانت تصدر عنهم في محيطهم الخاص بهم..

العلو رذيلة ممقوتة:

ومن البديهي: أن العلو في نفسه رذيلة ممقوتة، ومرفوضة، لأن المراد به حينئذٍ: هو أن يضع الإنسان نفسه في موقع القاهر، والمهيمن، الذي يلغي إرادات الآخرين، وينفرد هو بالتصرف حتى في أموالهم، وأعراضهم، وفي أنفسهم.. من دون ضابطة أو قانون سوى الانسياق مع شهواته ورغباته.. كما هو حال فرعون ومن هم على شاكلته..

وقلنا: إنه رذيلة ممقوتة، لأن الله تعالى، وهو خالق الإنسان والكون لم يعط هذا الحق لأحد من العباد، إلا لنبيه، وفق ما قاله سبحانه: **(النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ)**[1]، **(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)**[2].

ولكن التصرف النبوي ليس من منطلق العلو على العباد.. بل من منطلق العبودية والخضوع لإرادة الله سبحانه..

---

(1) الآية 6 من سورة الأحزاب.

(2) الآية 55 من سورة المائدة.

وهذا المنطلق هو الذي يميز الأنبياء عن غيرهم، فإن تصرفهم إنما هو في سياق إجراء إرادة الله سبحانه في عباده، لا إرادة النبي نفسه.. كما أنه لا يستبطن علواً كما قلنا، بل هو مظهر عبوديته وطاعته وانقياده لله تعالى..

وقد كانت ثمرة علو فرعون هي قتل الناس، وصلبهم، أو استعبادهم وجعلهم شيعاً، واستضعافهم، وما إلى ذلك من كوارث ينزلها بهم، وادعاء الربوبية لهم، فقد قال تعالى: **(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ)(1)**.

كما أن علو إبليس انتهى به إلى الطرد من رحمة الله تعالى، واتخذ لنفسه صفة الإبليسية والشيطنة إلى يوم القيامة.

أما الأنبياء، فهم يخرجون الناس من حالة الاستضعاف، والبلاء، والاستعباد، والذل، والمهانة، والحاجة، والاضطهاد بمختلف أشكاله، والمقهورية.. و.. و.. إلى الحياة الفضلى والسعادة، والكرامة، والسؤدد، والحرية، والعزة، والغنى، والأمن، والتعاضد، والتعاون الخ.. ويكون لهم ذلك النبي أو الوصي كالأب الرحيم، ويكون عبداً شكوراً لله سبحانه..

ومثال إبليس وفرعون يظهران خطورة أن تكون أمة بأسرها، وهي

---

(1) الآية 4 من سورة القصص.

أمة بني إسرائيل تتخذ سبيل العلو، الذي عرفنا بعض نتائجه وآثاره في فرعون وإبليس..

وبذلك لا يبقى مبرر للتعجب من أن يتمكن بنو إسرائيل من الإفساد في الأرض كلها.. ولك أن تذهب في خيالك ووهمك كل مذهب في تصور آثار هذا العلو الذي ستمارسه أمة بأسرها، هي أمة بني إسرائيل، سراً وجهراً، وليلاً ونهاراً.

بين العلو والإستعلاء:

وإذ عرفنا معنى العلو.. فإننا نستطيع أن ندرك الفرق بينه وبين الإستعلاء، فإن الاستعلاء هو طلب العلو، ممن هو في موقع الضعة.. أو فقل: هو أن يضع الإنسان نفسه في موقع لا يستحقه، لا في علمه ووعيه، ولا في ذهنيته وعقليته، ولا في سياساته ولا في علاقاته، ولا يملك أياً من مقوماته، ولا يستطيع تلبية ما يدعيه لنفسه فيه من قدرة على التصرف.. فيتوثب له بغير حق، ويتكلف للوصول إليه بكل حيلة ووسيلة.

وحال هذا المستعلي وإن كان بالغ السوء، لأنه يدعي ما ليس له.. ولكنه إذا كان عالماً بقصوره، فإن الخطب معه يهون، لأنه قد يتراجع حين يصطدم بالواقع.. إلا إذا كان جاهلاً مركباً بمعنى أنه لا يعرف أنه قاصر، في إمكاناته وقدراته، وكل ما يحتاج إليه.

وفي جميع الأحوال نقول:

إن العلو يبقى هو الأشر والأضر، والأخطر والأمر كما سنرى..

ولعلك تقول: لماذا لم يصف الله بني إسرائيل بالاستعلاء؟! وكذلك الحال بالنسبة لفرعون، فقد قال عنه: (**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ**)(1).

وقال: (**وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ**)(2).

وقال: (**إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ**)(3).

وقال تعالى: (**إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ**)(4).

وعن إبليس قال: (**أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ**)؟!(5).. مع أنه لا ريب في أن فرعون، وبني إسرائيل ليسوا اهلاً لما يدعونه لأنفسهم!! فهم يدَّعون أمراً ليس لهم.

ونجيب:

بأن المعايير التي يعتمدها فرعون لتقييم نفسه، وكذلك بنو إسرائيل في نظرتهم لأنفسهم ليست معايير ذات قيمة حقيقية، فهم لا يرون للقيم ولا للأخلاق أثراً في حياة البشر، ولا يعيرونها أي

(1) الآية 4 من سورة القصص.

(2) الآية 83 من سورة يونس.

(3) الآية 31 من سورة الدخان.

(4) الآية 46 من سورة المؤمنون.

(5) الآية 75 من سورة ص.

اهتمام.. بل قد يسخرون من أهلها، ويضحكون عليهم.

بل يرون أن القيمة هي للقوة الغاشمة، وللمقادير والتكدسات المالية، وللمكر والحيلة، والظلم والفجور، والتعدي والتمرد على الله، والاستكبار والتكبر، والتجبر والطغيان، واستبعاد الناس وإذلالهم، وكل ما يدخل في هذا السياق. ويرون أن العلو والسمو، والنجح والفوز يكون بهذه الصفات، وليس بالقيم والأخلاق والدين، وطاعة الله، والتواضع، وخدمة الفقراء، ونصرة المظلومين.. وما إلى ذلك.

ليس هذا من موارد الجهل المركب، لأن الجهل المركب إنما هو فيما ظن أنه عارف بالواقع والحق، مع أنه جاهل به، فمن ظن أنه يحوي الصفات الإنسانية والأخلاقية الحميدة، وهو فاقد لها. ويظن أنه مطيع لله، وهو عاص له.. فهو جاهل مركب.

وليس من قسم الجاهل المركب من يرى أن الطاعة لله، والإلتزام بالأخلاق والدين و.. و.. سفه وسقوط، لأن هذه الأمور لا قيمة لها بنظره، ولا يريد أن يكون لها أي دور في حياته، ولا في حياة غيره.

نعم.. إن هذا لا يقال له جاهل مركب.. بل هو عالٍ على الله، مبارز له، معترض عليه من منطلق مفاهيمه التي يقيس بها شخصيته، ويحدد بها قيمة أعماله وممارساته.. التي هي نتيجة هذا الفكر، وهذا الفهم للأمور، ويرى أنه واجد للصفات التي تخوله قتل وظلم الناس، وارتكاب سائر الجرائم التي أشرنا إليها.

وليس هو بمستعلٍ، بل هو عالٍ على الله سبحانه، متمرد عليه.. كما أشير إليه في كتاب سليمان لقوم سبأ، حيث قال: (**أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**)[1].

---

(1) الآية 31 من سورة النمل.

أيهما أسبق؟!:

وعن المراد من قوله تعالى: **(كَبِيرًا)** نقول:

لعل التأمل في هذه الآية يعطي: أن العلو المذكور في قوله تعالى: **(وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا)** بمثابة التعليل لسعيهم للإفساد في الأرض مرة بعد أخرى.. فيكون من قبيل ذكر الدعوى مع دليلها، لأن من فهم الأمور بهذه الطريقة، ويرى الحسن قبيحاً والعكس، لا يمكن إلا أن يكون ساعياً في الإفساد، مصراً عليه، يرى أنه من واجباته التي لا معنى ولا مبرر لوجوده وحياته من دونها.

وهنا سؤال يقول: إذا كان هذا هو معنى العلو، فلماذا وصفه بالكبير، مع أن الكبير من أوصاف الأحجام، فهل يصح وصف هذه النظرة إلى القيم والأخلاق، والفضائل، ونحوها بالكبر والصغر؟! أم أن الأولى وصفها بالخطورة والأهمية، ونحو ذلك..

ونجيب:

أولاً: قد يقال: إن لغة الأحجام هي اللغة المفهومة للناس أكثر مما عداها، لأنها وصف بما يدرك بالحس، الذي هو الأكثر قرباً إلى ذهنية الناس العاديين.. وأما الخطورة والأهمية فقد يشعرون بأنها من الأمور التي تحتاج لإدراكها إلى تأمل وتدقيق، قد يسارعون إلى التماس العذر لأنفسهم في صرف اهتمامهم عنها، وترجيح عدم التصدي لنيل معناها ومغزاها، إذا ظنوا أنها مما ينبغي أن يحال إلى

أهله من الدارسين والمتخصصين.

ثانياً: قد يقال: إن ذكر سعيهم في الإفساد في الأرض مرتين قد عرف الناس بخطورة هذا العلو، وبآثاره الفادحة.. فالمناسب هو الإلماح بالوصف إلى معنى جديد..

ثالثاً: لعل المقصود بهذا الوصف: هو لفت النظر إلى حجم وسعة انتشار هذا الفهم، واستيعابه لمختلف الحقائق التي يتعامل بها البشر مع بعضهم، ليشمل الأمور الاعتقادية، والأخلاقية، والسياسية، والتربوية، والنظرة للكون، وللحياة، وكل شيء يدور من حوله، وكل مفهوم يحتاج إلى أن يوظفه في مجال التعامل مع الناس، ومع الله، ومع كل ما في هذا الوجود..

فإذا كان الأمر شاملاً لهذا الحد، فإن خطورته تصبح كالنار على المنار، وكالشمس في رائعة النهار، فلا حاجة إلى التنصيص عليها، وتكون كلمة «كبيراً» قد دلت عليها، وعلى معنى آخر كان لابد من الإشارة إليه، لكي لا يتوهم متوهم: أن أمر العلو يقتصر على موارد محدودة في مجالات خاصة..

الفصل الثاني:

الإفــساد.. وجــوس العـــــباد..

(فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا.. خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً)..

توقيت وتأكيد:

ذكرنا فيما سبق: أن هذا التفريع بالفاء يفيد التأكيد، لأنه يحدد مقدار الزمان الفاصل بين المرة الأولى، وبين حدث آخر يتبعها، وهو بعث العباد على المفسدين.

والدخول في هذه التفاصيل، يدل على حتمية وقوع المضمون. فهو يشرحه، ويذكر دقائقه وتفاصيله، ليقينه بحصولها، وتمامية عللها.

وكلمة «إذا» ـ كما قلنا ـ تستعمل أيضاً في حالات الجزم بحصول فعل الشرط، فإذا قلت: إذا جاء فلان، فاعطه القلم.. فذلك يعني: أن مجيئه حتمي، فيتحتم الجزاء بناء على ذلك..

ولكن لو قلت: إن جاء فلان، فاعطه القلم، فلا يدل على اليقين بمجيئه، فلعله يأتي، ولعله لا يأتي..

تأكيد بعد تأكيد:

وقوله: **(جَاء)** أيضاً فيه إلماح، بل تصريح بوقوع هذا الأمرن

زهز تأكيد بعد تاكيد على وقوع هذا الأمر، كما بيناه فيما سبق. وكلمة: **(وَعْدُ)** أيضاً لها دلالة أقوى على هذا التأكيد، من حيث إشارتها إلى أن الله تعالى أعطى هذا الخبر صفة الوعد منه، ليدل على حتمية وقوعه، فإنه تعالى لا يخلف وعده..

وإنما صح أن يعتبره وعداً لعلمه تعالى بتمامية أسبابه وعلله حين يجيء وقته.. الأمر الذي يحتم حصول المسببات والمعلولات.

ولعلك تقول: كيف يعتبره وعداً، والوعد إنما يقال للأمر الذي يكون محبوباً للموعود، ويرى فيه خيره وصلاحه وفلاحه، وإرسال العباد على بني إسرائيل ليس مما يفرحهم، بل هو يسوءهم، ويخيفهم، فهو وعيد لا وعد؟! ألم يكن الأولى بناء على هذا أن يقول: فإذا حان وقت المرة الأولى؟!

ونجيب:

أولاً: بأن بني إسرائيل لشدة انغماسهم في المعصية والضلال، ولأنهم مصابون بداء العلو، الذي يعني تبدل نظرتهم على الأمور، حتى صاروا يرون الضلال هدى، والهدى ضلالاً، والقبيح حسناً، والحسن قبيحاً.. فإنهم صاروا يأنسون بالضلال والانحراف، والفساد والإفساد، ويسعدهم أن يعرفوا بأنه سيحصل منهم في وقت ما، فهم يتلقون خبر حصوله كما يتلقى الإنسان المشتاق إلى شيء محبوب وعداً بحصول ما اشتاق إليه، ويحلم به..

وأما ما يوعدهم به من العقوبة على هذا الفساد.. فيفترض أن

يكون متوقعاً منهم، ولعلهم يرضون به، أو لا يلتفتون إليه، أو لا يهتمون له، لشدة سعادتهم بالفساد والإفساد.

كما أن التعبير بمجيء الوعد، فيه شيء من الإبهام الذي قد يكون مقصوداً أيضاً، فقد يسبق إلى ذهن سامع هذا التعبير: أنهم سيجدون السبل قد مهدت، والأجواء قد تهيأت لهم لممارسة إفسادهم، مما يعني: أنهم سيكونون أكثر شعوراً بالأمن حين ممارستهم للإفساد، ربما لأن ذهنيات الناس ستكون مستعدة لتقبل ذلك منهم، أو لأن عوامل أخرى ومنها معونة أمريكا ودول الغرب لهم ـ سيكون لها تأثيرها على تجاوز سلبياته..

ثانياً: يمكن أن يكون هذا الوعد وعداً لعباد الله المؤمنين الذين سيسلطهم الله على بني إسرائيل، ليذيقوهم طرفاً من بأسهم وشدتهم في ذات الله. كما ربما تشير إليه بعض الروايات أيضاً(1).

وربما يؤيد هذا الاحتمال: قوله تعالى بعد قليل: **(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ)**.

ثالثاً: ربما يكون كلا الوجهين المتقدمين مقصوداً، ويكون المورد

---

(1) راجع: الكافي ج8 ص206 ومختصر بصائر الدرجات ص48 وبحار الأنوار ج51 ص56 وج53 ص93 و 94 ومرآة العقول ج26 ص121 - 122 ونور الثقلين ج3 ص138 والبرهان (تفسير) ج3 ص502 وكنز الدقائق ج7 ص360 و 361.

من موارد التورية التي يقصد بها الإيحاء لأهل الضلال بما يناسبهم، على سبيل التندر بهم، والسخرية منهم، على قاعدة: **(إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)**(1).

أي أنه تعالى يلوح لهم بالوعد والبشارة به، ليكون ذلك من قبيل قوله تعالى: **(ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)**(2).. مع أنه في مضمونه الحقيقي بشارة للمؤمنين، الذين يعملون الصالحات..

وهذا النوع من البيان فيه بعض ما يستحقه أهل الضلال والمستكبرون من الأذى، ومزيد من الكرامة، وإدخال السرور على قلوب أهل الإيمان..

لا جبرية في بعث العباد:

أما قوله تعالى: **(بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا)**، ففيه الكثير من الإشارات واللمحات، نذكر منها:

إنه قد يقال: إن قوله: **(بَعَثْنَا)** يشير إلى تدخل إلهي مباشر لقمع بني إسرائيل، بواسطة العباد، حيث يمكِّن العباد من إلحاق الأذى بهم من خلال التصرف التكويني في قدرات هؤلاء، وهؤلاء.. فهو نظير إرسال الجراد والقمل والضفادع على بني إسرائيل..

فإن كان هذا هو المراد، فلقائل أن يسجل سؤالاً يقول: ألا ينافي

---

(1) الآية 38 من سورة هود.

(2) الآية 49 من سورة الدخان.

هذا ما أخذه الله تعالى على نفسه من إعطاء حرية الاختيار والتصرف للبشر؟! فإن التدخل التكويني لمنعهم من ممارسة اختيارهم خروج على هذه القاعدة، وظلم لهم، وتعدٍ عليهم..

ونجيب:

أولاً: إن الآيات نفسها تدل على أن التدخل الإلهي ببعث العباد ليس تكوينياً، ولا يتضمن سلباً للاختيار ليكون ظلماً، وإنما هو تدخل بإفساح المجال أمام بني إسرائيل، وأمام عباد الله على حد سواء لممارسة حرية الاختيار من خلال تمكين الفريقين من تحريك السنن في السياق التي تتحرك فيه، وفق ما يختارونه ويحبونه، وهذا هو معنى بعث الله عباده على بني إسرائيل، وهو أيضاً معنى قوله لبني إسرائيل: **(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا)**. فإن هذا وذاك إنما يتم بأسبابه الطبيعية، وفق السنن المودعة في هذا الكون الرحيب.

فالمراد بالبعث هنا: تيسير وصول عباد الله تعالى إلى الهدايات التي تضعهم أمام مسؤولياتهم الشرعية والعقلية، والفطرية والوجدانية. وإيجاد الحوافز لديهم لمحاربة الفساد والمفسدين.. ثم يكونون هم الذين يختارون الانصياع لتلك الحوافز، أو الامتناع..

ومن الواضح: أن هذه الحوافز الإيمانية والوجدانية، تعنى بلورة درجة من الحنين والشوق الى رضا الله سبحانه، والتقرب إليه، وجعل الهدف إلهياً ولا تعني أي نوع من أنواع التصرف التكويني في نطاق

الجبرية، ولا تنتج تحريكاً تكوينياً، ولكنها تصحح نسبة البعث إلى الله سبحانه، لأنه هو الذي أعطى الحوافز والدوافع بالأوامر والزواجر، وجعل المثوبات والعقوبات، وحدد الغايات.. فيكون قد أسهم في توفير درجة من الإعداد للفعل، تصحح نسبة الفعل إليه تعالى.

ولم يقل تعالى: بعثت، بل قال: **(بَعَثْنَا)** بصيغة جمع المتكلمين، ليدل على تأكيد الحصول، من حيث أنه يتكلم من مقام العزة والعظمة والجلال، وامتلاك كل الوسائل القريبة والبعيدة، وهيمنته عليها، وقدرته على تحريكها في أي اتجاه..

وهذا التذكير بالعزة والعظمة والجبروت الإلهي بمثابة إنذار لأولئك المفسدين. وإقامة للحجة عليهم، وترغيب من يرغب منهم بالابتعاد عن خطهم المهلك، المؤدي إلى تحدي هذا الجبروت المقدس.

والتهديد في مواقع كهذه هو عين اللطف بمن يوجه إليه، وعين العطف عليه، والرحمة به، ولا يصح عده من مظاهر القسوة، وسوء المعاملة. بل هو من باب تهديد الوالد لولده الذي يهم بشرب السم، أو بإلقاء نفسه من شاهق..

فإذا كانت قلوب بني إسرائيل قد قست، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، واستُنْفِدت كل أساليب البيان والردع، فلا ضير في كبح جماح طغيانهم بالتخلية بينهم وبين عباد الله المؤمنين. وجعل الخيار للعباد المؤمنين في المبادرة إلى مواجهتهم طلباً للثواب، والأمن من العقاب.

لماذا عليكم؟!:

أما قوله: (**عَلَيْكُمْ**)، حيث لم يقل: بعثنا عباداً لنا.. فجاسوا إلخ.. فهو لأكثر من سبب.

فأولاً: هو يريد أن يواجههم بما يسوءهم ويخيفهم، وهو الحرب.

ثانياً: كلمة عليكم تشي بالغلبة والتفوق، الذي يزعج المستكبر العاتي.

ثالثاً: إن هذا التفوق يشير الى حبط مساعيهم، وفشل جهودهم، وضياع أهدافهم.

رابعاً: إن التفوق عليهم يأتي من قبل أعدى أعدائهم، وهم العباد الحقيقيون له تعالى. وقد قال سبحانه: (**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا**).

وغلبة وتفوق هؤلاء الذين يضمر بنو إسرائيل لهم أشد العداوة، سيكون هو الأشد وقعاً على نفوس بني إسرائيل، والأكثر إيلاماً لهم.

خامساً: إن بشارتهم بهذا التفوق من شأنها أن تضعف من عزائمهم في مقاومتهم. وتسهل على العباد أمر التغلب عليهم.

سادساً: إن هذا التعبير المشير إلى التفوق هو بشارة غالية تثلج صدور المؤمنين، وتفرح قلوبهم.

سابعاً: إن هذا التعبير يسلب من بني إسرائيل لذة احتمال إمكان رد هجوم المؤمنين عليهم، فضلاً عن أن يكون لهم تأثير يذكر في

مواجهتهم، بل هو يضعهم أمام الهزيمة الحتمية.

ويلاحظ: أنه تعالى قال: **(بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ)**، فبادرهم بخبر هذا التفوق للمؤمنين عليهم، ربما ليظهر لهم اهتمامه بهذا الأمر، ومباركته له، واحتفاءه به. وأنه راغب في تسريع وصول المساءة إليهم، وأن لا يعطي فرصة أن يمر في خيالهم احتمال انتصارهم على المؤمنين، ولو بمقدار زمان يسع التفوه بكلمتين..

وهذا يشير الى أن ثمة رغبة في قمعهم وإذلالهم، وأن لا يفوته حتى هذا المقدار منه، لو أنه قال: بعثنا عباداً لنا عليكم.

يضاف إلى ذلك: أن لا يفهم من هذا التأخير لكلمة **(عَلَيْكُمْ)**: أن ثمة ضعفاً في رغبته بتفوق المؤمنين على بني إسرائيل.

تنوين التنكير في كلمة عباداً:

ثم إنه تعالى قال: **(عِبَادًا لَنَا)**.. وكان يمكن أن يقول: «عبادنا»، أو «بعض عبادنا».. فلماذا جاء بتنوين التنكير في كلمة «عباداً»؟!

ونجيب:

أولاً: إن لتنوين التنكير هذا عدة فوائد، مثل:

1 ـ أن هؤلاء العباد ليسوا كثيرين، بل هم قليلوا العدد..

2 ـ أنهم سوف لا يكونون معروفين ومشهورين، بل هم أناس عاديون ومغمورون..

3 ـ إن هذا الإبهام يرعب بني إسرائيل، وتذهب بهم أوهامهم في

تبيُّن أمرهم كل مذهب.

ثانياً: لو قال: «عبادنا»، لفهم منه أن جميع عباده في ذلك العصر سوف ينفرون لحرب بني إسرائيل. مع أن الأمر ليس كذلك.. بل هم ثلة قليلة من عباد الله الصالحين.

التشريف والتكريم:

إن التعبير بقوله: **(عِبَادًا لَنَا)** يشير إلى أنهم قوم مؤمنون، حيث لم نجد في القرآن مورداً ينسب فيه العباد إلى نفسه، فيقول: «عبادي»، أو «عبادنا»، أو «عبدنا»، إلا حين يكونون مؤمنين، ويكون تعالى في مقام المدح لهم، وإظهار الاهتمام بهم، وبإصلاح أحوالهم.

ولكنه قال هنا: **(عِبَادًا لَنَا)**، ليفيد معنى الاختصاص، وليزيدهم بهذه النسبة تشريفاً وتكريماً.

هم والله أهل قم:

وقال الحسن بن محمد بن الحسن القمي: روى بعض أصحابنا قال: كنت عند أبي عبد الله «عليه السلام» جالساً، إذ قرأ هذه الآية: حتى[1] **(فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ**

---

(1) هذه الكلمة إما زائدة، أو أن العبارة هكذا: قرأ هذه الآيات ـ أعني آيات سورة الإسراء ـ حتى.. أي حتى بلغ إلى قوله تعالى: (فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ

فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً)، فقلنا: جعلنا فداك، من هؤلاء؟!

فقال ثلاث مرات: هم والله أهل قم**(1)**.

وقد قال «عليه السلام» هذا قبل أن تتكون إسرائيل في بلاد فلسطين، بعد أن يطردوا أهل فلسطين منها بغياً، وعلواً، وعتواً، وظلماً، بحوالي ألف وماءتي سنة.

وهؤلاء هم أهل قم بما لهم من صفة دينية يقودون حملة الدفاع عن فلسطين، وأهل فلسطين، ويدعون إلى إخراج الغزاة منها، وهم من أشد الناس حرصاً على تطهير الأرض من رجس بني إسرائيل، ويبذلون كل غال ونفيس في هذا السبيل. ولا نريد أن نقول أكثر من ذلك، فإن الحر تكفيه الإشارة.

بماذا يتميز العباد؟!:

وقد لاحظنا: أنه تعالى قال: **(عِبَادًا لَّنَا)**، فلماذا أدخل اللام على كلمة «نا»، وقد كان يمكن أن يقول: بعثنا «بعض عبادنا»، أو «طائفة من عبادنا» أو نحو ذلك..

وَعْدًا مَّفْعُولاً).

(1) بحار الأنوار ج57 ص216 عن تاريخ قم للحسن بن محمد بن الحسن القمي.

ونجيب:

أولاً: بأنه لو قال: بعثنا عليكم قوماً، أو أناساً. لفاتت فائدة التنصيص على عباديتهم له تعالى، وأنهم ليسوا من الكافرين.

ثانياً: إن كلمة «عبادنا» تشير إلى أن ثمة اختلافاً في المنطلقات التي تحدد التراتبية والتدرج في مستوى الحظوة والقرب والمقام، فإن البشر يرون أنها تقاس بالمراتب والمقامات الدنيوية، كالرتب العسكرية من جندي إلى عريف إلى ملازم إلى أن يصل إلى عقيد، أو لواء، فما فوق.. أو أنها تبدأ من موظف عادي إلى مسؤول إلى مدير إلى أن يصل إلى نائب، أو وزير، أو رئيس وزراء، إلى ملك، أو رئيس.

أما التراتبية في المقامات في نظر أهل الدين، من الأنبياء والأوصياء، والصالحين، فمعيارها العبودية لله، والطاعة له، ومقدار تجليات هذه العبودية فيه. فأعلى المراتب ينالها الأكثر فناء في الله، واجتهاداً في طاعته، ثم يتدنى هذا المقام ويتباعد عن منازل الكرامة بمقدار تناقص هذه العبودية، وبمقدار ما يظهر فيه من حب الدنيا، أو حبه لنفسه، أو إيثاره لشهوته، أو تعلقه بالزعيم الفلاني، أو حبه للمال إلخ..

وهذا يفسر لنا سبب تركيز القرآن على هذه الصفة ـ صفة العبودية ـ في أنبيائه وأصفيائه وأوليائه. فقد تكرر فيه قوله: **(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا)** و **(إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا)** ونحو ذلك، فتكريم الله لنبيه هو بتوصيفه

بهذه الصفة لا بوصفه بالمستشار، أو بالوزير، أو الرئيس، أو المدير، وما إلى ذلك..

أما عند أهل الدنيا، فالأعلى مرتبة هو الأكثر إغراقاً في حب الدنيا، والفناء فيها، والإستسلام لمتطلباتها.

وبعبارة أخرى: كلما ابتعد الإنسان عن معنى العبودية لله تعالى، كلما أمعن في الإجرام والإنحراف والضلال..

ثالثاً: لو قال: بعثنا عليهم بعض عبادنا، لتوهم متوهم: بأن المقصود شخص واحد، أو اثنان مثلاً، لأن كلمة بعض تستعمل في القليل، ولو كان واحداً، وفي الكثير..

رابعاً: كلمة **(عِبَادِنَا)** قد يفهم منها: أن هذه الإضافة إليه تعالى لا تدل على حقيقة العبودية بمعناها العميق، لأن الإضافة تصح بأدنى ملابسة، ولو من جهة عد نفسه من فريق العباد لكونه مؤيداً لهم، أو لكونه قريباً، أو صديقاً، أو مدافعاً عنهم، أو معيناً لهم بالمال، أو السلاح، أو لأنه يسكن في محيطهم، أو ما إلى ذلك..

فلا دلالة في مثل هذه التعابير على تميزهم في عبوديتهم الخالصة لله تعالى، وانقيادهم له، وتفانيهم في سبيله، وتضحياتهم في طاعته سبحانه. وتميزهم بعد هذا بكونهم **(أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ)**.

مع أن العدول من كلمة **(عِبَادًا لَنَا)** إلى مثل كلمة «عبادنا» يضيع فوائد تنوين التنكير التي منها:

1 - الإشارة إلى قلة عدد الذين يبعثهم الله تعالى عليهم من عباده.

2 ـ الإشارة إلى أنهم أناس غير معروفين، ولا مشهورين..

3 ـ الإشارة إلى أنهم أناس عاديون جداً، لا يتوهم أحد أن لديهم هذه الجرأة، وهذا الوعي، وهذا البأس الشديد، وهذه الهمة العالية، وهذه الغيرة على الدين.

عباداً لنا مرة أخرى:

ويبدو لنا: أن اللام في قوله تعالى: **(لَنَا)** هي لام الإختصاص، التي تعني: أن عبوديتهم متمحضة لله، وليس فيها أية شائبة من شوائب العبودية للأنا، أو للمال، أو للشهوات، أو للزعماء، أو للمقامات، أو للجاه، أو للدنيا.. بل هم متحررون من ذلك كله بصورة حقيقية. كما قال الإمام الحسين «عليه السلام» للحر بن يزيد الرياحي حين استشهد معه في كربلاء: «أنت حرّ كما سمتك أمك: حر في الدنيا، وسعيد في الآخرة»**(1)**.

لأنه تحرر من كل علاقة له بغير الله سبحانه.. ومحا نفسه أمام الله تعالى محواً تاماً.. فَعُصِم بذلك عن أي خطأ، أو خطل.

---

(1) راجع: تاريخ الأمم والملوك ج3 ص325 واللهوف ص104 و (ط سنة 1417هـ) ص62 وبحار الأنوار ج45 ص14 ومقتل الحسين للخوارزمي ج2 ص11 وكتاب الفتوح لابن أعثم ج5 ص102 والعوالم ج17 ص257 وأعيان الشيعة للسيد محسن الأمين ج1 ص604 وج4 ص614 ومقتل الحسين «عليه السلام» لأبي مخنف الأزدي ص122.

ولام الإختصاص هنا قد تضمنت تهديداً لبني إسرائيل، من حيث إيحائها لهم بأنهم سيكونون عاجزين عن مواجهة أولئك العباد، لأنهم إنما يحبون الله فقط، ولا يحبون المال ليخافوا أن يفوتهم، ولا يتعلقون بالولد ليخافوا أن يفقدوه، ولا بالمقام ليخافوا أن يخسروه، ولا بالحياة ليخافوا من الموت.. وليس لهم همٌّ إلا رضا ربهم، ولا.. ولا.. إلى آخر ما هنالك مما يخيف به أهلُ الباطل، ومحبو الدنيا وزخرفها بعضهم بعضاً.

فلا يمكن إلقاح الفتن بين هؤلاء العباد، ولا إحداث أي خلل في تعاونهم وتعاضدهم، وتآخيهم، ولا تحاسد ولا تباغض بينهم، ولا قِبَل أحدهم نميمة على أي منهم، ولا.. ولا..

وبكلمة واحدة: إنهم يعملون بكل ما يرضي الله، وما يأمرهم به، وبذلك أمنوا من أي اختراق، وحصنوا أنفسهم من عبث العابثين، وإفساد المفسدين..

كما أن هذا الذي ذكرناه عنهم يجعل من المستحيل قهرهم والسيطرة عليهم، وثنيهم عما عقدوا العزم عليه، ولا يمكن إغراؤهم بشيء من حطام الدنيا، وملذاتها، ولا تخويفهم بشيء..

وسيتكرس كل الخوف في قلوب أعدائهم ومناوئيهم، من أن يبطش أولئك العباد بهم.. فتكون كلمة: **(لَنَا)** في هذا المورد بالغة الأثر في شعور بني إسرائيل بالرعب، وبالذل أمام هؤلاء العباد، ولها دورها في كسر شوكتهم، وتحطيم عنفوانهم، وبعث الحسرة في

قلوبهم..

المواجهة الطويلة الأمد:

فإذا حصلت المواجهة بين هؤلاء العباد، وبين بني إسرائيل، وطالت واستمرت أجيالاً، وأحقاباً.. فإن بني إسرائيل سيعيشون معنى الهزيمة الروحية، والعقدة، والأزمة النفسية، والشعور بالذل بصورة متواصلة..

وهذه أعظم محنة لبني إسرائيل، وأشد عقوبة لهم.. وهي أصعب عليهم مما لو واجهوا العباد مرة واحدة. وقضي عليهم، فإن موتهم هذا سوف يريحهم من هذا العذاب النفسي المتواصل، الذي جلبه عليهم إفسادهم وعلوهم. فكأنهم يذوقون الموت لحظة بعد لحظة، كما قال تعالى: (**وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ**)(1).

بأس العباد:

ثم قال تعالى: (**أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ**)(2).

البأس في اللغة هو: الشجاعة، والقوة، والشدة في الحرب.

وغير خفي أن نفس أن يقول الله سبحانه لبني إسرائيل: (**بَعَثْنَا**

---

(1) الآية 17 من سورة ابراهيم.

(2) الآية 5 من سورة الإسراء.

عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا) يخيفهم بسبب كلمة **(بَعَثْنَا)**، وكلمة **(عَلَيْكُمْ)**، وكلمة **(عِبَادًا لَنَا)**، فإنها كلها تشي لهم بالمصائب والكوارث، فكيف إذا زاد تعالى على ذلك وهو أصدق القائلين: أنهم أولوا بأس، ثم أضاف إليه وصف هذا البأس: بأنه شديد. وهم يعلمون: أن القائل لهذا هو الله تعالى، عالم الغيب والشهادة.

وكيف إذا كان بنو إسرائيل أحرص الناس على حياة مهما كانت حقيرة، وتافهة وذليلة!! وذلك بسبب شدة حبهم للدنيا، وتعلقهم بها!!

إن ما يسعد بني إسرائيل هو شدة ضعف عدوهم، وجبنه، وفشله، وفاقديته لأي سبب من أسباب القوة.. إنهم يريدونه صغيراً وحقيراً.. وإذا به كبير، وقوي شديد وخطير..

وهذه التفاصيل كلها ترسخ الإعتقاد: بأن هذا الذي يخبر الله عنه بهذه العناية، وبهذا الإسهاب في البيان واقع لا محالة.. وهو من مفردات المؤكدات للوقوع كما ألمحنا إليه..

قبل الحديث عن الجوس:

وتدلنا الفاء في قوله تعالى: **(فَجَاسُواْ)** على أن الجوس خلال الديار سيعقب هذا البعث بلا فاصل زماني. وهذا يدل على أن بعث العباد سيكون قوياً وساحقاً، تظهر نتائجه بسرعة..

وتسجيل نصر سريع يمثل ضربة معنوية، وهزيمة روحية كبيرة لبني إسرائيل..

وسيزيد من التأثير السلبي لهذا النصر: أنه يأتيهم من قوم مغمورين وغير معروفين لهم، ولا لغيرهم، أو على الأقل لم يكن بنو إسرائيل قد حسبوا لهم حساباً، وكانوا يتعاملون معهم على أساس أنهم غير موجودين..

والذي يزيد الطين بلة: أن الغلبة والتفوق لهؤلاء العباد ستكون ظاهرة من أول لحظة بعثهم، وانبعاثهم كما يشير إليه قوله تعالى: **(بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ)**، فإذا ظهرت بشائر النصر مباشرة بالجوس خلال الديار، فهناك تسكب عبرات بني إسرائيل، وتتبلور حسراتهم.

المراد بالجوس:

والجوس كما فسره أهل اللغة هو: طلب الشيء بالإستقصاء، وزاد في سائر المصادر قوله: والتردد خلال الدور والبيوت في الغارة، والطواف فيها كما يجوس الرجل الأخبار، فيطلبها[(1)].

---

(1) الإفصاح في فقه اللغة ص1367 والقاموس المحيط ج2 ص212 ومجمع البحرين ج4 ص60 ومختار الصحاح ص186 والصحاح للجوهري ج3 ص915 ولسان العرب ج2 ص419 و 420 وترتيب كتاب العين ج1 ص329 والمعجم الوسيط ج1 ص147 وأقرب الموارد ج1 ص150 والتبيان للطوسي ج6 ص449 وكنز الدقائق ج7 ص358 ومجمع البيان ج6 ص175 وتفسير النسفي ج2 ص307 والكشاف ج2 ص649 وجوامع الجامع ج2 ص318 وزاد المسير للبغدادي ج5 ص8 والجامع لأحكام القرآن

وقيل في تفسير قوله تعالى: **(فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ)**. أي طافوا خلال الديار، ينظرون هل بقي أحد لم يقتلوه[1].

وجاس القوم إذا تخللهم[2].

وقال ابن فارس: الجوس: التخلل في الديار[3].

وقال أيضاً: الجيم والواو والسين أصل واحد، وهو تخلل الشيء. يقال: جاسوا خلال الديار يجوسون[4].

والجوسان: الطوفان بالليل[5].

وجاس الحارس وغيره: طاف بين البيوت بالليل[6].

ويقال: جاس يجوس الناس: يتخطاهم[7].

ج10 ص142.

(1) الإفصاح في فقه اللغة ص1368 ولسان العرب ج2 ص419.

(2) جمهرة اللغة ج2 ص1041 ولسان العرب ج2 ص420.

(3) مجمل اللغة ج1 ص472 وراجع: التبيان ج6 ص448 .

(4) معجم مقاييس اللغة ج1 ص495.

(5) الصحاح للجوهري ج3 ص915.

(6) المعجم الوسيط ج1 ص147 ولسان العرب ج2 ص420 وذيل أقرب الموارد ص117 وراجع الجامع لأحكام القرآن (ط سنة 1413 هـ.) ج10 ص142.

(7) المعجم الوسيط ج1 ص147 ولسان العرب ج2 ص420 وأقرب الموارد ج1 ص150.

قال العلامة السيد حسن المصطفوي: «والتحقيق: أن الأصل الواحد في هذه المادة هو التجسس عملاً، كما أن الجس هو فكراً، ونظيرهما الحس والحوس. والتضعيف بساطة اللفظ تدل على بساطة المعنى. ثم تبديل الحرف المكرر بالواو يدل على زيادة التحقيق والطلب عملاً..

وهذا المعنى هو الأصل، ومن لوازمه الطلب والإستقصاء والتخلل، والتخطي والمخالطة، وغيرها..

إلى أن قال: **(فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ)** أي فتجسسوا عملاً خلال الديار، وتفحصوا البيوت لطلبهم وقتلهم»[1].

ويشهد لما قاله السيد المصطفوي من أن المراد هو الجوس التجسسي: ما روي عن مجاهد في تفسير قوله تعالى: **(بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ..)**[2]. قال: من جاءهم من فارس، يتجسسون أخبارهم، ويسمعون حديثهم، معهم بخت نصر، فوعى أحاديثهم من بين أصحابه، ثم رجعت فارس. ولم يكن قتال، ونصرت عليهم بنو إسرائيل، فهذا وعد الأولى..

وفي نص آخر عنه: «جند جاءهم من فارس بتجسسون أخبار..»

---

(1) التحقيق في كلمات القرآن الكريم (ط سنة 1396 هـ. طهران) ج2 ص52.

(2) الآية 5 من سورة الإسراء.

ثم ذكر نحوه[1].

وذكر الجنابذي: [(**فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ**)] تجسسوا وتفحصوا المواضع الخفية من دياركم للقتل، والأسر، والنهب[2].

ويدور بخلدي أيضاً: أنني رأيت في بعض المصادر ـ التي لم أستطع تذكرها الآن ـ: أن الجوس هو الوطء الخفيف، ولكن عدم تمكني من العثور عليه في هذه العجالة منعني من التعويل عليه في مورد الآية، لأن المطلوب هو توخي ما تسكن إليه النفس في مقام الاستفادة من الآيات.

ونعتقد: أن النصوص التي ذكرناها آنفاً ليست بعيدة عن هذا المعنى، بل هي متآلفة معه إلى حد كبير.. وهي تدلنا على أن هذه الكلمة تختزن الإشارة إلى العديد من اللطائف والخصوصيات والمعاني.. وإلى القارئ الكريم باقة طيبة من ذلك.

ما يستفاد من الجوس:

قد ألمحت تلك النصوص إلى أن الجوس هو طلب الشيء باستقصاء. وهذا يدلنا:

أولاً: على أن لدى هؤلاء العباد حرصاً وإصراراً على الظفر

(1) تفسير الطبري ج8 ص28.

(2) بيان السعادة (ط سنة 1385 هـ. ق. طهران) ج2 ص434.

بمطلوبهم، واهتماماً بالغاً بالوصول إليه.

ثانياً: إنهم يشعرون بالأمن حين بحثهم عن مطلوبهم، ويتكرر ذهابهم وإيابهم.

ثالثاً: إن الذين يطلبونهم قد أخفوا أنفسهم عنهم، ويحاذرون من أن يكتشفوهم، وهذا دليل شدة خوفهم من العباد.

رابعاً: إن للعباد تسلطاً وهيمنة على المواقع التي يبحثون فيها..

خامساً: إن هجوم العباد، ليس مجرد موجة عابرة، يمكن الإنحناء أمامها وتلافيها، ثم العودة إلى السيرة السابقة، لأن عملهم دقيق ومدروس.

سادساًً: يريد العباد متابعة عملهم هذا إلى نهاياته، بكل دقة وأمانة، ومتابعة دقيقة، وتحر وبحث في الزوايا لاستخراج الخفايا والخبايا.

سابعاً: إن تشبيه تحري العباد وبحثهم عما يريدون بمن يبحث عن الأخبار ويطلبها يدل على أن هذا البحث والاستقصاء مشوب بالترفق والاستدراج، كما يستدرج طالب الأخبار الناس ليبوحوا له بما عندهم..

ثامناً: هو يدل على قدرة عباد الله على الدخول في الفُرَجِ والفجوات التي تكون بين الديار، وعلى أنهم سيفعلون ذلك. مما يدل على خبرتهم بتفاصيل تلك الديار، وعلى أن لديهم الجرأة والقدرة على الدخول إليها.

تاسعاً: إن هذا التحري والدخول في الفرج والفجوات، وذلك الإصرار، وكذلك الاستقصاء بالبحث، والتردد والطواف بين الديار مرة بعد أخرى لا بد أن يزيد من رعب بني إسرائيل الذين هم أحرص الناس على حياة مهما كانت حقيرة وتافهة. والذين يرون أنهم إذا خسروا الدنيا، فلا شيء يعوضهم عنها.. ولهذا البيان تأثيره النفسي الشديد الذي لا يخفى في إخماد نشاط بني إسرائيل في مواجهة هؤلاء العباد..

عاشراً: إن هذا التعبير القرآني يدل بني إسرائيل: أن المطلوب هو أشخاصهم بالذات، وأنهم ـ أي العباد ـ لا يهتمون لكل ما عدا ذلك، فهم لا يطلبون الأموال، ولا مجرد إسقاط الهيبة، ولا حتى إسقاط الكيان الحاكم، ولا غير ذلك من أمور الدنيا..

وهذا سيجعل بني إسرائيل في أشد حالات الرعب والذل..

حادي عشر: ومع ملاحظة هذا الذل الشديد أمام قلة من عباد الله غير معروفين، ومقايسته بذلك العلو الكبير على الله، فإن المذلة والمسكنة لبني إسرائيل ستكون أشد وأعظم.. لأن الهيبة تكون قد سقطت بهذا الجوس، والهزيمة الداخلية في الروح لكل فرد فرد منهم قد تحققت بأجلى صورة.

فإذا كان هؤلاء العباد أولي بأس شديد.. فذلك يعني: أن القوة لا تجدي معهم.. وهذا سيزيد من رعب بني إسرائيل في هذه المواجهة.

وهذا الرعب العظيم يأتي بني إسرائيل من قبل أناس هم مجرد

عباد لله، ولا يعرف الناس عنهم أكثر من ذلك، هو في مقابل ذلك العلو الإسرائيلي الكبير على الله.

ثاني عشر: إن هذا الجوس يستبطن التخفي، والخفاء، لأنه ليس تردداً وطوافاً بين الديار بصورة ظاهرة، بل هو بصورة خفية يعجز بنو إسرائيل فيه عن رؤية عدوهم.

فقد صرح أهل اللغة: بأن الجوس هو الطواف بين البيوت في الليل لأجل البحث باستقصاء.

وصرحوا أيضاً: بأنه بحث يشبه البحث عن الأخبار عند الناس..

وصرحوا أيضاً: بأن فيه معنى التخطي من شخص لآخر..

فتدلنا هذه الأمور الثلاثة على ما يلي:

ألف: أن ثمة تردداً وطوافاً..

ب: أن الطواف بالليل يعطي: أن هذا التخفي متعمد.. وهذا يزيد من رعب بني إسرائيل، لأنهم غير قادرين على رؤية عدوهم الذي يبحث عنهم، حتى لو كان أمامهم، وإلى جانبهم، وهذا يجعل احتراسهم منه صعباً أيضاً..

ج: إن الطواف في الليل بحثاً عن الأشخاص يعطي: أن العباد في النهار أيضاً ليسوا بعيدين عنهم، بل هم بينهم ليلاً، ونهاراً.. فكيف لا يرونهم، ولا يعرفون أماكن تواجدهم؟! وهذا يدل على حذق بالغ في التخفي..

د: إن ذلك يعني: أن ظهور بني إسرائيل في النهار سيكون

تعريضاً لأنفسهم لرصد عباد الله لهم، وتعرفهم عليهم، وسهولة معرفة مواقعهم، وأماكن تواجدهم في الليل، ويسهل على العباد الوصول إليهم في استقصائهم..

هـ: إن ذلك يسلب من بني إسرائيل الشعور بالأمن حتى وهم داخل بيوتهم، لأن عدوهم ينتظرهم، ويترصدهم، وهو في كل فرجة.. ويتردد بين بيوتهم بحرية وبأمان أيضاً..

و: إن تشبيه الجوس بمن يتجسس الأخبار عند الناس، ليحصل على ما يريده منهم، يدل على أن ثمة تلطفاً يمارسه العباد مع بني إسرائيل للتعرف على كل من يطلبونه منهم. وهو يدل على وجود تردد بين البيوت مع مخالطة وتعامل، وتصرف، ومراودة، وتعرف على الأشخاص أيضاً بصورة واسعة، وبالغة الدقة، لأن بني إسرائيل غير قادرين على كشفهم..

ز: كما أن تفسير الجوس بما يدل على معنى التخطي للأشخاص، يدل على أن العباد سيكونون قادرين على كشف أماكن الأشخاص ورؤيتهم، وقدرتهم على اختيار من يشاؤون منهم..

ح: إن ما روي عن الجنابذي يعطي: أن العباد سيكونون قادرين على الوصول إلى المواقع الخفية من ديارهم، ولا يقتصر الأمر على المراقبة من بعيد، ولا على الرصد من الخارج..

ط: إن قول مجاهد يدل على أن ثمة تنصتاً على ما يدور بينهم من أحاديث أيضاً، وعلى حضور مباشر ومخالطة لهم، وسماع أصواتهم،

ووعي لما يدور بينهم من أحاديث.. وأن الأمر لا يقتصر على المراقبة البصرية من بعيد.

مجرد جوس:

وقد اقتصر الحديث في المرة الأولى على مجرد الجوس خلال الديار. وهذا يعني: أن الهيمنة سوف تقتصر على هذا المقدار، أي أنها هيمنة الرعب، والتلويح للعدو بالقدرة على الوصول إلى أي فرد، وعلى الضرب في أي موقع وفي أي زمان، وإفهام بني إسرائيل بانكشافهم التام أمام القدرة الإستخبارية لعباد الله، وهذا ينتج استلاب الشعور بالأمن لديهم، دون أن يصل الأمر إلى حد الاجتياح المباشر، وإسقاط الحكم وتقويضه نهائياً.

ولعل سبب ذلك:

أولاً: أن هناك فرقاً بين القدرة على تقويض الشعور بالأمن، وإشاعة الخوف في أوساط العدو. وبين القدرة على تقويض النظام، واحتلال البلاد. فإن مستلزمات هذا وذاك تختلف وتتفاوت.

ثانياً: إنه حتى ولو كانت هناك قدرة على إسقاط الحكم، ولكن قد يصعب الاحتفاظ به بالنحو الصحيح والسليم الذي يتوافق مع النهج المعتمد والمرضي للتعامل مع الأمور، فيكون ضرر تضييعه والتخلي عنه بعد الإمساك به، هو الأعظم والأشد، وقد يكون ذلك من أسباب تعاظم خطر بني إسرائيل، واشتداد طغيانهم وبغيهم، وربما كان سبباً

في إلحاق خسائر أكبر بأهل الإيمان.. حين يتمكن بنو إسرائيل من تجييش الناس، واستنفار طواغيت الأرض ضدهم.

ثالثاً: إن الجوس خلال الديار أعظم أثراً على بني إسرائيل من إسقاط نظام حكمهم، وكسر شوكتهم، لأن هذا السقوط يمنحهم الأمن، والسكينة والطمأنينة كأفراد، لأنهم يظنون أنهم غير مقصودين بأشخاصهم، فإن الدول تزول وتتقلب من يد إلى يد، وتنتقل من فريق إلى فريق، والناس يعيشون حياتهم بصورة طبيعية، وهذا يسرع بعودتهم إلى التآمر ودس الدسائس، والسعي في الفساد والإفساد مع شعورهم بالأمن والأمان..

أما الجوس خلال الديار، فسيكون من أعظم العقوبات لهم، بملاحظة:

1 - أن بني إسرائيل مفسدون في الأرض، والمفسد يعرف أن الآخرين يتربصون به، لينتقموا منه، وليجازوه على أعماله، فإذا كان فساده هائلاً، بحيث يستقطب الأرض كلها، فإنه يعلم أن عقوبته لن تكون سهلة، بل ستكون بحجم إفساده.

2 - إذا أضيف إلى ذلك: أنه مستعلٍ، وهو يخشى على هذا الاستعلاء خشية كبيرة، فكيف إذا كان هذا الإستعلاء كبيراً، فإنه خشيته عليه ستكون أشدن وتألمه بفقدانه سيكون أعظم.

3 - إن اليهود منغمسون في حب الدنيا، وحريصون حرصاً بالغاً على أتفه حياة فيها، لا سيما وأن توراتهم تكاد لا تذكر لهم الآخرة ولا

تحدثهم عنها، ولا تشير إلى الحساب والعقاب والثواب، والجنة والنار فيها.. وإن كانت قد ذكرت لهم وادي الهلاك. فالدنيا هي بالنسبة إليهم كل شيء، فهي الأول والآخر، والظاهر والباطن.. ومن كان حاله هكذا، فإن ملاحقته من قبل عباد الله، الذين يبغضهم أشد البغض، ويخشاهم أشد الخشية، والذين وصفهم الله له: بأنهم أولي بأس شديد، ستكون خشيته منهم أعظم، وخوفه منهم لا ينتهي إلى حد.

4 ـ يضاف إلى ذلك: أنهم يدَّعون أنهم أولياء الله وأحباؤه، وأبناؤه المقربون، وشعبه المختار، وأن الآخرين مخلوقون من أجلهم ولخدمتهم.. فإذا غضب الله عليهم، وترك أعداءهم الذين هم قلة قليلة، وغير معروفة يلاحقونهم وبهذه الشدة والحدة، ويجوسون خلال الديار بحثاً عن كل فرد فرد منهم.. فإن هذا يزيد من ألمهم وعذابهم، وضعفهم وذلهم وخزيهم.. وسيضاعف آلامهم، ويزيد من عذابهم: أن يكون الذين يلاحقونهم حتى في فجوات الديار هم على النقيض منهم، زاهدون بالدنيا، طامحون للآخرة، متعلقون بها.

وذل العالي على الله، والمستكبر على يد أمثال عباد الله سيكون أكبر وأشد عليه، لأنه ذل المستكبر، وسقوط العالي حتى على ربه، على يد من يعتبره خادماً له، وأبغض الخلق إليه، وقال تعالى: (**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آَمَنُوا الْيَهُودَ**)(1)، فكيف إذا كان هذا الخادم

(1) الآية 82 من سورة المائدة.

يطلب ذلك المستكبر العالي تحت كل حجر ومدر؟!

لم يقل: خلال البلاد:

وقال تعالى: **(خِلَالَ الدِّيَارِ)** ولم يقل: «البلاد» مثلاً.. لأنه إذا كان المقصود هو البلاد.. فيمكن أن لا يكون نفس الأشخاص الذين يعبثون فيها موضع اهتمام كبير له، إلا في حدود دفع مقاومتهم، وإزاحتهم من الطريق، ليتمكنوا من السيطرة على البلاد التي هي مقصودهم، فلو أن أحداً لم يقف في طريقهم، فإنهم قد يصرفون النظر عنه، ولا يتعرضون له..

ولكنه حين قال: **(خِلَالَ الدِّيَارِ)**، عُرِفَ: أن المطلوب ليس هو مجرد التسلط على البلاد، وليس المقصود الديار نفسها، وما فيها من أموال وسواها.. بل المطلوب هو الأشخاص أنفسهم دون أي شيء آخر..

الديار مواضع الأمن والطمأنينة:

والديار هي المواضع التي يألفها الإنسان، وتسكن إليها نفسه، وهي موضع طمأنينته، وأنسه، وراحته، فإذا أصبح عدو الإنسان يبحث عنه في فجوات دياره ومواضع سكنه، فذلك يعني: أن الأمور قد بلغت حدها الأقصى.. وأنه لا مكان له يسكن إليه، أو يعول عليه، أو يتعلق قلبه به..

الألف واللام في «الديار»:

وقد جاءت كلمة ديار معرفة بلام العهد. فلم يقل: «خلال دياركم»، أو مواضع سكناكم، لأنه لا يريد أن ينسب الديار إليهم، لكي لا يتوهم أحد أن لهم بها أي حق أو ارتباط، مهما صغر، فلا رابطة ملكية، ولا رابطة إجارة، ولا حق لهم بالنزول فيها، والسبق إليها، ولا رابطة لهم بها نشأت عن سماح أصحابها لهم بالنزول فيها، ولا أي حضور لهم مشروع فيها.. بل لا يريد أن يعترف لهم بأية سلطة عليها، ولو كانت سلطة المعتدي والغاصب.. بل يريد أن ينفي حتى صلاحية الانتساب إليها، ولو بمقدار نسبة «الجل للفرس» أو «اللجام للدابة».

بل لعله تحاشى أن يقول «المساكن» بدل الديار لكي لا يشعرهم بأنها قد توفر لهم أي قدر من السكون، أو السكينة بأي حال..

والديار هي المواضع التي يكون لها حائط يدور عليها. سواء أكان له سقف، أو لم يكن..

واستبعد أيضاً كلمة «بيت»، ربما لكي لا يشير إلى معنى البيتوتة فيها، بل اختار كلمة لا تفيد أكثر من معنى تحديد مكان معين بصفة تعني نفس ذلك المكان، ولا تشير إلى أي شيء آخر من خارجه، لا إنسان ولا حيوان ولا أي شيء من أنواع المعاني والحالات والصفات، كالبيتوتة، والسكن والنزول، أو الإضافة إلى شيء آخر، أو الصلاحية لأي شيء. فقال: (**الدِّيَارِ**). أي المعروفة والمعهودة..

وإنما هي معهودة بانتسابها إلى مالكيها. وبحلول غاصبيها فيها.

فالعهد الذهني لا بد أن يرتبط بين الدار ومالكها. وما جرى عليه من غاصبها من بغي، واضطهاد، إن لم يكن قد قتله هو وعائلته، وأباد خضراءهم..

ثلاث تأكيدات:

وقال تعالى: **(وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا)**.

وقد تضمنت هذه الفقرة من الآية ثلاث تأكيدات هي التالية:

1 - إن كلمة **(وَكَانَ)** لا يراد بها الزمان، بل يراد بها التأكيد على الثبوت والحصول الحتمي، بالإستفادة من معنى الكينونة والتحقق الذي ألمحت إليه كلمة كان.

وهذا هو التأكيد الأول.

2 - التأكيد الثاني بكلمة **(وَعْدًا)** حيث لم يقل: كان أمراً، لأنه تعالى يريد أن يدخله في دائرة الوعد الإلهي أيضاً وفقاً لما ذكرناه فيما سبق.. من حيث أن هذا الجوس خلال الديار هو نصر عظيم لعباد الله، يفرح قلوبهم، ويزيد في عزتهم، ويقوي شوكتهم، وقد وعدهم الله تعالى به، وهو تعالى لا يخلف الميعاد. ولأن الله هو الذي جعل للأسباب والعلل خصوصية العلية والسببية. صح أن يصفه بالوعد..

بل هو وعد لبني إسرائيل أيضاً، ولكن على قاعدة: **(ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ**

الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)(1). فإنه في خطابه لهم قد وصف هذا الأمر المسيء لهم بأنه وعد، وهذا يأتي على سبيل التندر والسخرية بهم.

وإنما قال: **(بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا)** ليبين لهم طبيعة العقوبة التي يبشرهم بها، من خلال بشارتهم بسببها، وهو إفسادهم وعلوهم.

كما أن التعبير بالوعد في مثل هذا المورد يتضمن موعظة لكل من لم يتعرض لهذا البلاء: بأن هذه هي عاقبة التمرد على الله تعالى، ويعرفهم أيضاً: بأن حصول ذلك إنما هو وفق السنن التي أودعها الله تعالى في مخلوقاته..

وحيث إن هذه السنن متضافرة على حصوله، فإنه تعالى يخبر عن هذا الحصول بصورة جازمة، وينسبه إلى نفسه، لأنه هو واضع السنن ومجريها في مخلوقاته حسبما أوضحناه أكثر من مرة..

3 ـ إن التصريح بالوفاء بالوعد في قوله: **(مَّفْعُولاً)** هو الآخر تأكيد يضاف إلى نظائره على وقوع هذا الأمر وفقاً لأسبابه وعلله حسبما ألمحنا إليه..

بين وعدين:

قد يقال: كيف وصف الله تعالى الإفساد الأول لبني إسرائيل بأنه وعد، فقال: **(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا)**، ثم وصف الجوس خلال الديار

---

(1) الآية 49 من سورة الدخان.

بأنه وعد.. مع أن الوعد هو البشارة بالأمر المحبوب. فإن العباد وإن كانوا يحبون أن ينصروا على أعدائهم، أعداء الله.. فالإخبار عن هذا النصر وعد إلهي، ولكن لا يمكن أن يكون الإخبار عن الإفساد الأول والعلو الكبير لبني إسرائيل وعداً، لأن ما يبشرهم به ليس أمراً حسناً، بل هو قبيح يستحقون عليه العقاب؟!

ونجيب:

بأنه قد تقدم: أن وصف الإفساد والعلو بالوعد إنما هو بملاحظة ما يفكر به بنو إسرائيل، وما تهفو إليه نفوسهم، ويعتبرونه بشارة، ووعداً. فإنهم يحبون العلو الكبير، ويرون الفساد صلاحاً على قاعدة: **(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ)**(1).

أو أنه اعتبره وعداً منه لهم على قاعدة: **(ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)**(2)، كما ذكرنا آنفاً.

ثم كلم المؤمنين بما يحبونه وتهفوا إليه نفوسهم، وجعله وعداً على نفسه.. وهذا وعد لهم أيضاً، فيكون هذا المورد وعداً للفريقين، ولكنه يختلف في الحيثيات الملاحظة فيه بالنسبة لكل فريق بحسب حاله.

---

(1) الآيتان 11 و 12 من سورة البقرة.

(2) الآية 49 من سورة الدخان.

من التصور إلى التصديق:

والتوصيف للوعد بأنه سوف يفعل، له فائدة أخرى، وهي: أن كلمة الوعد تحمل معنى أن الحصول سيكون في المستقبل، وتسوق الفكر الإنساني إلى التلذذ بتوقع الحصول، وهو ـ أعني كلمة وعد ـ يضع بينه وبين حصوله فاصلاً زمانياً يحاول ذهن الإنسان أن يتخطاه، ويختزله من مخيلته.. ليشرف على لحظة حصوله، وليستعرض حركة الحصول الموعود به عن قرب..

وإذ بكلمة (**مَّفْعُولاً**) تأتي لتساعده على هذا الاختزال، وتضع السامع أمام حركة الحصول مباشرة.. فيتجاوز بذلك الحالة الذهنية التصورية لصورة جامدة وغائمة، ليجد نفسه أمام صور تفصيلية متتابعة لحركة الولادة العملية التدريجية للموعود به، فيتلذذ بهذه الصورة بصورة أوفى وأتم، لأنها عبارة عن صور تتوالى وفق حركة الواقع، فيتبلور لديه شعور بأنه إنما يستعرض أمامه واقعاً حياً يتحرك أمامه كأنه يراه بأم العين، ويعيش معه، ويتفاعل به، مع أنه مجرد اختلاق ذهني لواقع اقتراحي افتراضي..

وبمقدار ما لهذه الصورة من أثر إيجابي على العباد، فإنها ستكون مؤثرة سلباً على أعدائهم من بني إسرائيل..

الفصل الثالث:

رد الكـــــــــــــــرة..

(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا).

ردُّ الكرة في الآية:

تفيد هذه الآية المباركة، ما يلي:

1 - اعتبرت جوس عباد الله خلال الديار، ووصول الأمور إلى هذا الحد نهاية مرحلة، لأنها حققت ردعاً لبني إسرائيل عن مواصلة إفسادهم الكبير في الأرض كلها.. وخفت بذلك وطأتهم، وانحسرت أضرارهم، وأوقفتهم عند حد معين.. وبذلك تكون مهمة عباد الله أيضاً قد انتهت عند هذا الحد بالنسبة لهذه المرحلة. إذ ليس المطلوب منهم ملاحقة كل مظاهر الفساد.. بل المطلوب منهم منع الفساد الشامل.

2 - لوحظ: أن بعث العباد في الإفساد الأول قد جاء فور حصول ذلك الإفساد، بلا فصل، فقال: **(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا..)**، فلا فاصل بين البعث وبين مجيء الوعد للإفساد الأول المصاحب للعلو الكبير..

3 - إن الفاصل بين بعث العباد على بني إسرائيل، وجوسهم خلال الديار، وبين رد الكرة لبني إسرائيل على العباد كان طويلاً، ولذا جاء

بكلمة: «ثم» التي هي للتعقيب مع التراخي. أي أن رد الكرة الذي سيكون عقيب البعث وجوس العباد خلال الديار لن يأتي مباشرة، بل سيكون بعد مدة طويلة..

4 - إن المواجهة بين عباد الله، وبين بني إسرائيل تبقى قائمة طيلة هذه المدة. والشاهد على ذلك: التعبير بكلمة «رد الكرة»، لأن هذه الكلمة إنما تستعمل للتعبير عن سير المعارك الحربية التي يكون فيها كر وفر، وهجوم وانكسار، ثم هجوم مضاد، وما إلى ذلك..

فالتعبير برد الكرة يفيد: أن المواجهة بين الفريقين باقية، وأنها ستبقى مواجهة عدوان وحرب، أو تدبير واستعداد لها، ومكايدة، ومعاندة.. وليست مواجهة سلمية، أو تنافسية، ثم يطرأ ما يعكر صفو السلم، ويعدل بالأمور إلى الحرب..

5 - وحين يستكمل بنو إسرائيل الإعداد والاستعداد، يبادرون إلى شن الهجوم الذي سوف يكون دافعهم إليه هو إعادة الاعتبار بعد الذل الذي نالهم نتيجة البعث الأول للعباد الذي توج بالجوس خلال الديار..

6 - ويستفاد من هذا أيضاً: أن هيمنة عباد الله على الموقف الكابح لجماح بني إسرائيل سوف تطول.. وستبقى لهم القدرة على الجوس خلال الديار، وسيبقى الرعب مهيمناً على قلوب بني إسرائيل..

7 - إنه تعالى لم يشر إلى تحطيم علو بني إسرائيل، ولا إلى زوال كيانهم وتحطيم قدراتهم.. بل أشار إلى الجوس خلال الديار، الذي ستكون له لوازم كثيرة، من الرعب الذي من شأنه أن يقمع بني

إسرائيل، ويرد عاديتهم، ويوقفهم عن مواصلة مسيرتهم، ويحد من فاعليتهم في الفساد والإفساد الظاهر، وإن كانت مكائدهم لا تنتهي، ومكرهم الخفي لا يتوقف، وتحريضهم على عباد الله والتهيؤ لحربهم يتواصل ويستمر..

فالظاهر: أن علوهم يبقى، وقدراتهم لا تزول، وكيانهم العام يبقى متماسكاً..

رد الكرة لا يعني النصر:

وينبغي لفت النظر هنا: إلى أنه تعالى قد اكتفى بذكر الكرة لبني إسرائيل، وتوصيف فائض القوة في المال، وفي كثرة الأبناء، وكثرة النفير الذي سيمكنهم من ذلك، أو فقل: الذي يجرئهم على التحرك ضد عباد الله..

ولكنه تعالى لم يصرح بحصول النصر لهم..

ومن المعلوم: أن رد الكرة لا يعني سوى أن الفريق المهزوم قد تمكن من تجميع قواه، وعاد إلى اتخاذ صفة الهجوم.. الأمر الذي يشير إلى أن أمراً ما قد تغير، إما في موازين القوة المادية، أو في الخطط الحربية، أو في التحالفات، والاصطفافات قد جرأ هذا العدو ـ المتمثل ببني إسرائيل هنا ـ للوقوف على قدميه، والعودة إلى ساحة القتال، فتسمى هذه العودة «كرة بعد فرة»، فإن الكر إنما يكون بعد الفر..

وبذلك يتبين لنا أمور:

الأول: أن بني إسرائيل في الإفساد الأول يفرون من ساحة القتال، وينجحرون في بيوتهم إلى الحد الذي يمكِّن عباد الله من الجوس خلال الديار، وملاحقتهم، حتى في عقر دارهم لكسر شوكتهم..

وربما يتم هذا التراجع تحت ستار التهيوء للجولة التالية، ويصاحبه تهديد ووعيد يتمكنون به من التغطية على الرعب القاتل، والهزيمة البشعة التي حاقت بهم.. فلا يستطيع الناس العاديون تلمس حقيقة ما جرى.. ولذا اكتفى سبحانه بذكر لوازم الهزيمة النفسية القاتلة، ولم يصرح بها، لأن الناس قد لا يصدقون ذلك، وهم يرون القدرات المادية والتسليحية لبني إسرائيل مع احتفاظهم بكيانهم القائم، ومع مواصلتهم للعربدة والتهديد والوعيد..

الثاني: أن الجوس خلال الديار الموجب للرعب القاتل هو من مفردات النصر المؤزر الذي يتحقق لعباد الله..

الثالث: أن بني إسرائيل سوف يعودون للكر بعد الفر، ويستعيدون قدراً من الثقة بالنفس بسبب ما يحصلون عليه من قدرات مادية، وأموال هائلة، وكثرة أبناء، وجيوش جرارة.. الأمر الذي يعطيهم الشجاعة للعودة إلى ساحة المواجهة..

الرابع: إن ذلك لا يحقق لهم نصراً حاسماً على عباد الله، ولا كسراً لشوكتهم، بل هو لا يعدو كونه مجرد عودةٍ للمواجهة،

واستعراض قوة يمنحهم شعوراً بقدر من الأمن في ظل هذه القدرات.

الخامس: إن شعورهم بهذا الأمن سوف يجرئهم على معاودة الإفساد من جديد.. فتفاجئهم الضربة الثانية لعباد الله كما سنرى..

التأكيدات في: (ثُمَّ رَدَدْنَا):

1 ـ ولسنا بحاجة إلى التذكير بأن تحديد مقدار الوقت لعودة الكرة بكلمة **(ثُمَّ)** وسائر الخصوصيات والتفاصيل التي يمكن فهمها من كل كلمة.. هو من موجبات اكتشاف مدى الحرص على إفهامنا بأن هذه الأمور واقعة لا محالة..

2 ـ كما أن كلمة **(رَدَدْنَا)**، حيث لم يقل: «نَرُدُّ» تفيد: أنه يريد أن يعتبر هذا الأمر بحكم الحاصل الذي أصبح من الماضي. وحتى ليصح الإخبار عن وقوعه حتى قبل أن يحين وقته.

3 ـ إن كلمة «نا» في قوله: **(رَدَدْنَا)** حيث لم يقل: «أَرُدُّ». قد أريد بها أن يكون الكلام من مقام الجلال والعظمة والعزة.. وهذا يزيد من درجة التأكيد على وقوع المضمون.

من الذي يرد الكرة؟!:

قد يتساءل المرء، فيقول:

1 ـ قد دل قوله تعالى: **(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا)** على أن الله تعالى هو الذي يفعل ذلك، مع أن بني إسرائيل هم الذين جمعوا وتهيأوا وتنقبوا لقتال عباد

الله، فكيف يمكن فهم هذا الأمر.

2 ـ **يضاف إلى ذلك:** أن هذا العمل من بني إسرائيل هو من قبائحهم ومعاصيهم، فكيف ينسب سبحانه هذا الأمر لنفسه، ويقول: (**رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ**) أي على عبادنا؟!

3 ـ **وأخيراً:** إذا كان الله تعالى هو الذي بعث العباد على بني إسرائيل عقوبة لهم على إفسادهم.. فلماذا عاد ورد الكرة لبني إسرائيل على عباده، فهل هو سبحانه يفعل الشيء ونقيضه؟!

ونجيب:

بأنه قد تقدم: أنه تعالى يريد أن يفهم بني إسرائيل أنه هو المهيمن على الكون كله، وهو المتصرف فيه، وأنه ليس كما يقول اليهود: (**يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ**). وليس محكوماً بقدره وقضائه.. كما يدعون.

وقد ذكرنا في أكثر من مناسبة: أن الله تعالى أودع في هذا الكون سنناً وضوابط، وأجراها وفق قانون العلل والأسباب. واختيار الإنسان واقع أيضاً في سلسلة هذه العلل..

ويبقى بعد ذلك كله الخلق والأمر والفيض كله بيده تعالى. وهو المهيمن على الأسباب والمسببات، وهو الذي يفيض أو لا يفيض الوجود على المعلول إذا وجدت علته، وعلى المسبب إن توافرت أسبابه، التي قد يكون منها اختيار الإنسان.

وعلم الله تعالى بما يختار الناس، وبمسار الأمور، وبما كان، وبما يكون لا يعني إلا حتمية مطابقة الواقع العيني لعلمه تعالى. ولكن

ذلك لا يعني الإكراه والإجبار، فإن من يعلم بأن الشمس سوف تطلع غداً من دون ريب، لا يكون علمه بذلك هو السبب في طلوعها، وكذا إذا علم بأن فلاناً سيموت بعد ساعة بسبب شربه السم، فذلك لا يعني أن علمه بذلك كان سبباًَ في موته..

وعلم الله تعالى بما يفعله البشر باختيارهم، لا يعني أنه سوف يوجد هو تلك الأفعال رغماً عنهم، وبالإكراه والإجبار منه لهم.

فالمراد بقوله تعالى هنا: **(رَدَدْنَا)** و **(وَأَمْدَدْنَاكُمْ)** و **(وَجَعَلْنَاكُمْ)** هو السماح للأمور بأن تجري وفق أسبابها، وعدم الحيلولة بين السبب والعلة، وبين المسبب والمعلول.

وذلك لأن الله تعالى يتعامل مع الناس بطريقتين:

إحداهما: طريقة التأييد، والتسديد، والتوفيق والإمداد بالألطاف للمؤمنين الذين يعملون الصالحات ويطيعون الله وفقاً لقوله تعالى: **(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)**(1). وقوله تعالى: **(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)**(2). فلأن العباد هنا أرادوا طاعة الله سددهم، ووفقهم، وفتح بصائرهم على الحق.. وأعطاهم آثار أعمالهم ـ أعمال الخير ـ كاملة غير منقوصة، ودافع عنهم على قاعدة: **(إِنَّ اللهَ**

---

(1) الآية 17 من سورة محمد.

(2) الآية 96 من سورة الأعراف.

يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)[1]، ونصرهم على عدوهم وثبت أقدامهم على قاعدة: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)**[2]، ووفقهم وسددهم، وهداهم إلى الحق وجعل لديهم الدافع لنصرة دينه حتى صح أن يقول: **(بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا)**.

الثانية: طريقة الإملاء والإمداد في الطغيان لقوله تعالى: **(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)**[3]. وقوله تعالى: **(..وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)**[4]. كما أنه يزيغ قلوب أهل الزيغ لقوله تعالى: **(..فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)**[5]. فإن للمعاصي آثارها. حيث إن المعصية تحدث في القلب نكتة سوداء، ثم تزداد اتساعاً تبعاً لازدياد المعاصي[6].

---

(1) الآية 38 من سورة الحج.

(2) الآية 7 من سورة محمد.

(3) الآية 178 من سورة آل عمران.

(4) الآية 15 من سورة البقرة.

(5) الآية 5 من سورة الصف.

(6) راجع: الكافي ج2 ص271 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج15 ص302 و (الإسلامية) ج11 ص239 وبحار الأنوار ج70 ص327 وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج4 ص36 وج8 ص522 وميزان الحكمة ج2

وللمعاصي آثارها على البلاد والعباد أيضاً، وفقاً لقوله تعالى: **(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)**[1].

فحجب الألطاف عن العاصين، ولا سيما مع عدم مبادرتهم للتوبة التي تغسل قلوبهم، وتطهرها، وعدم اكتسابهم حسنات يذهبن بالسيئات، وتراكم المعاصي، وتعاضد آثارها يزيد في عمى القلوب، وفي الإمعان في الانحراف، والحرص عليه، والتعلق به. وبسبب معاصيهم يختم الله تعالى على قلوبهم وعلى سمعهم، ويصبح على أبصارهم غشاوة.. قال تعالى: **(خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيم)**[2].

وقال الله تعالى: **(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)**[3]. والمرض الذي في قلوبهم يدعوهم إلى المعاصي أيضاً. كما هو واضح.

فظهر بذلك كله: أنهم هم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك كله، فحصل لهم زيادة المرض، والختم على القلوب والأبصار، فلا تستقبل نور

ص994 وج3 ص2470.

(1) الآية 41 من سورة الروم.

(2) الآية 7 من سورة البقرة.

(3) الآية 10 من سورة البقرة.

الحق، وكان ظهور الفساد في البر والبحر، كما أنه بسبب زيغهم أزاغ الله قلوبهم.

وإذ قال الله تعالى لبني إسرائيل: (**ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً**)، فإن ذلك إنما هو بتمكينهم من الاستفادة من السنن.

ويكون حجب الله ألطافه عنهم، وكثرة معاصيهم، وإصرارهم على الجريمة والإثم، وعداوتهم للحق وأهله، وعلوهم على الله، وإمعانهم في الغي والضلال هو الذي يدعوهم لجمع الأموال، وتجييش الجيوش لحرب عباد الله، وهو الذي يحبب لهم إلقاح الفتن، والختل والمكر والغدر، وارتكاب الجرائم والمخزيات، والإيغال في الآثام والموبقات.

كما أن الله تعالى يمد الكافر والعاصي، لا بمعنى أنه يساعده على المعصية والجريمة، بل بمعنى أنه تعالى أخذ على نفسه أن لا يظلمه، وأن يفيض الوجود حين يهيء أسباب الوجود على ما يختاره، فإذا أكل ـ مثلاً ـ يجعل هذا الطعام يؤثر أثره في تقويته، وإذا شرب الدواء جعل الدواء أيضاً يؤثر أثره المتوقع منه في الشفاء، وإذا زرع، جعل الزرع ينبت، والشجرة التي يغرسها تكبر وتثمر..

وهكذا يقال في كل ما يرتبط بتسبيب الأسباب العامة، وتحريك السنن المودعة فيما حوله في كل هذا الوجود، فلا يحجب شيئاً عنه حتى لا يكون ظالماً له.. حتى لو استعمله في المعاصي أيضاً. وهذا

هو معنى الإمداد له. فإنه في الحقيقة عدم المسارعة إلى أخذه بذنوبه، لا أكثر من ذلك.

وأما بعثه عباد الله على بني إسرائيل، فإنما هو بهداياتهم التي قبلوها، وبالأوامر التي أصدرها لهم فيما يرتبط بقتال الظالمين ودفع عدوان المعتدين، وإفساد المفسدين، وبالتربية الإيمانية الصحيحة، وبالترغيب بالجنان، والتحذير من النيران، وما إلى ذلك.. بالإضافة إلى التوفيقات لهم، ولا سيما تلذذهم بطاعة الله، وازدياد رغبتهم فيها، وحرصهم عليها، وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم بأسبابه الطبيعية أيضاً..

وخلاصة الأمر: إن ما يوجب الإشكال هو أن يبتدئ الله المجرم والطاغية بالعطاء من دون تسبيب للأسباب من قبل ذلك المجرم..

والذي أشار إليه الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات إنما هو مجرد إفساح المجال للأسباب الطبيعية، وللأسباب التي يمهدها لتؤثر آثارها، وفق السنن العامة التي أخذ الله تعالى على نفسه أن يجري الأمور في خلقه كله وفقها، أو من خلالها، كإنبات الزرع، ونشوء الجنين بسبب المقاربة بين الذكر والأنثى، وما إلى ذلك.

وفيما عدا ذلك، فإن الله تعالى حجبه عنهم، وذكر سبب هذا الحجب، فقال: **(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ**

الدُّنْيَا)[1]

أما بالنسبة للمؤمنين، فهناك إفاضات تقتضيها العلل والأسباب التي يمهدونها، وهناك إضافات أخرى على قاعدة: (**..لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)**[2].

والآيات المتقدمة من سورة الزخرف تشير إلى أن حكمته تعالى اقتضت التسوية بين الناس: مؤمنهم وكافرهم، فيما يرتبط بالعطاء الإبتدائي المعتمد على التسوية في إخضاع الأسباب لاختيارات البشر، ثم محاسبتهم على هذا الأساس، وتكون التفضلات الإلهية فيما عدا ذلك خاضعة لمبدأ الطاعة والتفضل بجعل المثوبات، وما يتبع ذلك من وعد بالألطاف، ونيل منازل الكرامة عنده تعالى..

والكافر المتمرد لا يستحق هذه التفضلات والمثوبات، والألطاف، فهي محجوبة عنه، وفق هذا القانون.

---

(1) الآيات 33 - 35 من سورة الزخرف.

(2) الآية 7 من سورة إبراهيم.

رد الكرة غير بعث العباد:

وهناك فرق آخر بين قوله تعالى: **(بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا)** وقوله تعالى: **(ثُمَّ رَدَدْنَا)** وهو أنه في مورد البعث يحتاج إلى إيجاد الداعي، ولو بالإغراء بالمثوبة، أو التخويف من العقوبة..

أما في مورد رد الكرة، فلا يحتاج إلى أكثر من عدم إيجاد المانع أمام بني إسرائيل، والتخلية بينهم وبين السنن، والسماح لهم بتوظيف الأسباب والعلل للحصول على مسبباتها ومعلولاتها.. في الإستيلاد وتكثير البنين، وفي حشد الناس للقتال، وفي إعداد الخطط، وجمع الأموال، وتهيئة وسائل الحرب، وما إلى ذلك..

فما يطلبونه هو: أن لا يحول سبحانه وتعالى بين الأسباب والعلل، وبين مسبباتها ومعلولاتها.. وأن تبقى سنن التكوين جارية كما كانت.

لماذا قدم كلمة لكم؟!:

وهنا سؤال يقول: لماذا قال تعالى: **(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ)**، ولم يقل: «رددنا الكرة لكم عليهم»، فهل من سبب لهذا التقديم؟!

ونجيب:

بأنه إذا قال: «رددنا الكرة لكم»، فذلك يعني: أنه تعالى هو الذي حرك بني إسرائيل للهجوم على عباده، وهو الذي منحهم هذه الفرصة، لأن الكرة نفسها بيده تعالى، فهو الذي صنعها لهم، فهو كقولك: «رددت

الشيء الفلاني إليك»، أي أنه كان معي، وتحت سلطتي، ولم يكن لك سلطة عليه. ثم أعطيتك إياه منحة مني لك، فصار لك حق التصرف به بعد خروجه مني..

أما إذا قال: «رددت لك الشيء الفلاني»، فذلك يعني: أن الشيء الفلاني أمره معلق في الهواء، فإما أن يكون بيدي، وأنا الذي أقرر أن أقدم فيه وأن أحجم.. وإما أن يكون أمره إليك أنت، وأنت الذي تقرر الإقدام والإحجام فيه..

وهذا المعنى الثاني هو المناسب لمقاصده تعالى هنا، لأنه يدل على مجرد التخلية بين بني إسرائيل وبين الكرة، فالخيار فيها لهم، فهم الذين يقررون أن يكروا، أو أن لا يكروا. وهو تعالى لا يتدخل في هذا الأمر لا سلباً ولا إيجاباً.

الألف واللام لماذا؟!:

وقد ذكر تعالى كلمة «الكرة» معرفة بالألف واللام، ولم ينكرها، فيقول: «رددنا لكم كرة عليهم» لأن هذا التنكير يؤدي إلى عكس المطلوب، لأن معنى العبارة يصير هكذا: إننا منحناكم فرصة لتكروا على عبادنا كرة واحدة، لأن التنكير يفيد معنى المرة الواحدة دون تكرار..

فإن كان المراد: أنه تعالى قد منحهم فرصة القيام بكرة واحدة، فهذا يصير من قبيل المنحة المجانية منه تعالى لبني إسرائيل لأمر

منحصر به، ثم مكنهم منه لكي يذلوا عباده وينتصروا عليهم.. وهذا معنى باطل وغير مقصود له تعالى..

وإن كان المراد: أنه قد خلى بينهم وبين عباده ليكروا عليهم كرة واحدة، فهو يعني أنه ظالم لهم، لأنه يحول بينهم وبين عباده في غير هذه المرة بصورة جبرية وقاهرة..

فتعريف الكرة بالألف واللام هو الأصوب، لأنه يدل على أنه تعالى قد أعطى الخيار في أمر الكر والفر لبني إسرائيل في كل زمان.. فالألف واللام هي الجنسية لا العهدية.. وبذلك يستقيم المعنى.

ثبات العباد في المواقع:

تقدم: أنه بمجرد حصول الإفساد الأول يبعث الله على بني إسرائيل عباداً له غير معروفين، ولكنه تعالى وصفهم لهم بقوله: **(أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ)**.. ولعلهم يذيقون بني إسرائيل بعض بأسهم هذا في أعمال حربية محدودة، لكي يتمكن الرعب منهم في نفوس بني إسرائيل، بنحو يصبح العباد قادرين على الجوس والتخلل بين فرج الديار.

فإذا حصل ذلك وطال انجحار بني إسرائيل في جحورهم، وصاروا يتعاملون بمكر وخبث.. ولم يعودوا قادرين على المواجهة المباشرة.

ثم يطول الزمن، وتتهيأ الأموال والبنون لبني إسرائيل، وتكثر

الجيوش التي تنفر للحرب معهم ومساعدتهم، فحينئذٍ ترد الكرة لبني إسرائيل على عباد الله. ورد الكرة هذا يكون لأجل زحزحتهم عن المواقع التي هم فيها، وتبديل الحالة التي هم عليها..

ونستطيع أن نتصور أن كلمة عليهم في قوله تعالى: **(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ)** تعطي معنى ثبات العباد في المواضع والمواقع التي هم فيها، وأن بني إسرائيل يحاولون في كرتهم الإستعلاء عليهم بالقهر والغلبة، وتبديل هذه الحال عن هذا الطريق.

ولكنه تعالى لم يشر إلى أنهم سوف يحصلون على ما يريدون، ويفرضوا إرادتهم، أم يفشلون.. غير أن نفس الاقتصار على ذكر رد الكرة، يعطي: أن غاية ما يفعله بنو إسرائيل هو مجرد العودة إلى المواجهة بعد فرار قد حصل لهم..

وأنهم إنما يتمكنون من ذلك بسبب الأموال الهائلة التي جمعوها، وكثرة البنين، والجيوش الجرارة التي استعانوا بها..

ولكن اللافت هنا: هو ما قلناه، من أنه ليس في هذه الآيات المباركة أية دلالة على أن بني إسرائيل سوف يدخلون في حرب فعلية ومؤثرة أكثر من العود إلى ساحة المواجهة، والتصدي.. الذي لم يعرف حجمه، ومقدار أثره، سوى أنه جرأهم على العود إلى الغطرسة والإفساد من جديد..

الإمداد بالأموال والبنين:

ثم قال تعالى: **(وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ)** وفي بيان بعض ما ترمي إليه هذه الآية نبدأ بالحديث عن الواو العاطفة في قوله: **(وَأَمْدَدْنَاكُم)**، فنقول:

إن ثمة سؤالاً يطرح حول المراد من هذه الواو، فإنها واو العطف بلا ريب، ولكن كيف يمكن استفادة نظم الأحداث في موقعها الزماني من خلالها؟! فهل حصل الإمداد قبل رد الكرة، أو بعدها، أو معها. وقبل تكثير نفير بني إسرئيل، أو بعده، أو معه؟!

وهل الترتيب في الذكر في الآية مساوق للترتيب في الحصول. أو ليس مساوقاً له؟! بدليل أنك إذا قلت: جاء زيد، وعمرو، وبكر، ربما كان ذكرك لزيد أولاً لأجل تعظيمه، وتكريمه، أو لأجل قربه من قلبك، أو لأجل أن اسمه مرتبط بذكرى لك معه، أو لاعتيادك على ذكر اسم زيد قبل عمرو، أو لأي سبب آخر.. مع أنه في الترتيب الخارجي قد يكون الأمر قد حصل على عكس ما ورد في الترتيب الذكري، أو بشيء من الاختلاف فيما بينهما..

والظاهر: أن هذا هو الحاصل هنا، بأن يكون الجوس خلال الديار قد طال أمده، وتهيأت الفرصة لبني إسرائيل لجمع الأموال، وتحريض الدول، وإقامة التحالفات، وكثرت ذريتهم، وشعروا بالقوة، فبادروا إلى التصدي للعباد..

ولعل أهمية هذا التصدي وخطورته، وكونه يمهد للعودة إلى

الإفساد الثاني قد دعا إلى عدم مراعاة الترتيب في الذكر وفق الترتيب في الحصول الخارجي، فقدم ذكر رد الكرة، لأنها المقصود الأهم، والحدث المتميز، فإن حصول الأموال، والبنين، وكثرة النفير إنما كانت من الممهدات له. فهو بيت القصيد.

وأما ادعاء أن الترتيب حسب الذكر مطابق للترتيب في الحصول الخارجي، فهو غير ظاهر الوجه، بل غير معقول، لأن بني إسرائيل لا يجرؤون على التحرك لولا حصول هذه الأمور لهم قبل ذلك.

ولو تجرأوا على الحركة لما تمكن عباد الله من الجوس خلال الديار..

فلما حصل لهم الأموال والبنون وكثر نفيرهم، وتراكمت بمرور الزمن هذه العوامل المؤثرة أنغضوا رؤوسهم، وخرجوا من جحورهم..

ولعل عودتهم إلى المواجهة والتصدي لم تستنفذ هذه الطاقات، بل بقيت في حوزتهم. ولكن رؤيتهم كثرة الأموال بين أيديهم، وكثرة البنين لهم، وكثرة النفير معهم.. قد جرأهم على معاودة الإفساد، ففاجأهم عباد الله بضربتهم الأخرى كما سنرى..

الإمداد يحتاج إلى زمان:

وواضح: أن قوله تعالى: **(وَأَمْدَدْنَاكُم)** يشير إلى وجود زمان طويل قد حصل هذا الإمداد فيه ـ يتناسب هذا الزمان في امتداده

وطوله مع قوله: **(ثُمَّ رَدَدْنَا)** التي تقدم أنها تفيد أيضاً حتمية حصول رد الكرة، وحتمية حصول الإمداد، وحصول كثرة النفير.. ولا سيما مع إسناد كلمات «ردّ»، و «أمدّ»، و «جعل» إلى ضمير جمع المتكلم، الدال على صدور الكلام من موقع العظمة والجلال..

ويدل على طول زمان جوس الديار، وبين رد الكرة لبني إسرائيل: أن حصول الأموال الهائلة، وكثرة البنين يحتاج عادة إلى زمان طويل تبذل فيه المساعي لجمع التبرعات، وللإستثمار في التجارات والصناعات، كما أن كثرة البنين تحتاج إلى سنين كثيرة تستغرقها عمليات الحمل والولادة، والتربية والتنشئة..

مثلث الأموال والبنين والجيوش:

وقد لاحظنا: أنه تعالى ذكر هنا أموراً ثلاثة، جعلها سبحانه منطلقاً للكرة التي يقوم بها بنو إسرائيل على العباد، وهي التالية:

1 ـ الأموال: التي هي القوة الإقتصادية التي تعطي القدرة على التحرك في مختلف الجهات، ولها دور رئيس في تلبية الحاجات.

2 ـ البنون: الذين يعطون للإنسان جرعة من الزهو والاعتزاز والغرور، والأمل بالمستقبل.. والإحساس بالحاجة إلى التوسع، والاستيلاء على البلاد والعباد، ولو بقيمة تشريد، أو إبادة شعوبها. وتسخير العباد لخدمة الأبناء وتحصيل مقومات البقاء، وجمع الأموال لحفظ مستقبل أبناء أعزاء يرون فيهم مصدر قوة لهم، وضمان بقاء

واستمرار لوجودهم..

وكثرة الأموال والأولاد هي طموح الفئات المتخلفة حضارياً وفكرياً وثقافياً.. الذين يعيشون للدنيا، وهي وحدها القيمة عندهم، وهي محط آمالهم، وقبلة أعمالهم.. فقد قال تعالى رداً عليهم: **(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً)**(1)، وقال تعالى: **(وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)**(2).

3 - كثرة الجيوش التي تنفر معهم للتصدي لأعدائهم الذين هم ضحايا ظلمهم، لأن هذا هو الذي ينسجم مع طبيعة التفكير المادي، ومع الرؤية التي يحملها بنو إسرائيل، فإنهم يريدون الحياة لأنفسهم بقيمة موت الآخرين، وأن يعيشوا برفاه ورخاء.. ولكن بجهد وعرق غيرهم.. وأن يعيشوا بسلام وأمن، ولكن بتضحيات الآخرين. بحيث تكون الأرواح التي تزهق من غيرهم، دفاعاً عنهم وليس منهم..

والحصول على هذه الأمور الثلاثة، بالإضافة إلى أنه يحتاج إلى وقت طويل، فإنه يحتاج أيضاً إلى المزيد من الخدع، وإثارة الفتن، وإلقاح حروب الإبادة بهدف الاستيلاء على مقدرات الشعوب، وعلى الأرض وخيراتها، وتسخير من يبقى من أهلها ممن هم بحاجة إليهم..

---

(1) الآية 46 من سورة الكهف.

(2) الآية 35 من سورة سبأ.

بالإضافة إلى سياسات ماكرة، وتحالفات ظالمة تنتهي بتجييش المستكبرين الظالمين ضد المستضعفين، ومن ينصرهم من المؤمنين.

الأموال والأولاد هما الأهم:

وينبغي أن لا نهمل الإشارة إلى أن الله تعالى قد أمد بني إسرائيل بالأموال والبنين، ولم يمددهم بالفكر والعلم، والثقافة، والقيم الإنسانية، والملك، والجاه.. لأن هذه الأمور لا تمثل لهم شيئاً، وهم إن طلبوها، فإنهم لا يريدون بها وجه الله، ولا خدمة الإنسان والإنسانية، بل هم سوف يوظفونها في جمع المال، وخدمة البنين، فإن وجدوا أن غيرهم سوف يستفيد من العلم، أو الجاه، أو الحكم والسلطة، أو أي شيء آخر في تحسين أوضاعه، وتصحيحها. وإن ذلك سيزيده قوة، ويعطيه ميزة، أو يمنحه تفوقاً، أو أرجحية.. فتجدهم في موقع المحارب له، الساعي لاستلاب ما عنده، وتحطيم قدراته، وهدر طاقاته، وإفقاده ميزاته..

تنوين التنكير:

والتنوين في كلمة «أموال» إنما هو للتنكير. وفائدته هنا: التكثير الذي يفيده الإبهام الذي يوحي بأنه يأبى عن أن يحيط به التصور. لأنه تنوين وارد في مقام الامتنان بالإحسان إليهم. الذي سيقابل منهم بالكفران، وعدم الشكر. بل بالبغي والتمرد والطغيان على الله، ورفض الانصياع لأوامره ونواهيه..

كثرة البنين لماذا؟!:

وقد وردت كلمة بنين منكرة أيضاً ليفيد التكثير لهم ـ كما كان الحال بالنسبة للأموال.

وقد ذكرنا: أن هذه الكثرات في خصوص هذين الأمرين هي طموح أهل الدنيا.. وليس لنا أن نظن أن تكثير الأولاد لبني إسرائيل، وصيرورة الأبناء رجالاً قادرين على القتال، هو الذي يدعو بني إسرائيل لإعادة الكرة.. فقد قلنا: إن بني إسرائيل يسعون إلى زج غيرهم في الحروب، وإبعاد أنفسهم وأبنائهم عنها..

وإنما تكون كثرة الأبناء ـ كما تقدم ـ من موجبات توفر العناصر التي تساعدهم على إنجاح سياساتهم التحريضية، وحياكة المؤامرات، وتجييش البلاد والعباد ضد أعدائهم.. باعتبار أن الأبناء هم مواضع أسرارهم، وهم الأمناء على قضاياهم. ومن أسباب تخفيف الأعباء التي يتحملونها في سبيل الوصول إلى أهدافهم الماكرة والشريرة..

كما أن كثرة الأبناء تزيدهم طموحاً للتوسع والإستيلاء على البلاد والعباد، وعلى ثروات الشعوب، وإلقاح الحروب والفتن فيما بينها، ليتمكن بنو إسرائيل من إبادتها، إما بالفتن، أو بأيدي الآخرين، بالإستفادة من المكائد والمصائد التي يتقنونها أكثر من أي شعب آخر.

وبذلك يحفظون مستقبل الأبناء الذين إذا كثروا كانوا امتداداً لهم، واستمراراً لوجودهم، وضماناً لبقاء أطروحتهم، ونهجهم وسياساتهم.

لماذا لم يمدهم بالذرية؟!:

ويلاحظ: أنه تعالى لم يقل: «أمددناكم بأموال وذرية» بل قال: **(وَبَنِينَ)**.. فيستفاد من هذا عدة أمور، نذكر منها:

ألف: أن ثمة برهة، ستمر على بني إسرائيل بعد الجوس تكون فيها ولادات الذكور هي الطاغية، فيكثرون بصورة غير عادية.. وهذا يحتاج إلى رصد دقيق لهذه الظاهرة، فإنها ـ إذا صحت استفادتنا لهذا المعنى ـ من مظاهر إعجاز القرآن التي ينبغي أن لا تفوت الدعاة والغيارى على نشر الدين..

ب: لست أدري إن كان اليهود سوف يستفيدون في هذه الظاهرة من الإنجازات العلمية ـ إن تحققت ـ ولاسيما في مجال التلقيح؟! وهل سيتمكن العلم من التحكم في الجينات لتحديد صنف الجنين ـ في مجالي الذكورة والأنوثة؟!

أما ما يسمى بالاستنساخ لو صدقت أحلامهم، فلا مجال في هذا المورد، لأن البنوة لهم لا تتحقق من خلاله..

ج: ربما كان القصد هو الحديث عن خصوص الأبناء المباشرين، ولا يشمل أبناء الأبناء والذرية.

د: ربما دلنا ذلك: على أن الفترة التي تكون بين الجوس خلال الديار، وبين كرتهم على عباد الله لا تزيد على الفترة التي يحتاجها نشوء جيل واحد من الناس، وهو جيل الأبناء، فلا يصل الأمر إلى

الجيل الثاني، لكي يعبر بكلمة ذرية.

والجيل الواحد يقدر بربع قرن من الزمان.. يزيد أو ينقص قليلاً. وربما كانت هذه الفترة إلى النقص أقرب، إذا أريد حفظ عنوان «بنين»، أو ناشئة تمتاز عن: الآباء ولو بالشكل، قبل أن يتحولوا إلى رجال، أو قوم، أو نحو ذلك.

د: يلاحظ: أن الإمداد بالبنين إنما يكون ـ عادة ـ باستفادتهم من سنة طبيعية هي علاقة الرجل بالمرأة، ومقاربته لها، ولا تتحقق البنوة بغير ذلك.. فلو أنه تعالى خلق أطفالاً من العدم، من دون مقاربة، وحمل وولادة، فإنهم لا يمكن أن يكونوا أبناء لهم، وإن كانوا تحت سلطتهم، وفي تصرفهم..

وهذا يدل على أن الإمداد الإلهي لهم بالأموال والبنين إنما يكون باستفادتهم من السنن المودعة في الأشياء التي تنالها أيديهم، فيكسبون بها الأموال، ويولد لهم الأولاد كسائر البشر الآخرين..

كثرة النفير:

ثم قال تعالى: **(وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا)**.

وقد ميز سبحانه موضوع النفير عن موضوع الأموال والبنين، فلم يكتف بالعطف بالواو، بل أضاف كلمة **(وَجَعَلْنَاكُمْ)** أيضاً.. ربما ليشير إلى ما قدمناه من أن كثرة النفير لا ترتبط بكثرة البنين.. فقد يكون النفير الكثير نتيجة تحالفات مع أقوام آخرين ليسوا منهم، يجدون

أن مصالحهم هي في معونة بني إسرائيل. ولعلهم يستفيدون أيضاً من مرتزقة يعتاشون عن هذا الطريق..

وهذا هو المتوقع من قوم يرون أنهم هم شعب الله المختار، وأن البشر إنما خلقوا من «نطفة حصان على صورة البشر»(1)، لأجل خدمتهم، وصور البشر منحت للخدم لكي لا يستوحش اليهود منهم..

حب المال:

1 - وقد أمد الله تعالى بني إسرائيل بالأموال التي قد تكون وبالاً عليهم، حين تكون سبباً في انقطاعهم عن الله تعالى، لتصبح هي الملاذ والمعتمد، والعضد والسند على قاعدة: **(يحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ)**(2)، فإن صاحب المال قد يرى أن هذا المال هو الذي يوصله إلى غاياته، ويحل له مشاكله، ويدفع عنه كل خطر وضرر، فإذا مرض يرى أن المال هو الذي يأتيه بالطعام والشراب، والري والشبع، وإذا خاف فالمال هو الذي يسخر له الرجال، ويهيء له السلاح لحراسته، وإذا احتاج فالمال يقضي حاجاته، وإذا أراد فالمال يوصله إلى مراداته، وإذا أراد التزين، فبالمال تكون زينته، والمال هو الذي يدفع عنه البلاء والشقاء، ويمنحه الخلود والبقاء.. فهو استغنى بما له عن الطلب من الله، وعن اللجوء

---

(1) الكنز المرصود ص 67 وراجع ص 68.

(2) الآية 3 من سورة الهمزة.

إليه، وعن الطاعة والخضوع له..

وهم يبخلون ويأمرون الناس بالبخل بهذا المال، حتى عن أعز الناس عليهم، وأحبهم إليهم.

وهذا الشعور بالغنى والاستغناء هو الذي يدعو الإنسان إلى الطغيان **(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)**[1]. وهذا هو سبب الدمار والبوار. ولأجل ذلك قال تعالى: **(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا)**[2].

2 ـ أما البنون الذين هم أيضاً من زينة الحياة الدنيا، فيكفي أن نضع الإنسان أمام قوله تعالى: **(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)**[3]. وقوله تعالى: **(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ)**[4].

والافتتان عن الحقائق هو أعظم البلاء، وهو سبب الخذلان والشقاء.. ولا نريد أن نقول أكثر من ذلك.

الإمداد:

ويلاحظ: التعبير بالنسبة للأموال والأولاد بكلمة: **(وَأَمْدَدْنَاكُم)**

---

(1) الآيتان 6 و 7 من سورة العلق.

(2) الآية 46 من سورة الكهف.

(3) الآية 14 من سورة التغابن.

(4) الآية 28 من سورة الأنفال.

التي تعني التدرج في العطاء، وتدل على حفظ حالة التوقع والأمل فيهم، وتواصل التفكير بالمال، وطلب الزيادة، وذلك يزيد من تعلقهم بالأموال والبنين، ويزيد من حرصهم وطمعهم. فكيف إذا كان ذلك يرتكز إلى خلفية: **(وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا)**؟![1].

فإذا كان من الخصوصيات الظاهرة لحب المال والبنين هو الإنقطاع عن الله، ونسيان الآخرة، وثوابها وعقابها، فإن الله تعالى يذكرنا بذلك كله، ليعيد إلينا التوازن، حين يقول: **(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا)**[2].

ولا بد من التأمل طويلاً في دلالات كلمة: **(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ)** في مقابل المال الزائل غير الصالح، والولد الطالح.. لا سيما وأن المال والبنين هما زينة الحياة التي هي أحط أنواع وأدنى مراتب الحياة، وهي الحياة الدنيا في مقابل الدار الآخرة التي **(هِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)**[3]، لأن الدار الآخرة هي التي يستثمر فيها صالح الأعمال، وهي الملائمة لحقائق التكوين، والمنسجمة مع كل حالاته ومفرداته، وهي موئل الآمال الهنية والرضية في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

---

(1) الآية 20 من سورة الفجر.

(2) الآية 46 من سورة الكهف.

(3) الآية 64 من سورة العنكبوت.

وهذا يشير إلى ضرورة استثمار الأموال في الأعمال الصالحة، وتوجيه البنين إلى طريق الخير والهدى، بدلاً من توظيف هذا وذاك في البغي والظلم، والطغيان والانحراف..

كما أن الباقيات الصالحات هي التي تثمر الخيرات والبركات.

أما الزينة، زينة الحياة الدنيا، فهي لون حائل، وسراب، أو ظل زائل، وعارض لا أصالة له، بل يضاف إلى شيء آخر ليكون هو الذي يظهر وجوده، ولا ثبات، ولا حقيقة له، إلا في محيط التخيل والتصور. وهذا هو المدى الذي يمكنه بلوغه في مجال التلذذ به..

يضاف إلى ما تقدم: أن كلمة **(وَأَمْدَدْنَاكُم)** تستبطن الاستدراج إلى التعلق بالأمل، الذي يعطي لذة تخيلية موهومة، تشبه إلى حد ما دور الزينة الظاهرية الزائلة التي وصف الله بها الأموال والبنين في الحياة الدنيا..

كما أن هذا الامداد يشير إلى وجود خطة إلهية استدراجية لهم، فيعطيهم الأموال والبنين، ليكونوا مصلحين وشاكرين، وإذ بهم تظهر تصرفاتهم أنهم من أشرس الطغاة والمتمردين.

جَعَلُ الْكَثْرَةِ!!:

ثم قال تعالى: **(وَجَعَلْنَاكُمْ)**. وقد تكلمنا عن صيغة الفعل الماضي، وإضافتها إلى ضمير جمع المتكلم، ودلالتهما على تأكيد المضمون العام، وأنه حاصل لا محالة.

وقد وردت كلمة «جعل» في القرآن في جملة آيات، منها قوله

تعالى: (**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**)(1).

وقوله تعالى: (**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ**)(2).

وقال تعالى: (**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا**)(3)، وغير ذلك..

فهل المراد بالجعل: الخلق والتكوين الذي هو إيجاد وفرض قاهر، وفيض باهر؟! كقوله تعالى: (**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا**)(4).

أو أن المراد بالجعل: هو وضع الشيء على وجه يكون قابلاً للبقاء والإستمرار مثل قوله تعالى: (**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**)(5)، وقوله تعالى: (**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا**)(6).

والوضع في هذين المثالين مستند إلى إنشاء اعتبار من قبل من يحق له الاعتبار والانشاء، وقد نشأ عنه منصب ومقام وموقع ليوسف «عليه السلام» يخوله التصرف في خزائن الأرض، وفق ما رسمه

---

(1) الآية 30 من سورة البقرة.

(2) الآية 40 من سورة إبراهيم.

(3) الآية 35 من سورة إبراهيم.

(4) الآية 5 من سورة يونس.

(5) الآية 55 من سورة يوسف.

(6) الآية 35 من سورة إبراهيم.

الله تعالى له، فصار هو المتكفل بحفظها، وصرفها في مصارفها المقررة كما أشير إليه بقوله تعالى: (**إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**).

وقد يكون الجعل بنحو آخر، يتم من خلال التوفيق والتسديد لحفظ وإبقاء حالة معينة، والسعي من خلالها لنيل مقامات، وبلوغ حالات أرقى منها، ولعل منه قوله تعالى: (**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ**). أي وفقني وسددني، وهبني من التوفيقات والألطاف ما يجعلني قادراً على إقامتها، وإظهار آثارها، حتى يصبح حضورها في حياتي كأنها أمر مجسد وملموس يراه الناس ـ ولو بآثارها ـ وكأنها أمر قائم وظاهر للعيان.

وكذلك الحال في قوله تعالى: (**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا**). أي اجعل له في التشريع ما يجعل له من الحرمة والجلال، والهيبة والعظمة في ضمير ووجدان الناس، بحيث يصبح انتهاك أية حرمة من حرماته، أو جرأة عليه، أو فيه أمراً غير قابل للحصول، حيث يجد الإنسان داخل ذاته من الروادع والموانع ما يحجزه عن أي شيء من ذلك، حتى تصبح هذه الحالة، أو هذا الشعور أمراً مستقراً ومستمراً في النفوس والقلوب عبر الأحقاب والأجيال.

وبعدما تقدم نقول:

لا شك في أنه ليس المراد بالجعل: الجعل التكويني، الذي هو من قبيل: (**جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا**)..

كما أنه ليس المراد به: إنشاء الاعتبار الذي ينتج عنه موقع، أو

مقام، أو منصب كمنصب يوسف: **(اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ)**.

وليس المراد به أيضاً: التوفيق والتسديد، والرعاية، والعود بالألطاف. كما في قوله تعالى: **(رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ)**.

وليس المراد به أيضاً: إنشاء أحكام، وتكريس خصوصيات معينة كما في قوله تعالى: **(رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا)**.

نعم، ليس المراد بقوله: **(وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا)** أياً من هذه المعاني.

بل المراد: أن السنن المودعة في الكون، والتي يقدر البشر كلهم على تحريكها، وما أخذه الله تعالى على نفسه، من عدم الحيلولة بين الناس وبين ما يختارونه هي التي أوصلت إلى جمع كل هذا النفير الكثير لبني إسرائيل..

ولأن الله سبحانه لا يعاجل بالعقوبة، بل هو يملي للكافر.

كما أن حب الناس للمال، وللدنيا، وتعلقهم بها.. إن هذا وذاك، بالإضافة إلى تلك السنين قد استغله بنو إسرائيل، ليجمعوا الناس من حولهم، وليقنعوهم بمعاداة أهل الحق، ويحالفوهم على حربهم، فتمكنوا بذلك من جمع الجيوش، وتكثير النفير.

فالمراد بالجعل: هو وضع هذه السنن، وهذه السياسة الإلهية المستمرة والسارية على الناس كلهم، والتي اقتضتها الحكمة، وفرضتها الرحمة والعدل، والذي أساء بنو إسرائيل الاستفادة منها، فقاموا بجمع الجيوش، وتكثير النفير.. على خلاف ما أراده سبحانه،

وفي غير مواضع رضاه.

ولك أن تشبه هذه الحالة بالماء الذي خلقه الله ليجعل منه كل شيء حي، ولينبت الزرع، وينمو الشجر، ويتكون الثمر، وليروى به العطشى من البشر، وتكون به طهارتهم وراحتهم، وموجبات سعادتهم.. وإذ بالإنسان يستعمله ليغرق به الأبرياء، ويتلف به الزرع، ويفسد به الممتلكات، ويتلف الأقوات، ويمحق به الخيرات، والبركات..

جعل الكثرات:

وفيما يرتبط بالكثرات التي أمد الله بها بني إسرائيل نقول:

1 - إنه تعالى قد أمد بني إسرائيل كثرة في الأموال والبنين.. وقد عرفنا طرفاً من أسواء هذين الأمرين.

وجعل لهم كثرة في النفير، فاستفادوا منها لمحاربة الحق وأهله..

فالمجعول لبني إسرائيل، والذي حصلوا عليه من الله تعالى هو الكثرات في هذه الأمور الثلاثة.

2 - يلاحظ: أن الكثرات حالة أو وصف خارج عن حقيقة ذواتهم، وهو أمر عارض، ولكن لغيرهم، وعلى غيرهم، فليست الكثرة هي من خصوصياتهم، ولا جزءاً ولا حالة، ولا دخل لها في شخصياتهم، ولا هي من أوصافهم.. فإن الكثير هو المال والولد والنفير، لا بنو إسرائيل. وقد تكون الكثرة منسوبة، أو فقل: عارضة على الشخص، ولكنه عروض في

غاية الضعف والهوان، لأنه متقوم بالغير أيضاً، كما في قوله تعالى: (**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ**)(1). فالكثرة ليست للشخص، وإنما تعرض له بانضمامه إلى الغير، ولكنه انضمام ضئيل وهزيل، بخلاف عروض الفوقية والتحتية للشيء، فإنها فيه أقوى من عروض الكثرة له بانضمامه إلى سائر مكونات منشأ انتزاعها.

وهذا يعطي بعض الوضوح للتهديد بجمع الناس في قوله تعالى: (**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ**)(2). وكذلك الحال في قوله تعالى: (**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ**)(3). فإن هذا الوهن في الجمع، والوهن في الكثرة.. وضآلة الشخص في مكونات منشأ الانتزاع، ولأن العزيمة تكون في الأشخاص أنفسهم، جاء الجواب هنا ليقول: (**فَزَادَهُمْ إِيمَانًا**)(4) وجاء الخطاب هناك ليقول: (**فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا**)(5). ولهذا البحث مجال آخر.

أما عباد الله تعالى، فإن ما منحهم الله إياه، وتفضل عليهم به، هو جزء من حقيقة ذاتهم، أو نابع منها وصادر عنها، أو كامن فيها، مثل العقل والحكمة، والدين، وحب الله، ومنازل القرب منه تعالى،

---

(1) الآية 1 من سورة التكاثر.

(2) الآية 173 من سورة آل عمران.

(3) الآية 25 من سورة التوبة.

(4) الآية 173 من سورة آل عمران.

(5) الآية 25 من سورة التوبة.

والهداية والملك، والنبوة، ومثل السداد، والرشاد، والهداية، والبأس الشديد، والعبادية، والعبودية، والعبادة لله، والصلاح، والفلاح، والرحمة، والخشوع، والأمانة، والوفاء، والتصديق، والهيبة، والشجاعة، والصدق، والخشية، والعلم, وغير ذلك مما لا مجال لحصره وعده.. وقد ورد في القرآن الكريم وعلى لسان الأنبياء والأئمة الطاهرين.

3 - وهذا يعطينا إشارة إلى السبب في أنه تعالى حين يذكر تعامل أهل الإيمان مع بعضهم، وقتالهم للكفار يصف أشخاصهم بالشدة مع الكفار، وبالرحمة مع المؤمنين، وليس جمعهم، ولا يذكر كثرتهم، فهو يقول: **(أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)**[1]، فيأتي بصيغة الجمع التي تعبر عن الأشخاص، بتعدد وتكرار، لأن الرحمة إنما هي في قلب الشخص، والشدة تكون في عزم الشخص بما هو شخص..

وهو يذكر فيهم أيضاً: الصفات الكامنة في أشخاصهم كأفراد، كالشدة والرحمة، كما قلنا، وكالبأس في قوله تعالى: **(أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)**، وقوله تعالى: **(أولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ)**[2]، والصبر في قوله تعالى: **(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ)**[3] أيضاً كذلك..

---

(1) الآية 29 من سورة الفتح.

(2) الآية 5 من سورة الإسراء.

(3) الآية 24 من سورة الرعد.

4 ـ والخلاصة: إن الجعل هنا قد توجه للكثرة، ولذا قال: **(وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ..)**[1]، ولم يقل: «جعلنا نفيركم»، أو جيشكم أكثر من جيشهم، أو أكثر من نفيرهم.. ليكون الجعل مُنْصَبَّاً على الجيش نفسه، فيكونه، ويوجده على هذه الحالة، أو على تلك الحالة..

أو فقل: إنك إذا قلت: جعلت الجيش كثيراً، فيحتمل فيها معنيان:

أولهما: أن الجيش كان قليلاً ثم زدت عليه وكثرته..

الثاني: أنك كونت من البداية جيشاً كثيراً.. فهو من قبيل: ضيق فم الركية، «أي البئر». أي احفر البئر بنحو يكون فمه ضيقاً. أي أوجده على هذه الحالة.. لا بأن تحفره واسع الفم، ثم تضيق هذا الفم الواسع..

وإذا قلت: اجعل الكثرة للجيش، فهو يعني: أن الجيش الموجود قليل، فيحتاج إلى تكثير، وإضافة..

والمقصود هنا هو هذا المعنى الثاني..

5 ـ إن هذه الكثرات هي التي تفرح قلوب الكفار، وهي المعتمد والسند لأهل الدنيا، وبني إسرائيل على الخصوص بحسب تفكيرهم، وهي تطمئنهم، وتمنحهم الأمل، والشعور بالأمن، والبقاء والخلود: **(يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ)**[2] ـ كما تقدم ـ مع أنها هي من أهم أسباب

---

(1) الآية 6 من سورة الإسراء.

(2) الآية 3 من سورة الهمزة.

شقائهم وبلائهم، ويكون بها هلاكهم في الدنيا والآخرة، لأنها مجرد زينة للحياة الدنيا ـ كما تقدم ـ.

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ) التي تصلهم بالله، وبحقيقة الوجود، واللامتناهي، وهي التي تمنحهم البقاء، وهي: **(خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا)**(1).

الجيش والنفير:

1 ـ ثم إن ثمة فرقاً بين الجيش وبين النفير العام، فإن الجيش مؤسسة تعد وتدرب، وتزود بما تحتاج إليه من عتاد، وإمكانات، وتكون ذات فرق مختلفة: بحرية وبرية، وغيرها. وبعضها ذات تخصصات وخبرة قتالية عالية، تعتمد عليها الدول في الدفاع عن الأوطان، وإخماد الفتن.. وإليها توكل المهمات القتالية الكبرى.

أما النفير العام، فهو استنهاض الأمة، أو الشعب، أو كل قادر على حمل السلاح والقتال للقيام بواجب قتالي كبير.. فينفر الناس للحرب، كل بحسب ما يحسنه، وما يطيقه.. والجيش تنشئه الدولة..

أما النفير في الآية فيراد به استنهاض المقصودين بالحرب، وحلفائهم، ولو من الدول والشعوب الأخرى. كما أن النافرين قد يكونون من الجيش النظامي، وقد يكونون من عامة الناس.

---

(1) الآية 46 من سورة الكهف.

2 - وهناك فرق آخر، وهو أن النفير يحمل معه معنى الاستعداد الفعلي لمباشرة القتال.. أما الجيش، فلربما بقي مدداً طويلة تعد بالسنوات يعيش في ثكناته دون أن يشعر بأي تهديد.

فلعل المطلوب هو الإلماح إلى هذا الاستعداد الفعلي لمباشرة الحرب، ولذلك قال: (**أَكْثَرَ نَفِيرًا**). مع الإشارة إلى وجود مواجهة فعلية مع عدو متأهب قد استنفر قواه، وهذا ما يستفاد من كلمة (**أَكْثَرَ**) التي تعني المكاثرة والمفاضلة. لاسيما وأن كثرة النفير تعطي قدراً من السكينة والطمأنينة، والشعور بالسلامة والأمن.

الفصل الرابع:

الإنتظار للإختبار..

أو

(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا)

القرار الحاسم بعد رد الكرة:

وتتوقف الأمور عند حد رد الكرة لبني إسرائيل على العباد، بعد أن أصبح لدى بني إسرائيل ثلاثة أمور:

1 ـ أصبحوا يملكون الأموال الطائلة والهائلة، التي تفوق التصور..

2 ـ صار لديهم أولاد كثيرون جداً، كثرةً خارجة عن حدود التوقع أيضاً.

3 ـ أصبحوا أكثر نفيراً.

وتكون لهم فرصة سانحة تتجلى فيها حقيقتهم، وتتبلور أكثر، فكل ما تمنوه وطلبوه حصلوا عليه، وأزيحت عللهم، وبطلت تعللاتهم، فالقرار الذي يتخذونه بعد حصولهم على هذه الكثرات الثلاث ليس قرار المحروم والعاجز. بل قرار المتخم بالأمكانات والقدرات، الذي يكون قراره نابعاً من داخل ذاته، لا تمليه عليه حاجة، ولا يقوده إليه ضعف.

إنه قرار يعبر عن دخيلته، ومشاعره، وأفكاره، وحكمته، وحنكته، وعقله، وحريته، وكل ما لديه من سجايا وأهواء وميول، وهو قرار سيكون مرآة نفسه، وواقعه، وتكوينه الداخلي، وقدراته وميزاته، وخصائص ذاته، وأخلاقه، وقيمه..

فإن كان قرارهم هو الفساد والإفساد، فهو قرار لم يدفعهم إليه خوف من أن تكون قلة عددهم وعدم توفر الذرية لهم من موجبات انقراضهم، وعدم الامتداد لوجودهم. فإن أبناءهم قد كثروا، وامتدادهم محرز ومضمون..

كما أنه قرار لم يؤثر فيه خشية من عدم وفاء الأموال المتوفرة لديهم بحاجاتهم، أو بحل جميع مشكلاتهم، فأموالهم طائلة وهائلة، ومفاتيح خزائن الدنيا في أيديهم..

وهو أخيراً قرار لم يمله عليهم شعور بالحاجة إلى القوة التي تحميهم، فالأمن متوفر، والقوة ضاربة وهائلة أيضاً..

فإذا اتخذوا سبيل الفساد والافساد، فذلك لأن الزيغ تمكن من قلوبهم حتى ختم عليها، وضرب على أسماعهم، فلا يسمعون نداء الهدايات، وجعل على أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون طريقاً، ولا يهتدون سبيلاً..

ولأنهم صاروا يرون الحق باطلاً، والباطل حقاً.. وقد أوضحنا ذلك فيما سبق..

ولذلك قال تعالى لهم حين بلغت الأمور إلى هذا الحد، وحصلت

لهم هذه الأمور الثلاثة: **(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا)**.

وهنا سيكون التعامل الإلهي حاسماً وحازماً أيضاً.. كما سنرى..

ولأجل ذلك لم تطل الفترة حتى اتخذوا قرار مواصلة الفساد والافساد، والعلو على الله سبحانه.. وباشروا تنفيذ قرارهم هذا تحت وطأة سلطان المال، وعنجهية أهل العصبية، وفي ظل الجيوش المتحفزة، فجاءهم الرد المباشر على يد عباد الله، بما فيه سوء وجوههم كما سنرى..

ولتفصيل بعض ما أشير إليه في هذه الآية المباركة نشير إلى ما يلي:

لا شك في إسائتهم:

وقد قال تعالى: **(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا)**، فليلاحظ ما يلي:

1 - إن كلمة: «إن» تستعمل حين يكون هناك شك في حصول فعل الشرط، وهو الإحسان، للإلماح إلى أن هذا الشك ينسحب على جوابها أيضاً..

فإن قوله تعالى: **(إِنْ أَحْسَنْتُمْ)** يفيد: أن ثمة شكاً في أن يحسنوا. مع أن الله سبحانه قد قال في أول هذه الآيات ـ وأكد ذلك عشرات المرات ـ: **(لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ)**، ثم ذكر المرة الأولى، وبدأ

هنا يوطئ للمرة الثانية.. فإن قوله تعالى: **(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآَخِرَةِ)** صريح في أنهم سوف يفسدون في الأرض مرة ثانية، ولن يحسنوا. فما معنى هذا التعبير التشكيكي في قوله: **(إِنْ أَحْسَنْتُمْ)**؟!

ونجيب:

بأن الحديث بالصيغ التشكيكية، مثل كلمة «إن» هنا إنما هو لكي يعرف الناس: أن إفساد بني إسرائيل سيكون نتيجة اختيار وقرار منهم، وليس بتصرف إلهي تكويني قاهر لهم..

2 ـ إن الشك في هذا الأمر غير متصور في حق الله، فإنه تعالى علام الغيوب.

يضاف إلى ذلك: أنه تعالى قد أكد على حصول هذه التفاصيل بعشرات المؤكدات، فكيف يمكن الجمع بين هذه المؤكدات، وذلك الشك.. فالإتيان بكلمة «إن» ليس إلا لأجل التأكيد على أنهم هم الذين سيختارون الإفساد، وليس مفروضاً عليهم.

وبعبارة أخرى: إن قوله تعالى: **(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآَخِرَةِ)** يدل على أن مجيء وعدها حتمي، لأنه استفيد من كلمة «إذا» الدالة على الجزم واليقين، ولأنهم لو كانوا سيحسنون، فلن يجيء وعد الآخرة، لأن وعدها مشروط بإفسادهم لا بإحسانهم..

وقد قلنا: إن هذه الجملة التقديرية، التي صدرت بكلمة «إن» تستعمل حين الشك بفعل الشرط، لا تتناقض مع هذا الجزم بإفسادهم، لأنها تريد أن تدلنا على أن إفسادهم سيكون باختيارهم.. وأن إخبار الله

عن هذا الأمر الغيبي، لا يعني أنه سوف يجبرهم على هذا الفعل، لأنه إنما يخبر عن أمر تابع لعلله وأسبابه التي منها نفس اختيار بني إسرائيل.. وإنما هو تعالى يخبركم بصورة جازمة عن حصول هذا الأمر منهم لعلمه بأن هذه الأسباب والعلل سوف تحصل، وسيحصل المعلول والمسبب تبعاً لها. فهو كإخبارك بأن الشمس ستطلع غداً بعلم ويقين، فإن علمك اليقيني بطلوعها مستند إلى علمك بحركة الفلك، وليس له أي تأثير في طلوعها.

لماذا عبر بالإحسان والإساءة؟!:

إنه تعالى قد عبر في هذا المورد بالإحسان والإساءة، ونسبتهما لبني إسرائيل، من دون أن يشير إلى الفعل من حيث هو صالح وواقع في محله، أو غير صالح، مع أن أكثر التعابير القرآنية تعبر بالصالح والصالحات. وتعتبر الإنسان صالحاً، أو غير صالح. وجل التعابير، بل كلها تقرن الإيمان بالعمل الصالح، وهو المناسب الذي يظهر الخلل والفساد بدونه..

وحتى حين يتكلم الله تعالى عن الحسن، فإنه يصف به العمل، ويقول: (**إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا**)(1)..

والظاهر: هو أن السبب في اختيار أن يكون الحديث مع بني إسرائيل عن الإحسان، لا عن العمل الصالح هو التذكير بأن الصالح هو الملائم لسائر الأشياء التي تنضم إليه، ويقال له: إنه حسن أيضاً.. وقد يكون صالحاً وحسناً، لأنه يعالج مشكلة. ولكن للحسن خصوصية أخرى تزيد على مجرد الملاءمة، ومعالجة المشكلات، لتبلغ إلى حد إضافة صفة إلى الفعل جمالية أيضاً.

فمثلاً: المال الذي يبذل لشخص محتاج تارة يلاحظ به حال المحتاج، فيقال: قد وقع في محله، لأنه حل مشكلته، وقضى حاجته،

---

(1) الآية 30 من سورة الكهف.

فهو أمر صالح من هذه الجهة..

وتارة تلاحظ فيه بالإضافة إلى ذلك الجهة الجمالية فيه، فإن كان المعطي قد أعطاه بهدف استعباد المحتاج، أو شراء ولائه، أو تمهيداً لشراء ضميره عند الحاجة، فهذا العطاء ليس فقط يفقد صفة الحسن، بل هو متصف بالقبح أيضاً..

وأما إن كان قد أعطاه إياه لشعوره الإنساني معه أو تجاهه، فإنه يكون حسناً، ويزيد حسنه إذا كان الإعطاء تقرباً إلى الله سبحانه.

وقس هذا على ثغرة في سقف المنزل، فإن البنَّاء قد يسدها بحيث يمنع من تسرب ماء المطر، أو غيره منها، مما يريد التحرز منه.. ولكنه قد لا يهتم بجمالياتها وبمظهرها الخارجي، بل يبقيها على حالة من البشاعة والقبح، وقد يهتم بالناحية الجمالية، ويضيف إلى ظاهرها أشكالاً هندسية رائعة، وأصباغاً زاهية، وجميلة..

فظهر هنا: أن الحديث في هذه الآية عن الإحسان وعن الإساءة يختلف عن الحديث عن الصلاح وعدم الصلاح.

وقد ظهر: أن المطلوب من الناس هو أن يحسنوا العمل، وإحسانه يكون برفده بالمعاني الإنسانية والإيمانية، وإعطائه صفة الخلود والبقاء بربطه بالله سبحانه..

ولكن الكلام في هذه الآية كما لم يكن عن الصلاح والفساد، بل كان عن الإحسان والإساءة، فإنه أيضاً لم يكن عن الإحسان في العمل

كقوله تعالى: **(إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا)**(1)، بل أهمل ذلك وخص الكلام بالحديث عن الإحسان والإساءة لأنفسهم، دون أي شيء آخر، فلم يشر مثلاً إلى الإساءة إلى الله، أو إلى عباده، أو إلى سائر المخلوقات.. مع أن قصد بني إسرائيل هو الإساءة إلى غيرهم، لا إلى أنفسهم..

فكأن المطلوب هنا هو إيقاظ بني إسرائيل من سباتهم، وإرشادهم إلى أن الأمر ليس كما يحسبون.. بل يريد أن يقول لهم: إن ما تلحقونه من أذى بعباد الله، أو بغيرهم من مخلوقات الله يرتد عليكم، ويعود ضرره إليكم على قاعدة: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)**(2)، وهو في نفس الوقت من موجبات علو مقام عباد الله في الدنيا والآخرة.. كما أن علوكم على الله، وجرأتكم لا ينقص من ملكه، ولا يسقط هيبته، قال تعالى: **(لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا)**(3). والآيات التي تشير إلى هذا المعنى كثيرة..

والخاسر الحقيقي في الدنيا والآخرة هو الظالم والباغي والمعتدي على الحرمات. وهو الذي يحرم من الألطاف، والبركات **(وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ)**(4).

---

(1) الآية 30 من سورة الكهف.

(2) الآية 23 من سورة يونس.

(3) الآيتان 176 و 177 من سورة آل عمران.

(4) الآية 43 من سورة فاطر.

والكثرات التي يراها من حوله لم تزده في نفسه شيئاً.. لا علماً، ولا حكمة، ولا سداداً، ولا رشاداً، وسيتركها ويرحل عنها، ليحاسب حساباً عسيراً.

وهذا يدل على أنه لم يستفد منها سوى شعوره بوجودها بالقرب منه. ولكنها ستصبح بعده بالقرب من غيره، ومضافة إليه، كما هي الآن قريبة منه ومضافة إليه.. كما كانت قريبة من السابقين، ومضافة إليهم.

لماذا على أنفسهم، ولها؟!:

قلنا: إنه بعد رد الكرة لبني إسرائيل، أصبحت عناصر القوة المادية في أيديهم، ولم يعد هناك أي مجال للضغط عليهم، حتى ولو كان من قبيل احتمال أن يتعرضوا لأدنى ضائقة مالية تحد من أي مظهر من مظاهر بذخهم، وإنفاقهم الخيالي.

أو من قبيل تعرض حلمهم بتكثير ذريتهم الذين هم الاستمرار لوجودهم لأدنى خطر يمكن أن يحد من طموحهم، ومن حريتهم، أو يحجِّم من امتدادات أوهامهم، وسياحات أحلامهم في توفير الأمن، واطراد التوسع المالي، وتكثير الذرية لأقصى مدى.

أو كان من قبيل الحاجة إلى مزيد من النفير لدفع توهم التعرض لأدنى مظهر قوة يمكن أن يواجههم ليحجزهم عن متابعة أقصى الطموحات التي يمكن أن ينالها خيالهم.

نعم، بعد أن بلغت الأمور إلى هذا الحد، وهم في موضع القوة، والغنى والواجدية، وبات واضحاً أن قرارهم أصبح محرراً من أي ضغط، ولو كان من قبيل احتمال الاختلال في ميزان القوى، وعما في ضمائرهم، وعن طموحاتهم، وأخلاقهم، وقيمهم، فلا أحد يستطيع أن يملي إرادته عليهم، ولا أن يعرقل مسيرهم. فهم لا يحتاجون إلى مال أحد، لأن المال كله في أيديهم، ولا إلى حماية أحد، فإن عندهم النفير الأعظم، ولا إلى كثرة عدد، خوفاً من الانقراض والاندثار، فإن كثرة البنين جعلتهم في أقصى درجات الأمان..

وهم لا يحتاجون إلى صناعة، ولا إلى زراعة، ولا إلى تكنولوجيا، فكل شيء عندهم، وتحت تصرفهم، وهيمنتهم، فهم قادرون على استثمار قرارهم وتسويقه في كل اتجاه، صواباً كان أم خطأً، حقاً كان أم باطلاً..

وهنا تكمن الخطورة. فإن شعورهم بالغنى والقوة، والواجدية سوف ينسيهم الله، لأنهم لا يرون أنهم بحاجة إليه.. فلا يراقبونه، ولا يطلبون رضاه، ومن الطبيعي أن ينسيهم الله أنفسهم **(نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)(1)**، فيتصرفوا بحسب هواهم، ولا يحاذرون على أنفسهم من ارتداد تصرفاتهم عليهم، فيقعون في الخطر والضرر وهم لا

---

(1) الآية 19 من سورة الحشر.

يشعرون، على قاعدة: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)**(1).

ولو أنهم وظفوا هذه الكثرات في طاعة الله ورضاه، لحصلوا على السعادة، وكانت لهم الزعامة والريادة.. ولحققوا أغلى الأمنيات، وبلغوا أسمى وأعلى الدرجات.

(1) الآية 23 من سورة يونس.

الإحسان، والإساءة لمن؟!:

ثم قال تعالى: **(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ)**. وفي هذه الآية العديد من الفوائد والعوائد، نذكر منها:

1 ـ وقوله تعالى: **(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا..)** لم يحدد فيه زمان المجازاة على الإحسان والإساءة، هل هما في الدنيا؟! أم في الآخرة، أو فيهما معاً؟! فليذهب وهم بني إسرائيل في ذلك كل مذهب.. فإن هذا هو المطلوب والمحبوب هنا.

2 ـ كما أنه سبحانه قد قصر الأمر وحصره ببني إسرائيل أنفسهم، ولم يعطه طابع العقوبات العامة. فلم يقل مثلاً: إن فعلتم كذا، سوف نرسل عليكم الطوفان، أو سوف نرميكم بالزلازل، أو بالأعاصير التي تتلف الزرع، وتقلع الشجر، وتهدم البيوت، أو ما إلى ذلك مما له طابع التدمير الشامل..

3 ـ ولعل السبب في ذلك: أن هذا النوع من التهديد والوعيد، قد لا يكون قوياً وفاعلاً ومؤثراً الأثر المطلوب بالنسبة لكل فرد فرد منهم، لأن بعض الناس قد لا يرى نفسه معنياً به كثيراً، ويظن أن المذنب هو الآخرون، وإنما يؤخذ بالعذاب لأن عذاب الاستئصال له صفة العموم والشمول حتى لغير المذنب..

4 ـ بل قد يتخيل البعض أنه قد يتمكن من الإفلات حتى من هذا النوع من الكوارث. فيتحرز من الإعصار، ويتجنب مواضع الخطر

في الزلازل، فيلجأ للصحراء، أو يعتصم في الطوفان بقمم الجبال..

كما كان الحال بالنسبة لابن نوح «عليه السلام» الذي قال له أبوه: **(يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ)**(1).

ولأجل ذلك خاطب الله سبحانه بني إسرائيل هنا بما دل على أنهم بأشخاصهم وأعيانهم سوف يكونون مستهدفين بآثار الإساءة التي تصدر عنهم، فلا نجاة لهم منها.. وسينالون المنافع التي تترتب على الإحسان الذي يبادرون إليه، فعليهم أن لا يفرطوا فيه..

وقد قال هذا.. بعد أن أتم حجته عليهم، وتأكد لهم عملياً بأنهم إذا اختاروا السوء، فلن يكونوا معذورين فيه، لأنهم يملكون كل القدرات والكثرات في حدها الأقصى، فلا خشية لديهم من حاجة، ولا نقص لديهم في عشيرة وعدد، ولا خوف لديهم من أحد، فهم الأكثر أموالاً وأولاداً، والأكثر نفيراً..

5 - وبعد هذا الإشباع في العطاء، وامتلاك الخيار والقرار، وكل القدرات، فإن منافع الإحسان لا يمكن أن تكون هي زيادة الأموال، لأن الأموال طائلة وهائلة، ولا إلى زيادة الأحفاد والأبناء، لأن كثرتهم إلى حد الإشباع، فيكون تكريس النفع والزيادة في الأموال والأبناء

(1) الآيتان 42 و43 من سورة هود.

بعد هذا، كالأكل على الشبع.. وكذلك الحال بالنسبة للجاه والسلطة ونحوها.. فإنه كله سيكون بلا فائدة ولا عائدة..

فلا محيص من جعل المنافع تعود إلى منبع القرار والاختيار، ومنشأ العمل، وهو ذوات الأشخاص وأعيانهم.. فإذا كانت آثار الإحسان تعود إلى أشخاصهم، فكذلك آثار الإساءات.. ولذلك قال: **(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا)**.

نعم، إن كل ذلك سيكون فيهم، ولهم كأفراد وأشخاص، ولا يتعداهم إلى غيرهم، ولكنه تعالى لم يحدد إن كان ذلك سيحصل لهم في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما معاً. ربما لأنه لو خص ذلك بالآخرة، فلعل ذلك يضعف من فعالية هذا التحذير، والتبشير، فإنه في هذه الحال لا يعدو كونه وعداً، أو وعيداً بأمر لا ملموس ولا محسوس، لاسيما وأن اليهود لا يتأثرون به عادة، لأن أمر الآخرة مهمل في كتبهم التي يتداولونها كما قلنا.

والمذكور في الكتاب الذي يسمونه بـ: «التوراة» هو وادي الهلاك, وهذا فيه إبهام شديد، يسقطه عن الصلاحية للتأثير، واليقين الإيماني هو الذي يؤثر أثراً ملموساً في الإقدام والإحجام.. وليس مطلق اليقين.

ويدلنا على ذلك: أن كل الناس يتيقنون بالموت، لكن تأثيره فيهم ضعيف، لأن الإنسان يتباعد عنه، ويحاول أن ينساه..

وهذا هو السبب في زيادة الحث على القيام ببعض الأمور التي

تذكر بالموت، كتشييع الجنائز، وزيارة القبور، وحفر الإنسان قبره بنفسه، وتعاهد ذلك القبر باستمرار، وأن يهيء كفنه. وجعلت أوقات للنظر في ذلك الكفن، وورد الأمر بتهيئة الوصية، وتجديدها، وما إلى ذلك..

وهكذا يتضح أن الله تعالى هدد بني إسرائيل بالأمر الذي يهمهم أكثر من أي شيء آخر.. وهو أن تصل المنافع والمضار إلى ذواتهم وأشخاصهم دون سواها.

تناغم التحذير مع الاهتمامات:

ثم إن هذا التحريض على الإحسان، والتحذير من الإساءة يتناغم مع واقع الإنسان بصورة ظاهرة، فإن أكثر شيء يحبه الإنسان، وأعز شيء عليه من الناحية الفطرية والواقعية هو نفسه التي بين جنبيه، وقد تغذت علاقة الإنسان الإسرائيلي بذاته، بما اختاروه لأنفسهم من أفكار زينت لهم تفوقهم على سائر البشر، ومنها زعمهم أنهم هم شعب الله المختار، وأن البشر خلقوا لخدمتهم.

وساعد على ذلك: استبعادهم الآخرة عن دائرة اهتماماتهم، وتمحض اهتماماتهم بالدنيا.. يضاف إلى ذلك: اعتبارهم الأنا هي المحور لكل حركتهم في الحياة، وسعيهم لتذويب جميع الحالات والخصوصيات الاجتماعية العامة في بوتقة الأنا، والشخصية الفردية.

فالجماعة عندهم فداء للفرد.. على عكس التوجيهات الإلهية،

والمسارات الفطرية والطبيعية، التي تحفظ للفرد خصوصيته يترقى ويسمو بها، لتذوب في خصوصيات المجتمع الإنساني كله.

فيتم بذلك التزاوج بينها وبين الخصوصية الإجتماعية والخصائص الإنسانية من حيث هو جامع وكيان إنساني منصهر في معنى الأمة الواحدة، التي هي بمثابة الأسرة الواحدة، التي لها أب ومرب واحد، هو النبي والإمام.

وقد خاطب الله بني إسرائيل بمنطقهم، فدعاهم لاستجلاب المنافع لأنفسهم بأعمالهم، ودفع الأسواء عن أنفسهم بأعمالهم أيضاً، حيث أفهمهم أن أشخاصهم، أو شخصيتهم الفردية في خطر، أو هي بحاجة إلى النفع لكي تتكامل وتسمو به، فإذا لم يستجيبوا لهذه الدعوة الرشيدة، فذلك يدل على أنهم أصبحوا في أحط الدركات، وأسوأ الحالات..

لم يذكر الله تعالى العقوبة والمثوبة:

واللافت هنا: أنه تعالى لم يذكر لبني إسرائيل عقوبة ولا مثوبة، بل ذكر لهم الإحسان والإساءة لأنفسهم..

ولعل سبب ذلك: أن المثوبة والعقوبة، ومصدرهما الله تعالى، إنما يكونان في مستقبل الأيام، فهما مجرد وعد ووعيد، وليسا من الأمور الفعلية الحاضرة. فأثرهما يقتصر على مجرد تحريك عامل الرهبة من أمر غائب غير حاضر، فلا يشعر الإنسان به فعلاً، وإنما مجرد أمر

افتراضي تخيلي تصوري بالنسبة إليه.

ومن الواضح: أن الصور الذهنية تتبدل، وتتعاقب، ويحل بعضها مكان بعض، فإذا زالت ضعف تأثيرها على الحالة النفسية للإنسان.. وإنما يتوعد الناس ويهددون بحرمانهم مما هم حريصون عليه، بأثمن شيء لديهم.

وهكذا يقال بالنسبة للمثوبة الموجبة لتحريك الرغبة بالشيء المفترض الذي يبقى في دائرة التصور أيضاً..

وقد قلنا: إن تأثير ذلك ضعيف على بني إسرائيل، **لأن** التوراة أهملت ذكر الآخرة، واكتفت بذكر وادي الهلاك، وانصبت اهتماماتهم على الدنيا، وما ينالونه فيها من مكاسب، وما يحققونه من مآرب..

ومن جهة أخرى نلاحظ: أن التذكير بالآخرة هو من أهم وأكثر الأمور دوراناً وتداولاً في البيانات القرآنية..

أما الحديث عن الإحسان، والإساءة للنفس بالنسبة لبني إسرائيل، فهو الأقوى تأثيراً فيهم لشدة أنانيتهم، وعظيم حبهم لأنفسهم. حتى إنهم يعتبرون أن الله سبحانه يجب أن يكون مسخراً لهم وفي خدمتهم، ورهن إشاراتهم. ولا شغل له إلا تحقيق غاياتهم، وتلبية مراداتهم. فالأنا هي المسيطرة عليهم، وأنفسهم هي المحور الذي عليه المدار، ومنها يبدأ، وإليها ينتهي المسار.

وإذا كان الأمر كذلك، فلا يمكن أن يجتمعوا على محور واحد سواها، بل كل واحد منهم له محور واحد، يدور حوله، هو الأنا، وهي

نفسه التي يعبدها، ويقدسها. ولذلك قال سبحانه: **(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ)**(1)، ولم يقل: «تحسبهم جميعاً وهم شتى»، إذ لا تجتمع تلك القلوب على محور آخر تلتقي عليه بالمودة والحب، بل كل قلب منفصل عن القلب الآخر في كل شيء، فهو عالم برأسه بكل ما لهذه الكلمة من معنى. حتى إنهم إذا أحبوا أبناءهم، فإنما يحبونهم من موقع الأنا، فمحور كل قلب هو الأنا التي تحتضنه.

فيكون سبحانه قد كلم بني إسرائيل باللغة التي يفهمونها، وأثار أمامهم أموراً تنسجم مع عقليتهم وتفكيرهم، ليكون ذلك أدعى للردع عن السوء، وأدعى لقبول الإحسان، ولتقوم الحجة بذلك عليهم.

أما الأمور الغيبية، فإن الحديث عنها سوف لا يكون مفهوماً لهم، لأنهم لا يؤمنون بالغيب، فلا تمثل الغيبيات حافزاً لهم إلى الإلتزام بالإحسان، أو رادعاً عن الإساءة.

وهذا يدل على أنه تعالى لم يزل يعاملهم بالرفق والأناة، ويختار من أساليب الإقناع ما يناسب حالهم، ويقربهم إلى طاعته.. ولكن ذلك لا يزيدهم إلا نفوراً.

---

(1) الآية 14 من سورة الحشر.

(لِأَنْفُسِكُمْ)، لا إلى أنفسكم:

1 - وأما لماذا قال تعالى: **(أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ)**، ولم يقل: «أحسنتم إليها».. ربما لأن كلمة «إلى» تدل على أن ثمة حالة من الإيصال والوصول تحتاج إلى جهد يمكن من ردم الهوة والمسافة الحاصلة بينهما.. أي أن بين الإحسان وبين الأنفس مسافة يحتاج إلى تجاوزها للوصول من هذا إلى ذاك.

أما إذا قال: **(لِأَنْفُسِكُمْ)**، فإنه لا فاصل بين الإحسان وبين الأنفس، بل الإحسان متصل بالأنفس مباشرة، وهذا أدعى للتحريض، وأكثر فعالية في الحث على فعل الإحسان، وتجنب الإساءة..

2 - ثم إنه تعالى: لم يقل: «إن أحسنتم فلأنفسكم»، بل قال: **(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ)**، فكرر كلمة أحسنتم مرتين. ولكنه في جانب السوء أكتفى بذكر كلمة: **(أَسَأْتُمْ)** مرة واحدة، ولم يكررها، ربما لكي يشعرهم بلذة الإحسان، وببهجة الحسن، ولو بالإيحاء اللفظي الذي يترك له آثاراً إيجابية على روح الإنسان، من خلال تصوراته، وما تتداوله مخيلته. فإن للغة الأليفة والوحشية دورها، وأثرها في إقبال النفس وإدبارها، والتذاذ الروح وأنسها ونفارها. وإن كانت العقول لا تنظر إلا للمضامين، ولا تهتم لجمالية قوالبها، وصحة أدائها، والنغمات الصوتية التي تتأدى بها حروفها.

لم يشر تعالى إلى العمل:

كما أنه سبحانه لم يشر إلى العمل، فلم يقل على سبيل المثال: «إن عملتم عملاً حسناً، فلأنفسكم..»، بل قال: **(إِنْ أَحْسَنْتُمْ)**، وقال: **(إِن أَسَأْتُمْ)**. لأنه اعتبر العمل هو السوء بعينه، أو هو الحُسْنُ بعينه.. وهناك فرق بين أن تجعل العمل محور كلامك، ثم تثبت له وصفاً، فتقول: هذا عمل حسن، أو هذا عمل سيء، وبين أن يكون السوء والحسن ماثلاً بنفسه أمامك، وهو العمل نفسه.

فإنه في الصورة الأولى يمكن التفكيك بين الوصف وبين موصوفه، فيقال مثلاً: إنني إنما قصدت إيجاد العمل نفسه، ولم أقصد عنوانه، أو وصفه، الذي عرض له من دون قصد مني.. بل كنت غافلاً عنه.

فمثلاً: العطشان قد يشرب المائع الذي في الكأس، ثم يقول: أنا قصدت شرب المائع لري عطشي، ولم أقصد وصف الخمر، أو السكر مثلاً..

والأمر هنا ليس كذلك.. فإنه إذا قال لك: إن صدر منك الحسن، فلك كذا، وإن صدر منك السوء فعليك كذا. فإنك إذا فعلت أياً منهما فليس لك أن تقول: أنا قصدت العمل نفسه، ولم أقصد صفة الحسن، أو صفة السوء فيه، أو أنني لم أقصد أي صفة من صفاته سوى أنه عمل..

لأن السوء والحسن هو ذات العمل نفسه. فلا يوجد شيئان: عمل

وصفة، بل يوجد شيء واحد: وهو الحسن لا غير، أو السوء لا غير.

وذلك على قاعدة: زيد عدل.. بادعاء أن اسم الذات هو نفسه اسم المعنى.. على سبيل المبالغة لإظهار شدة تمحضه بالعدل، بحيث لا يمكن انفكاكهما حتى في التصور..

وهذه طريقة بيانية فريدة أيضاً، تفيد المزيد من التحريض على ما هو حتى في التصور حسن، والتنفير مما هو سيء.

(فَلَهَا)، أم فإليها؟!:

يقول بعضهم: إن الفاء جواب شرط محذوف.. والتقدير: «فإساءتكم». وكان القياس يقتضي أن يقول: «عليها»، ولكنه عدل إلى اللام للمشاكلة مع قوله: **(لِأَنْفُسِكُمْ)**. وقيل: اللام بمعنى على[(1)].

ونقول:

هذا كلام غير مقبول، فإنه لا معنى للإستعلاء في هذا المورد، لتكون اللام بمعنى على، والأوفق بالمعنى أن تكون للاستحقاق، فإنها واقعة بين معنى وذات، فهي مثل العزة لله، والحمد لله.. وبذلك يظهر: أنها ليست للمشاكلة أيضاً.

وبذلك يكون تعالى قد أشار إلى أن مواجهة بني إسرائيل بالإساءة إنما هي لاستحقاقهم لها. وليست على سبيل الصدفة، أو التجني، ولا

---

(1) إعراب القرآن الكريم وبيانه ج4 ص323.

لأنها أثر يأتي بصورة تلقائية، أو قهرية، وربما كان أكثر، أو أقل من المفروض أو اللازم.

لماذا وضع هذه الفقرة هنا؟!:

وقد يقال: إن المناسب هو أن يذكر قوله تعالى: (**إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**) بعد قوله تعالى: (**فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا**)، لأن بني إسرائيل قد أفسدوا في الأرض وعلوا علواً كبيراً، ثم عاقبهم الله ببعث عباده تعالى عليهم، ليجوسوا خلال الديار..

فنالهم بسبب ذلك إذلال عظيم، وأوجب لهم من خوف ورعب فاضح، فمن المناسب توجيه هذا التحذير إليهم، فيقال لهم: (**إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**). فلماذا أخرت هذه الفقرة إلى ما بعد رد الكرة لبني إسرائيل على العباد، فإن تهديدهم بعد شعورهم بالقوة، وحصولهم على الكثرات المتقدمة يصبح ضعيف التأثير؟!

ونجيب:

بأن هذا غير صحيح، بل المناسب هو أن يأتي هذا التحذير في نفس الموقع الذي ورد فيه دون سواه.

وذلك لأن المعنى الحقيقي للإحسان والإساءة، إنما يتجلى في مثل هذه الحالة التي حصلت لبني إسرائيل بعد رد الكرة لهم، لأن القرار أصبح بيدهم، وأصبحوا قادرين على تنفيذ قرارهم دون أن يديروا بالاً

لأحد..

أما حين يكون في موقع الخائف المرعوب الذي يرى السيف فوق رأسه، فإن القرار سوف يكون للسيف، وليس له، ويكون ما يقوله ذلك الخائف المرعوب مجرد صدىً لصليل السيف، وانعكاس لبريقه.. فإن زعم أنه تاب، فلا يمكن الركون إلى دعواه التوبة، لأنها ربما كانت خضوعاً للقوة، واستجابة للإرادة القاهرة. وإن سايرك في فعل، فإنك لا تستطيع أن تطمئن إلى أنه هو الذي اختار هذه المسايرة، وأنه هو الذي يتحرك ويتصرف ويفعل أو لا يفعل بفطرته، وبقناعاته، وبعقله، وفكره، وأنه رجع إلى رشده، واهتدى طريق الصواب، وأصبح مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، وهو الله جل وعلا.

فكيف يصح أن يقال لمثل هذا: «إن أحسنت أحسنت لنفسك، وإن أسأت فلها». فإن حريته أسيرة الخوف من السيف، وإرادته مغلولة بأغلال الرعب من عباد الله الذين يجوسون خلال الديار، وهو في ليل من الإبهام ليس له نهار.. وشهواته مكبوتة، وميوله وأهواؤه محبوسة، وعقله سقيم، وتفكيره عقيم..

ولكنه بعد أن شعر بزوال الكابوس عنه، ورأى نفسه حراً قادراً على ممارسة شهواته، واتخاذ قراراته، وتنفيذ رغباته، ولديه القدرة المالية، ورأى نفسه في أمن وأمان محمياً بأعظم الجيوش، فالأموال لا تنفد لكثرتها، والأبناء لا تعد لزيادتها، والجيوش النافرة التي هي على أهبة الاستعداد الفعلي لا نهاية لعددها..

ولم يعد هناك احتمال حاجة، ولا ضرورة لمراعاة خاطر أي كان من الناس، بل الناس كلهم يحتاجون إليه، ويراعون خواطره، ويحتاجون لحمايته، ولا يوجد أي احتمال لحدوث أي اختلال في مقادير الأموال، أو نقص في الذرية.. أو حاجة إلى حماية وقد استغنى عن طلب المال وعن طلب الذرية، وعن طلب الحماية والمساعدة في أي شيء، ومن أي كان..

فإن قراره في هذه الحال يكون اختيارياً وصحيحاً مئة بالمئة، ونابعاً من عمق ذاته، ويعبر عن حقيقة صفاته، وعن خفايا نياته، وبواطن حالاته.. كما في هذه الحال، وقد يزداد الشعور لديه بعدم الحاجة إلى الله، ويتضاءل الإحساس لديه بعظمته تعالى، ويتهيأ نفسياً لممارسة المزيد من العلو والعتو، والاستكبار، وربما اشتاقت نفسه الأمارة بالسوء إلى ما فيه ظلم وطغيان، وتمرد وعدوان..

نعم.. وهذا كان حال بني إسرائيل بعد عودة الكرة لهم على العباد.

ففي مثل هذا الحال يحتاج بنو إسرائيل إلى هذا التحذير الذي وضعهم في مواجهة مصيرهم في أشد الأمور حساسية، وهو: أن أعمالهم إن كانت سيئة، فستكون أنفسهم هي الضحية..

والنفس هي أعز ما لدى الإنسان، ولا سيما بالنسبة لبني إسرائيل الذين هم أحرص الناس على حياة، مهما كانت حقيرة وتافهة..

وسيتضاعف الأسى والألم إذا كانوا هم أنفسهم الذين يلحقون هذا الأذى بأنفسهم.

الحر الرياحي مثل أعلى:

وكان الأحرى ببني إسرائيل أن يعتبروا بالحر بن يزيد الرياحي الذي منحه الإمام الحسين «عليه السلام» وسام الحرية، حين قال له: «أنت حر كما سمتك أمك، حر في الدنيا، وسعيد في الآخرة »(1).

وكان الحر «رحمه الله» جديراً بهذا الوسام، لأنه «رحمه الله» تحرر من كل الأغلال التي كانت تعتوره، وتقيد حركاته، والتي لا يقدر على تحطيمها إلا الرجال الرجال، الذين حباهم الله بقدرات هائلة، فوظفوها في شكره، فاستحقوا منازل الكرامة عنده، مع الصديقين والشهداء، ومع الأنبياء والأولياء.. صلوات الله عليهم أجمعين.

ويكفي أن نذكر: أن من هذه الأغلال التي تمنعه من اقتحام السيوف، وملاقاة الحتوف: الزوجة، والأبناء، والعشيرة، والأهل، والأحباب والأصدقاء..

وهناك الآلام الجسدية التي يتوقع أن تحل به، والموت الذي

---

(1) راجع: تاريخ الأمم والملوك ج3 ص325 واللهوف ص104 و (ط سنة 1417هـ) ص62 وبحار الأنوار ج45 ص14 ومقتل الحسين للخوارزمي ج2 ص11 وكتاب الفتوح لابن أعثم ج5 ص102 والعوالم، الإمام الحسين ج17 ص257 وأعيان الشيعة ج1 ص604 وج4 ص614 ومقتل الحسين «عليه السلام» لأبي مخنف الأزدي ص122.

يرهبه كل حي، والمجهول الذي لا يعرف حقيقته بعد الموت..

وكونه في مقام التحدي لفريق كان الإعلام المسموم والحاقد قد حرضه عليه، وزين له عداوته، وعبأ نفسه شوقاً للبطش به، والتخلص منه..

ويمنعه أيضاً من الإقدام على نصرته ما يتوقعه من عار بين الأقران، والشجعان، وبين العشائر والقبائل المنتشرة في طول البلاد وعرضها، وما يتعرض له من اتهام بالسفه واختلاط العقل، وسقم التفكير، وسوء التقدير، وبوار التدبير..

بالإضافة إلى ما يتوقعه من مصائب وبلايا، وكوارث ورزايا تحل بأهله وأبنائه، وإخوانه وعشيرته، وكل من يلوذ به بسبب، أو نسب، حين يبطش بهم الظالمون، وينتقم منهم أعداء الحق والدين..

ولكن الحر لم يبال بذلك كله، وحرر نفسه منه، وبعد أن كان عدواً للحق وأهله، كشف الله تعالى عن بصيرته، فأصبح ولياً، مدافعاً وناصراً، ومضحياً بكل شيء في سبيل الحق وأهله.. فكان حراً كما سمته أمه. حراً في الدنيا وسعيداً في الآخرة.

الباب الثالث:

وعــــــــد الآخـــــــرة..

الفصل الأول:

ســــــــوء الــوجــــــــوه..

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآَخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا).

وعد الآخرة:

ورد قوله تعالى: **(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآَخِرَةِ)**[1] مرتين: هذه إحداها، والثانية في قوله تعالى في هذه السورة أيضاً: **(وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً)**[2].

ويبدو لنا: أن وعد الآخرة في الآية 104 يراد به الإشارة إلى مجموع ما ذكر في أول سورة الإسراء. أعني مجمع الإفسادين، فإن الآية صريحة بهذا المعنى، لأنها تقول: إنه تعالى بعد غرق فرعون وعد بني إسرائيل بمرة أخرى تكون لهم، وكأن الآية تريد أن تقول: إن المرة الأولى هي تخلصهم من فرعون بإغراقه ومن معه، فأمرهم الله تعالى بأن يسكنوا الأرض.

---

(1) الآية 7 من سورة الإسراء.

(2) الآية 104 من سورة الإسراء.

والظاهر: أن المراد هو أن يتفرقوا في أرجاء المعمورة، ووعدهم بأن يجمعهم بعد تفريقهم، ويأتي بهم زرافات ووحداناً، من مختلف بقاع الأرض إلى الأرض التي كانوا فيها.. فيفسدون حينئذٍ في الأرض مرتين، فيبعث عليهم طائفة من المؤمنين، فيجوسون خلال الديار، ثم يرد لبني إسرائيل الكرة على العباد. ويخلصهم منهم. ولكن بني إسرائيل يعودون إلى الإفساد، فيكون لهم سوء الوجوه..

فالمراد بالمرة الآخرة في أول السورة: هو الآخرة بالنسبة للإفساد الأول، والمراد بالآخرة في آية 104: هو الإتيان بهم في آخر الزمان لفيفاً، فيحصل منهم ما يحصل من الإفساد مرتين..

يقال: جمع لفيف: أي مجتمع ملتف من كل مكان(1).

واللفيف: المجموع. وما اجتمع من الناس من قبائل شتى، ومنه: (**جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً**)، جاؤا بلفيفهم. أي بأخلافهم(2).

وهذه المعاني لكلمة لفيف تشير إلى أمرين:

أحدهما: انتشار بني إسرائيل في البلاد.

الثاني: صيرورتهم قبائل شتى.. وتشير الآية 104 من سورة الإسراء إلى أن بني إسرائيل يتفرقون في مختلف بقاع الأرض، ثم يؤتى بهم إلى الأرض التي انتشروا منها. وهم أخلاط ملتفون على

(1) أقرب الموارد (الذيل) ص377.

(2) أقرب الموارد ج2 ص1153.

بعضهم البعض..

وهذا ما نشهده منهم في هذه العقود الأخيرة(1).

راجع المؤكدات:

والتأمل في قوله تعالى: **(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآَخِرَةِ)**.

يظهر: أن في هذه الفقرة العديد من التاكيدات التي أشرنا إليها في قوله تعالى: **(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا)**. فنحن نكتفي بإحالة القارئ الكريم إلى ما ذكرناه هناك حول:

1 ـ الفاء في قوله تعالى: **(فَإِذَا)**.

2 ـ كلمة: **(إِذَا)**.

3 ـ كلمة: **(وَعْدُ)**.

4 ـ كلمة: **(الْآَخِرَةِ)**.

5 ـ ثم لام العاقبة في كلمة: **(لِيَسُوءُوا)**.

---

(1) وبالرغم من أن العقلية السائدة في أكثر المجتمعات التي انحدر منها بنو إسرائيل إلى فلسطين، فإنهم بعد استقرارهم واطمئنانهم سيصبح لديهم ميل ظاهر وقوي إلى تكثير الأبناء لأنفسهم، وبث الدعايات التي تكبح الرغبة لدى الشعوب المحيطة بهم في تكثير النسل.. وهذا ما رأينا بعض بوادره العملية في بعض المناسبات. ولعل هذه السياسات ترمي إلى ضمان بقاء الهيمنة لهم على البلاد والعباد.

6 - بالإضافة إلى التفصيل الدقيق لما يكون من أحداث بكلمة: «**يَسُوءُوا**» وغير ذلك.

الإبهام لماذا؟!:

ثم قال تعالى: **(لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ)**.

وأول سؤال يواجه الباحث هنا هو:

ما لمراد باللام في قوله تعالى: **(لِيَسُوءُوا)**؟!

ثم في قوله تعالى: **(وَلِيَدْخُلُوا)**؟!

ثم في قوله تعالى: **(لِيُتَبِّرُوا)**؟!

حيث يلاحظ: أنه تعالى قال هنا: **(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ)**.

ثم لم يذكر ماذا سيكون؟!

هل يبعث عباده مرة ثانية على بني إسرائيل؟!

أو يبعثهم على غيرهم؟!

أم أنهم يفجرون آبار النفط؟!

أو يمنعون من تصديره؟! أم ماذا؟!

ولكنه ذكر ما يدل على أنهم سيكونون سبباً في حدوث ثلاثة أمور.. هي:

1 ـ سوء وجوه بني إسرائيل.

2 ـ دخول المسجد.. ولم يذكر لنا أي مسجد.. وسنجد من الدلائل ما يكفي لإرشادنا إليه.

3 ـ تتبير ما علوا.. ولم يوضح لنا المراد بكلمة: «ما». وسنجد من

القرائن ما يوضح لنا المراد منها أيضاً.

كما أنه لم يوضح مرجع ضمير كلمة: **(عَلَوْا)**. ولعلنا سوف نهتدي إلى مرجع الضمير فيما يأتي من تفاصيل.

فلماذا هذا الإبهام يا ترى؟!

هذا ما سنحاول التعرف عليه، وتلمس ما يمكن تلمس بعض دلائله.. فلاحظ ما يلي من مطالب.

اللامات الثلاث:

أما فيما يرتبط باللام في قوله تعالى: **(لِيَسُوءُوا)**، و **(وَلِيَدْخُلُوا)**، و **(لِيُتَبِّرُوا)**، فنقول:

إن هذه اللام هي لام كي ـ التي تفيد التعليل. وينصب الفعل المضارع بعدها بأن مضمرة. وعلامة نصبه هنا هو حذف نون الجمع في الكلمات الثلاث.

لام العاقبة:

وقد يقال: إن هذه اللام هي لام العاقبة، فهي نظير اللام التي في قوله تعالى: **(فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً..)**(1). مع أن آل فرعون قد التقطوا موسى حين وضعته أمه في صندوق، ثم ألقته في اليم، فرآه فرعون وزوجته يمر أمامهما على وجه الماء، فأمر

(1) الآية 8 من سورة القصص.

بأخذه، وكان يذبح أبناء بني إسرائيل، ويستحيي نساءهم خوفاً من ولادة موسى «عليه السلام»، فلما رآه فرعون وزوجته، طلبت زوجة فرعون منه أن يبقيه: **(وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)**(1).

وقال تعالى: **(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)**(2).

غير أننا نقول:

إن لام العاقبة هي أن يصدر فعل من أحد لأجل غاية ينشدها، ولكن ما يتحقق ويأتي بعد اللام يكون على خلاف قصد الفاعل.. فإن آل فرعون إنما التقطوا موسى لكي ينفعهم، ويؤنسهم، ويكون لهم حبيباً، وولداً، وإذ به يكون لهم عدواً وحزناً.. فما بعد اللام، وهو عاقبة الالتقاط ليس هو علة التقاط آل فرعون لموسى، بل هو ضدها.

والأمر في هذا المورد لا يدرى حاله، فلا يمكن الحكم بكون اللام للعاقبة، أو للتعليل الحقيقي.. لأننا لا ندري ما هو الفعل الذي سوف يقدم عليه العباد، ولا ندري ما سوف يقصدونه منه، فإن كان الفعل قتالاً، أو أي شيء آخر، وكانوا يقصدون به سوء وجوه اليهود، ودخول المسجد، وتتبير ما علوا، فاللام لام التعليل..

وإن كان الفعل شيئاً آخر، كالمنع من تصدير النفط، أو إقفال

(1) الآية 9 من سورة القصص.

(2) الآية 39 من سورة طه.

مضيق هرمز أو نحوه، وكانوا يقصدون به مواجهة طغيان أمريكا، أو شيئاً آخر مثل: زيادة أسعار البترول للحصول على القوة الإقتصادية، وربما كان امتلاك الخبرة النووية.. وربما كان عدة أمور من هذا القبيل.. وربما.. وربما.. وإذ بهذه الأمور الثلاثة، وهو سوء الوجوه، ودخول المسجد، والتتبير تتحقق قهراً، دون أن تكون مقصودة لهم، فاللام تكون على هذا لام العاقبة..

وقد يفهم من قوله تعالى: **(لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ)**: أن ما يوجب ذلك ليس أمراً حربياً.

أما ما يمكن من دخول المسجد والتتبير، فقد يكون أموراً أخرى.. كما أنه قد يكون فعلاً واحداً يُمَكِّن من دخول المسجد، ومن سوء الوجوه، ومن التتبير، وقد يكون حربياً، وقد لا يكون..

تكرار اللام لماذا؟!:

وقد لاحظنا: أنه تعالى قد كرر اللام ثلاث مرات، فقال: **(لِيَسُوءُوا)**، و **(وَلِيَدْخُلُوا)**، و **(لِيُتَبِّرُوا)**، وقد كان يمكن أن يكتفي بالأولى منها، ويحذفها من كلمتي: **(لِيَدْخُلُوا)**، و **(لِيُتَبِّرُوا)**.

ولعل السبب في إعادة اللام في المواضع الثلاثة: هو أن عدم ذكر اللام في الموردين التاليين قد يفهم منه: أن المعلول هو المجموع المركب، فيكون المجموع هو العلة، وكل واحد منها جزء المقصود على نحو الكل وأجزائه.

ولكنه حين يكرر اللام، فإنه يفهمنا: أن الكلام ليس على هذا النحو، بل هو جار على طريقة الكلي وجزئياته، أي أن كل مورد من الثلاثة كان مقصوداً بذاته، وبصورة مستقلة عن الآخرين. فهناك ثلاث عنايات مستقلة وثلاثة قصود لا قصد واحد، ولا ربط لأي واحد منها بالآخر..

ولعل السبب في تعمد إفهام هذا المعنى هو الإلماح إلى عدم وجود قاسم مشترك، وعدم التجانس، وفقدان السنخية ـ بحسب ظاهر الأمر ـ بين الأمور الثلاثة، فسوء وجوه الإسرائيليين لا ربط له بدخول المسجد، ولا ربط لهما معاً بتتبير ما علوا، كما سنوضحه في البيانات الآتية.

وحتى لو فرض وجود تجانس وسنخية، فربما كان السبب في اتباع هذه الطريقة في البيان هو إظهار أهمية وخطورة وعظمة هذه النتائج.. بحيث يصلح كل منها أن يكون سبباً لإقدام العباد على تحقيقه مهما كانت الظروف، وبلغت التضحيات.

وقد يكون السبب: هو أن هذه النتائج لم تحصل دفعة واحدة، وإنما حصلت بصورة متعاقبة وتدريجية..

وقد يكون السبب: هو إقدام العباد على أمور مختلفة أنتجت هذه النتائج الكبيرة المتباعدة.

الآخرة لا الثانية!:

ولعله سبحانه عبر بوعد الآخرة، ولم يقل: الوعد الثاني، ليشير إلى أمرين بكلمة واحدة، وهما:

الأول: العدد، فإن الآخر له أول..

الثاني: أن المرة الثانية هي الحد والنهاية، فإنها ليس بعدها ثالثة.. وهذا من لطائف البيان أيضاً..

سوء الوجوه:

وقد كانت أول ثمرة من ثمرات جهد العباد في وعد الآخرة هي سوء الوجوه، وهي حالة تقبض، وتغضن، وكمود، تطفح على الوجه بسبب حزن وألم وغم، وأسى قوي يعتصر القلب وينتابه بسبب حادث ينزل يستهدف ما هو عزيز على الشخص.

وقد دل هذا التعبير أيضاً: على أن هذا الحدث المؤلم له ارتباط قريب جداً، ومباشر بالأشخاص أنفسهم.. وأنه على درجة من السعة والشمول بحيث يستوعب عامة أشخاص بني إسرائيل..

وهذا يدل على أن هذا الحدث ليس مجرد هزيمة سياسية، ولا هو انتكاسة في معركة حربية، أو كسر شوكة، أو التخلص من هيمنة، لأن هذا وإن كان قد يؤذي طائفة كبيرة من الناس، ولكن لا بحيث يوجب حرداً وكمداً، وشحوباً وخموداً على وجه كل فرد فرد منهم.. لأن الكثيرين منهم قد لا تهمهم أمثال هذه الأمور، وإن اهتموا لها برهة وجيزة، فسرعان ما ينسونها ويذهبون إلى أعمالهم، وينشغلون بها عنها.. والذين يهتمون للمشاكل العامة هم النخبة وأصحاب القرار، والسياسيون الذين يعرفون أبعاد المشكلة.

أما عامة الناس، فقد لا يعرفون بالأمر، ولا يفهمون أبعاده وتداعياته ولا يرون أنه يعنيهم كثيراً، أو لا يعنيهم كأفراد أصلاً..

والخلاصة: أنه تعالى يريد أن يفهمنا: أن هذا الأمر الذي سوف

يسوء وجوه بني إسرائيل هو أمر يهتم له كل فرد فرد منهم، ويلامس مصالحهم، وعواطفهم، ومشاعرهم، ويحدث لهم ـ فرداً فرداً ـ صدمة في المشاعر والأحاسيس، تظهر آثارها على وجوههم لفترة طويلة، أو دائمة ما دام عباد الله أحياء على هذا الكوكب.

لماذا سوء الوجوه؟!:

ويلاحظ: أنه تعالى، قال هنا: **(لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ)**، فنسب سوء الوجوه إلى العباد، لا إلى الفعل الذي يصدر منهم، فلم يقل مثلاً: «فتسوء وجوهكم»، أو «فيسوء فعلهم وجوهكم».

وهذا يدل على أن ثمة ربطاً بين العباد وبين سوء الوجوه.. مما يعني: أن اللام هنا ليست لام العاقبة، بل هي لام التعليل.. لأن ثمة أمراً يصدر عن العباد يقصد به سوء وجوه بني إسرائيل.

ونسبة هذا السوء إلى العباد يدل على أنهم يقصدون حصول السوء للوجوه بفعلهم هذا..

إلا أن يقال: إن الربط بين العباد، وبين سوء الوجوه هو مجرد التسبيب، والصدور العملي منهم للسبب الموجب، فقد يكون قد صدر مع قصد، وقد يصدر من دون قصد، كما في: من يرمي ظبياً بسهم، فيخطئ الظبي، ويصيب به رجلاً عن غير قصد.

فظهر: أنه لا دليل على أن العباد قد قصدوا ما حصل لليهود من سوء الوجوه.

ولعل من فوائد نسبته سوء الوجوه إلى نفس العباد: هو إحياء مشاعر الخوف منهم لدى بني إسرائيل، حتى لو كان سوء الوجوه لم يكن مقصوداً للعباد، فإن هذا يزيد من كرب ورعب بني إسرائيل، فإن الفعل له تأثيره المحدود في بني إسرائيل، فإذا علم أنه من العباد تضاعف هذا التأثير، وزاد الألم، وإن كان الأمر مقصوداً لهم، فلا بد أن يتضاعف، ويزيد الألم لدى بني إسرائيل حين يعلمون أنهم قد قصدوهم بهذا الفعل.

كما أن هذا يثير القلق في نفوسهم، والوساوس في صدورهم بصورة أشد وأعظم، ويضعهم أمام خطر داهم ودائم، وله ما بعده، فلم تكن القضية مجرد سهم أصاب وانتهى، بل هو عدو قوي يخطط ويتربص وينفذ، وإذا كانت البداية هكذا، فكيف يمكن لهم أن يتوقعوا النهاية، إن كانت لهذه المصائب والبلايا النازلة بهم نهاية؟!

هذا كله، على فرض أن ثمة حدثاً يصدر عن العباد، ولكن الحقيقة هي أن الأمر ليس كذلك، بل الذي تسوء له وجوه بني إسرائيل هو نفس ظهور العباد في ساحة المواجهة والتحدي.. وهم قد جربوهم في المرة الأولى، ورأوا طرفاً من بأسهم الشديد..

فالحزن الذي ينتاب كل فرد فرد من بني إسرائيل، والهم والغم، والأسى، والألم الغامر في قلوبهم، والذي يطفح على وجوههم، كمداً وانقباضاً، ورعباً، وتشحب له، هو نفس ظهور هذا المارد المخيف، وهم عباد الله..

ولو لم يرموا بسهم، ولم يضربوا بسيف، ولم يطعنوا برمح، ولم يغنموا لهم مالاً، ولا حرموهم من شيء..

وبذلك يظهر: أن ما ذكرناه فيما سبق، من أنه تعالى أبهم في كلامه، ولم يذكر ما يفعله عباد الله في وعد الآخرة صحيح، من حيث أنه جعل سبب سوء الوجوه هو نفس ظهور العباد في موقع العداء لبني إسرائيل.. وأبهم ولم يذكر شيئاً عما سيفعله العباد بعد ذلك، فهل يكتفون بهذا؟! أم يبادرون إلى ما هو أبعد وأشد من ذلك؟! لأن هذا الإبهام أشد وقعاً، وأعظم نفعاً، فإن عباد الله هم الغصة والشجا المعترض في حلوق كل فرد فرد منهم، وهم السم القاتل، والبلاء النازل.

والذي دل على ذلك: هو نفس قوله: **(لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ)**. فإن واو الجمع في كلمة: «يسوؤا» إنما يشير إلى نفس عباد الله.

ولو أنه تعالى قال: «ليسوءَ» بفتح الهمزة، مع حذف الواو، لعلم: أن فاعل يسوء ضمير محذوف عائد على الحدث الذي يصدر منهم، ولم يذكر صراحة في الكلام، وقد أهمل ذكره للإيهام والإبهام والترهيب..

وأما قوله تعالى عن العباد: **(وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ)**، فلا يكفي فيه ظهور العباد في المواجهة، بل هو يحتاج إلى سعي وفعل وجهد من العباد يمكّنهم من دخوله..

وأما التتبير، فيحتاج إلى جهد من سنخ آخر غير ذلك الذي يوجب

دخول المسجد.

فظهر: أن لكل واحد من هذه الثلاثة علة وسبب يختلف عن علة وسبب الآخر.

فعلة سوء الوجوه: هو وجود عباد الله، وظهورهم في موقع التحدي والتصدي للطغاة والمفسدين.

وعلة دخول عباد الله المسجد: شيء آخر يمهد به عباد الله لأنفسهم، ويزيحون به الموانع من أمامهم..

وعلة تتبير ما علاه المستكبرون، فهي شيء ثالث يناسب ذلك، ويستعمله العباد لتحقيق هذا الغرض.

فظهر: أن السبب في تكرار لام كي، هو اختلاف العلل والأسباب باختلاف المعلولات والمسببات.

ولو أنه تعالى حذف اللام في كلمتي: **(وَلِيَدْخُلُوا)**، و **(لِيُتَبِّرُوا)**، لاختل المعنى، ولفهم: أن الجميع يحتاج إلى علة واحدة، وسبب واحد، وهو نفس ظهور عباد الله.. مع أن الأمر ليس كذلك.

سوء الوجوه فقط:

وقد ظهر مما تقدم: السبب في الاقتصار في الآية على سوء الوجوه، فإن عباد الله الذين جاسوا خلال الديار لا يريدون انتزاع الملك من بني إسرائيل ليكون لهم دونهم، ولا يريدون أموال بني إسرائيل، ولا يريدون جاههم، ولا ملذاتهم، ولا أي شيء آخر مما

يسعى إليه بنو إسرائيل. بل يريدون فقط أشخاص بني إسرائيل، ليعاقبوا كل مفسد منهم على إفساده، وليرجعوه إلى رشده، ويغيروا من مساره الإجرامي، ويحجزوه عن البغي والعدوان، والتنكيل والظلم والطغيان..

وهذا ما يرعب ويخيف بني إسرائيل، الذين تظهر المساءة على وجوههم.. وسيكون كمداً عظيماً، لأنه رعب المستكبر المتجبر العاتي، الذي يرى نفسه أنه ابن الله وحبيبه، وأنه شعب الله المختار، ولكنه يرتعب ويخاف من ثلة يحتقرها ويمقتها، ولا يرى لهم حقاً بالحياة، بل يرى أنهم مجرد حيوانات خلقهم الله على صورة البشر، ليكونوا خدماً لهم..

ولم يذكر تعالى شيئاً مما سيواجههم به عباد الله في الإفساد الثاني، ربما لأن هذا الإبهام يزيد في الكمد والرعب لدى بني إسرائيل، لأنهم يعلمون أن ذنبهم قد أصبح مضاعفاً بعد أن عادوا لما نهوا عنه، فترك تقدير عقوبتهم مبهمة، تلاحقها أوهامهم، ولا تنالها، وذلك أوجع لقلوبهم. ولأنهم لا يدرون ما الذي يتوقعون، وكيف، ومن أي شيء يحترسون، ويتحرزون.

فإبهام الحدث في مثل هذا المورد أشد عليهم من الحدث نفسه، وقد قال أمير المؤمنين مشيراً إلى هذه الشدة: «إذا هبت أمراً فقع فيه،

فإن شدة توقيه أعظم مما تخاف منه»[1].

وحين توعد الله سبحانه وتعالى الذين كفروا بأنواع من العذاب، قال: **(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ)**[2].

فسوء الوجوه في الآية إنما هو لأن ظهور عباد الله يؤذن بمواجهة بوادر العقاب والعذاب، فهم يترقبون وصوله إليهم، ويكابدون مرارات التوقع التي تحمل لهم معها إلى أوهامهم صوراً هائلة من العذاب الأليم، والذل المقيم، والهوان، والخزي العظيم، الذي ينتظرهم..

الألم المضاعف:

ويزيد من خزيهم وعذابهم: ما يطرق أسماعهم من أخبار غيبية عن دخول العباد للمسجد، وعن تتبير لما شاده جبابرة الأرض، فإن هذا يعني: أن أمر العباد قد خرج عن حدود الإمكان.. ولم تعد تنفع معه

---

(1) راجع: نهج البلاغة (بشرح عبده) ج4 ص42 الكلمات القصار، الكلمة رقم 175 وخصائص الأئمة ص110 وعيون الحكم والمواعظ للواسطي ص132 وبحار الأنوار ج68 ص362 وج72 ص357 ومستدرك سفينة البحار ج10 ص576 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج18 ص406.

(2) الآيات 25 - 27 من سورة الملك.

الأموال مهما عظمت، ولا البنون مهما كثرت، ولا النفير حتى لو كانوا جميع أهل الأرض..

وإذا كان الإنسان يحب أن لا يظهر آلامه وانكساره وذله أمام عدوه، بل يظهر القوة والعزيمة والتماسك والجلد.. فإن نفس ظهور آثار الكمد والانكسار والحزن والمساءة في وجهه، أمام الناس كلهم

الفصل الثاني:

دخـــــــول المســـــــــــجد..

(وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ).

بداية:

تقدمت في الفقرات السابقة أمور ترتبط بهذه الفقرة، فلا غنى عن المراجعة، والتأمل، وضم ما ذكرناه هناك إلى ما سنذكره هنا إن شاء الله تعالى.

أي مسجد يدخله العباد؟!:

قد يقال: إن ما يتبادر إلى الذهن هو: أن المسجد الذي يدخله العباد هو المسجد الأقصى المعروف في هذه الأيام أنه في بيت المقدس، وهو ذو القبة الصفراء، الذي يحاول بنو إسرائيل الاستيلاء عليه، وينازعون في أن لهم حقاً فيه، من حيث أن هناك حائط المبكى، وأن المسجد وقبته يشتملان على الصخرة التي هي قبلة اليهود القديمة..

ويدعي هؤلاء: أنه هو المسجد الأقصى الذي بارك الله تعالى حوله، كما جاء في الآية التي في أول سورة الإسراء. ويدعون أيضاً: أنه المقصود بقوله تعالى في الآية السابعة من هذه السورة أيضاً:

(وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ).

غير أننا قد قلنا في أوائل هذا الكتاب، في فصل: «المسجد الأقصى هو البيت المعمور»:

إن آية الإسراء قد تحدثت عن مسجدين:

أحدهما: في الأرض، وهو المسجد الحرام.

والثاني: في السماء، وهو المسجد الأقصى، وهو مصلى الملائكة حيث البيت المعمور في السماء الرابعة. وحيث إن العباد لا يمكن أن يدخلوا إلى المسجد الأقصى الذي في السماء.. فلا بد من تحديد المسجد الذي سيدخلونه، أي مسجد هو من مساجد الأرض؟!

فإن الآية السابعة في سورة الإسراء ذكرت أن العباد سوف يدخلون المسجد، ولكنها لم تحدد لنا هذا المسجد بصورة صريحة. بل اكتفت بكلمة: «المسجد» وأشارت أيضاً إلى أن العباد كانوا قد دخلوه في مرة سابقة، ولم تذكر أكثر من ذلك..

فهل من قرائن يمكن أن تفيدنا في تحديد هذا المسجد.. أم أن الحيرة ستبقى هي المهيمنة علينا؟!

هذا ما سنحاول أن نجيب عنه هنا، فنقول:

ليس المقصود المسجد الأقصى:

قد يظن ظان: أن المقصود بالمسجد الذي يدخله العباد: هو ذلك الذي في بيت المقدس، أعني مسجد الصخرة الذي يسمى في أيامنا

هذه بالمسجد الأقصى.. وقد يستدل على ذلك: بأنه هو الذي يكون دخول العباد إليه مغضباً لبني إسرائيل، لأنه يشتمل على الصخرة التي هي قبلة اليهود القديمة..

غير أننا نقول:

أولاً: إن كلمة «المسجد» قد جاءت محلاة بلام التعريف.. وليس المقصود بها لام الحقيقة، ولا لام الجنس، فإن دخول أي مسجد كان لا غرابة فيه، ولا خصوصية له، والعباد يدخلون المسجد باستمرار، فاللام هي لام العهد..

ومن الواضح: أنه لا توجد أية إشارة للمسجد الأقصى الذي في بيت المقدس في آيات هذه السورة، لكي يشار إليه بلام العهد الذكري، ولا يوجد عهد خارجي حضوري لهذا المسجد، ولا عهد ذهني له..

وما ذكره المستدل من غضب بني إسرائيل من وصول العباد إليه ودخوله، وإن كان صحيحاً في نفسه، ولكنه لا يصل إلى درجة تكوين ارتكاز، وعهد ذهني له دون سواه.. لا سيما بملاحظة: أن هذا الموضع لم يكن معروفاً بالمسجدية في زمان رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وإنما اختط فيه عمر بن الخطاب مسجداً بعد استشهاد رسول الله «صلى الله عليه وآله».. ثم بنى الوليد بن عبد الملك قبة على الصخرة بعد ذلك..

ولكنه نفس بقعة بيت المقدس كانت من الأمكنة المقدسة التي لها شأن، لأن فيها محاريب الأنبياء، وباب حطة وغير ذلك.. كما هو

الحال في طور سيناء، وكربلاء، والنجف، وغيرها من البقاع التي لها شأن.. وكذلك كربلاء، والنجف، والطور، وغير ذلك.

ثانياً: إن كلمة «المسجد» كانت إذا عرفت بلام العهد، ولم يكن عهد ذكري، تنصرف إلى المسجد الحرام، لأنه أقدس مسجد في الإسلام، وقد عرفه المسلمون منذ اليوم الأول الذي ظهر فيه الإسلام، وفيه كعبتهم، وإليه قبلتهم.. فكيف إذا كان قد تقدم له ذكر باسمه الصريح في أول السورة، ولم يذكر سواه فيها، حيث قال تعالى: **(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى..)**(1).

وبذلك يصير العهد ذكرياً مصرحاً فيه بالمعهود.

ولا يلتفت بعد هذا لما ذكره المستدل آنفاً، من أن بني إسرائيل يغضبون إذا دخل العباد المسجد.. إذ ليس لبني إسرائيل مسجد معهود مقدس عندهم يغضبهم دخولهم إليه، بل لهم صخرة كانت قبلة لهم، لا أكثر من ذلك..

ولا يوجد مسجد للمسلمين في ذلك الوقت في بيت المقدس، عند نزول السورة.

ثالثاً: إن المسجد الذي دخله العباد في مرة سابقة دخول ظفر وقوة واقتدار، لم يكن هو المسجد الأقصى، الذي أشارت إليه الآية،

---

(1) الآية 1 من سورة الإسراء.

لأن دخولهم إلى بيت المقدس كان دخول صلح مع النصارى، وليس دخولاً غير عادي فيه إظهار قوة وظفر.. ولم يكن في ذلك المكان، وذلك الوقت شيء اسمه المسجد الأقصى، بل كان اسمه بيت المقدس فقط.

والذي حصل فيه دخول للعباد على هذا النحو هو خصوص المسجد الحرام، لما دخله رسول الله «صلى الله عليه وآله» يوم فتح مكة..

دخول المسجد كيف يتم؟!:

وقد ذكرت الآية: أن العباد يدخلون المسجد.. ولم تتحدث عن استيلاء، أو غلبة، أو احتلال، أو ما إلى ذلك..

ولعل سبب ذلك: هو إظهار شدة التعظيم لهذا المسجد، ومراعاة حرمته وشرفه.. ولذلك تحاشى التعبير بالاستيلاء، وتحاشى الإشارة إلى أي قتال فيه، أو عنده، لأن الظاهر: أن كل ذلك لن يكون.. بل هو مجرد دخول على نحو خاص تحفظ فيه كرامة ذلك المسجد، وتراعى فيه حرماته..

وقد ذكرت الآية: أن خصوصية هذا الدخول هي نفسها الخصوصية التي كانت للدخول في المرة الأولى، التي كانت يوم فتح مكة، فهو دخول ظفر، وقوة، واقتدار واحترام، وإجلال.. وهو دخول تواضع وخضوع لله، وسكينة، وتكريم للمسجد، وتبرك به، وتقديس

له، مع حفظ الحرمات للمسجد الحرام، وليس دخول جرأة وقتال، وسفك دماء.

ما الفرق بين أول مرة، والمرة الأولى؟!:

وقد قال تعالى: **(كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ)**، ولم يقل: «كما دخلوه في المرة الأولى». إذ لو قال: «كما دخلوه في المرة الأولى»، لفهم: أنه يريد أن دخول العباد إلى المسجد في الإفساد الثاني سوف يشبه دخولهم إلى المسجد في الإفساد الأول.

وهذا غير صحيح، لأنهم في الإفساد الأول لا يدخلون المسجد، أو أنه على الأقل لم يذكر شيئاً عن هذا الدخول، بل تحدث عن الجوس خلال الديار فقط. فلا معنى لعطف الكلام على أمر غير موجود.

والذي يريد سبحانه أن يقوله هنا: هو أن دخول العباد للمسجد الآن يشبه دخولهم الذي حصل في أول دخول لهم. وهذا يدل على أن المراد ليس هو الدخول إلى مسجد الصخرة في بيت المقدس.

وهذا التعبير لا ربط له في عدد مرات الدخول، فلعلهم دخلوا ثلاث، أو خمس، أو عشر مرات، أو أكثر أو أقل..

ولو قال: «كما دخلوه في المرة الأولى» لدل على أنهم قد دخلوا مرتين فقط: أولاهما في الإفساد الأول، والثانية في الإفساد الثاني.

وهذا غير مراد كما قلنا.

والمراد بكلمة: **(كَمَا)** هو دخول الآمنين الخاضعين المقدسين،

المكرمين لمساجد الله، المحلقين رؤوسهم، والمقصرين، وهو دخول يوم فتح مكة، الذي لم يكن دخول حرب، بل دخول نصر وظفر، وهيبة وكرامة، وقد وصفه القرآن بقوله: **(لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آَمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ)**(1).

مع أن هؤلاء الآمنين كانوا مستهدفين من جميع طواغيت الأرض، وهم خاضعون لله مستسلمون له، ولا يستسلمون لسواه، وهم رغم قوتهم عبيد لله. لا يدخلون المسجد إلا على حالة الخضوع والتكريم له، ومع رعاية المناسك، وإن كان دخولاً مهيباً، يفرض على العتاة العصاة حالة من الرهبة، لأنه على هيئة المحارب، لاسيما مع وجود أعداد كبيرة تفرض هيبتها وهيمنتها.

فالتشبيه بكلمة **(كَمَا)** يشير إلى هذه الخصوصيات والحالات والكيفيات، مما يعني: أن المشكلة قد حلت من أساسها. لا سيما وأنه قد صاحب هذا الدخول إعلان أهل مكة استسلامهم وإسلامهم، ولو نفاقاً.

وهكذا سيكون الحال في آخر الزمان، ولا ندري إن كان سيتكرر حينئذٍ، ما يشبه قول رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «اذهبوا، فأنتم الطلقاء».

فكلمة **(كَمَا)** لا يراد بها التشبيه بمجرد التمكن من الدخول، فإن ذلك لا يدل على أن المشكلة قد انتهت، لأن الإنسان قد يتمكن من

(1) الآية 27 من سورة الفتح.

الدخول، لكنه دخول خوف لا أمن، أو دخول فيه انتهاك لحرمة البيت، من حيث أن فيه قتالاً، وليس فيه رعاية المناسك.

إنه سيكون دخولاً رسالياً، تراعى فيه الأحكام كما راعاها رسول الله «صلى الله عليه وآله» يوم الفتح، وهو دخول يتجلى فيه ذل المستكبرين والجبابرة العاتين. الذين سوف يكونون في موقع الرقيق الذي يمن عليه بمثل كلمة: «اذهبوا، فأنتم الطلقاء». وإن لم يكونوا قد كبلوا بالحديد، أو شهرت السيوف فوق رؤوسهم.. ولكن نتائج الدخول هي إقرار المستكبرين بالحق للداخلين، كما أقر أبو سفيان بنبوة الرسول يوم الفتح.

وربما يفهم من هذا الإشارة إلى إظهار الناس آنئذٍ الموافقة، والرضا، والاعتراف بالإمامة، التي يؤمن بها عباد الله الداخلون آنئذٍ.

المسجد هو المحور:

وقد جَعَلَتِ الآية المسجدَ هو المحور في إظهار ميزات خصائص وعظمة، وأخلاقيات عباد الله، الذين هم أولوا بأس شديد، وقد جاسوا خلال الديار في الإفساد الأول.. ولم يجعل المحور منطقة، أو بلاداً، أو دولة.

والمسجد هو موضع خضوع عباد الله لله تعالى، واستسلامهم لإرادته، وتبتلهم إليه، وعبادتهم إياه، وإظهارهم الطاعة والانقياد والمسكنة له، في مقابل علو بني إسرائيل على الله، وتمردهم على أحكامه، ومخالفتهم لشرائعه. حيث يرون أن الله هو الذي يجب أن يكون منقاداً لهم، ورهن إشارتهم، ويدبر الأمور لمصلحتم. تعالى الله عن ذلك.

الفصل الثالث:

تتـــــــبير مـــا علـــــــوا..

(وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا).

الإفساد هو المحور، لا العلو!!:

يلاحظ في الآيات: أن الله تعالى ذكر أن بني إسرائيل سيفسدون في الأرض مرتين، وأن لهم علواً كبيراً.. ثم فصل الحديث عن الإفسادين، ولم يتعرض لعلوهم. بل ساق الكلام بنحو يدل على أنه يتحاشى الإشارة إليه، حيث لم يرجع الضمير إلى الإفسادين، ليكون الضمير الغائب مذكراً، وحينئذٍ يصبح صالحاً لإرادة العلو منه، كما هو صالح لإرادة الإفساد.. بل وصف الإفساد المستفاد من قوله: **(لَتُفْسِدُنَّ)** بكلمة **(مَرَّتَيْنِ)**، وجعل المرة هي محور كلامه، لكي يرجع إليها ضمائر التأنيث، لأنها هي التي تصلح لها.

وبذلك يكون قد تجنب الحديث عن العلو ولو على سبيل الاحتمال الذي قد يرد في ضمير التذكير.

وهذا التحاشي المتعمد يعطي: أن الذي سيتكرر هو الإفساد. أما العلو على الله، والاستكبار عن طاعته، فهو متواصل منهم ومستمر، ولا ينقطع بجوس العباد خلال الديار، بل الذي تخف وطأته وينقطع

هو الإفساد العام والكبير الذي ينال البلاد والعباد. أما الأسواء والعاهات النفسية لبني إسرائيل، ومنها العلو، فتبقى على حالها.

أخطأوا في إعرابها وفي معناها:

وقد قال تعالى: **(وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ)**.

وقالوا: التقدير: بعثناهم ليتبروا. كما كان التقدير: بعثناهم ليسوؤا، وبعثناهم ليدخلوا.

والتتبير: هو الهلاك والتدمير، والهدم والتكسير، والتفتيت.

وقالوا أيضاً: إن كلمة **(مَا)** موصولية، وهي مفعول به ليتبروا.

وقالوا كذلك: إن واو الجماعة في **(عَلَوْاْ)** يعود للعباد. أي بعثنا العباد ليهلكوا كل شيء علوه، وغلبوا واستولوا عليه..

وقيل: إن **(مَا)** مصدرية ظرفية. أي ليُهلِكَ العباد ويدمروا طيلة مدة علوهم على البلاد. فهو من قبيل قولك: افعل هذا الشيء ما بقي الليل والنهار. فكلمة «ما» تفيد الدوام والاستمرار.

وتتبيراً: مفعول مطلق، أي تكسيراً بعد تكسير، حتى يصل إلى حد أن يصبح فتاتاً.

ونقول:

إن لنا على ما ذكروه في احتمالات معنى الآية في إعرابها ملاحظات، هي التالية:

1 - إن هذا العلو هنا لا ربط له بقوله تعالى فيما سبق: **(وَلَتَعْلُنَّ**

عُلُوًّا كَبِيرًا)، لأنه لو كان المراد العلو هنا ذلك المذكور هناك لكان ينبغي أن يقول: ليتبروا ما علوتم، ليتناسب مع قوله: **(وُجُوهَكُمْ)**، ومع قوله: **(وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا)**.. إذ لا مبرر حينئذٍ للعدول عن الخطاب إلى الغيبة.

2 - بل هو لا يصح حتى لو جاء بضمير المخاطبين، لأن كلمة ما علوتم إنما يقصد بها ما بنوه وشادوه.. ولا يقصد بها العلو بمعنى التمرد والاستكبار الذي هو المقصود بقوله: **(وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا)**. ولو كان هذا هو المقصود لقال: «وليتبروا علوكم». أي ليهدموا علوكم الذي تحدثنا عنه في السابق.

3 - كما أن كون **(مَا)** في الآية مصدرية غير ظاهر الوجه.. فإنه لا معنى لقولك: سأدمر وأهلك طيلة مدة علوك في البلاد. فإنه كلام لا يخلو من ركاكة.. لأن التدمير يحصل مرة واحدة، وينتهي الأمر، فإذا حطم ما هو قابل للتحطيم في الفترة الأولى، فلا معنى لمواصلة التحطيم بعدها، لعدم وجود شيء قابل للتحطيم، فالمناسب في هذه الحالة أن يقال: سأدمر كل ما تبنيه، فإن بنيت شيئاً مرة أخرى سأحطمه أيضاً. ولعله لا يبني شيئاً، أو يبني شيئاً غير ذي أهمية.

4 - يضاف إلى ذلك: أن المقصود بالعلو هو البناء العالي، فقد قلنا: إنه لا يناسب العلو الكبير بمعنى الاستكبار والتعالي والتمرد الروحي.. وإن كان المقصود بما علوا هو البنيان، فلا يوصف بالزمان هنا، فلا يقال: سأدمر طيلة إعلائك ما تبنيه، بل يقال: كلما

تعليه من بناء، فأنا سأدمره وأحطمه. وهذا لا يناسب «ما» المصدرية الظرفية كما قلنا.

5 ـ وأما احتمال أن يكون المراد: أن عمل العباد سيكون هو التدمير والتكسير مدة غلبتهم على البلاد والعباد، فهو غير مفهوم أيضاً، فإن التدمير أيضاً ـ كما قلنا ـ إنما يحصل مرة واحدة، فلا يبقى شيء بعد تلك المرة قابلاً للتدمير أو للتكسير، فما معنى أن يدوم التكسير طيلة غلبتهم؟!

على أن هذا يعطي صورة تسيء إلى عباد الله، ويظهرهم وكأن كل همهم مصروف إلى التدمير والتكسير، لا البناء والتعمير.

6 ـ فالذي يبدو لنا: أن الضمير في (**عَلَوْاْ**) لا يرجع لبني إسرائيل، ولا يرجع للعباد، بل إلى قوم آخرين سوف يبعث الله العباد عليهم، فيدمرون ما شاده أولئك الناس تدميراً بعد تدمير حتى يصبح ما شاده أولئك العتاة المتكبرون كالرميم، وينتهي الأمر عند هذا الحد. ولذا قال تعالى بعد هذه الفقرة مباشرة: (**عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا**).

وقد أشار تعالى إلى أولئك الجبارين بصورة تجعل التعرف عليهم أمراً صعباً. ولكن تدمير ما شادوه وبنوه من أمور عظيمة، سوف يكون له أثر عظيم في خذلان بني إسرائيل.

فقد يكون الذين يتبر عباد الله ما شادوه وبنوه هم قوم أشد وأعتى استكباراً من كل طغاة الأرض، ولعلهم هم عاد الثانية، وهم حماة بني

إسرائيل في بلاد الغرب، أو أمريكا، أو أي فريق آخر من الجبابرة والعتاة، يكون سقوط دولتهم من موجبات كسر شوكة بني إسرائيل.

عاد الثانية:

ولتوضيح هذا الأمر نقول:

قال تعالى: (**وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى**)(1). مما يعني: أن هناك ما يصح أن يسمى بعاد الثانية. وهذا يعطي: أن ثمة شبهاً بين عاد الأولى وعاد الثانية.

ويمكن أن نتلمس وجوه الشبه هذه في السياسة والأخلاق، والعقلية، والسلوك، والعادات، والطموحات، والمظاهر الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو الحضارية العامة. وغير ذلك.

عاد الأولى في القرآن:

وإذا رجعنا إلى آيات القرآن، لتلمس حالات وخصائص عاد الأولى، فإننا نجد فيه ما يفيد في ذلك فوائد جليلة.. فقد قال تعالى في سورة الفجر: (**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ**

(1) الآية 50 من سورة النجم.

سَوْطَ عَذَابٍ)(1).

وقال تعالى: **(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)**(2).

وقال: **(أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)**(3).

وقال على لسان نبي الله هود لقوم عاد: **(يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)**(4).

وقال تعالى: **(وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ**

---

(1) الآيات 6 - 13 من سورة الفجر.

(2) الآيتان 65 و 66 من سورة الأعراف.

(3) الآيتان 69 و 70 من سورة الأعراف.

(4) الآيات 50 - 52 من سورة هود.

وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)(1).

وقال سبحانه على لسان هود أيضاً: **(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)**(2).

وقال: **(وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)**(3).

وقال تعالى: **(فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ)**(4).

وقال تعالى على لسان أخي عاد الذي أنذر قومه بالأحقاف: **(وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ**

---

(1) الآية 59 من سورة هود.

(2) الآيات 128 ـ 134 من سورة الشعراء.

(3) الآية 38 من سورة العنكبوت.

(4) الآيتان 15 و 16 من سورة فصلت.

كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)(1).

وقال تعالى: **(وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ)**(2).

وقال: **(كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ)**(3).

وقال سبحانه: **(وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ)**(4).

فقد تضمنت هذه الآيات المباركة سمات وخصائص كثيرة لعاد الأولى، وبعضها له علاقة بالأخلاق، وبعضها بصفات الخلقة

---

(1) الآيات 23 - 26 من سورة الأحقاف.

(2) الآيتان 41 و 42 من سورة الذاريات.

(3) الآيات 18 - 20 من سورة القمر.

(4) الآيات 6 - 8 من سورة الحاقة.

والتكوين، ولبعضها ارتباط بالسلوك، وبعضها له ارتباط بسياساتهم، وحالاتهم، وإنجازاتهم، ونشاطاتهم العمرانية والاجتماعية، وغير ذلك.

كما أن بعض الآيات قد ذكرت ما جازاهم الله تعالى به على عتوهم واستكبارهم، وجحودهم، وجرائمهم.

خلاصة جامعة:

ونحن نذكر هنا ملخصاً عن هذا وذاك، فنقول:

تضمنت الآيات المباركة المتقدمة ما يلي:

ألف: ما يرتبط بالتدين، وبالأديان، وبالأنبياء:

1 - فقدان التقوى.

2 - إن الملأ فيهم يعتبرون تعاليم الأنبياء من السفاهة.

3 - إنهم يكذبون أنبياءهم.

4 - إن وجود منذر منهم لهم من موجبات تعجبهم.

5 - إنهم يتمسكون بما يعبد آباؤهم.

6 - يجحدون بآيات الله.

7 - يعصون الرسل.

8 - زين لهم الشيطان أعمالهم، فصدوا عن السبيل، وكانوا مستبصرين.

ب: ما يرتبط بالتكوين والخلقة:

1 - هم الخلفاء والأسياد في الأرض بعد أمم سبقت.

2 - زادهم الله بسطة في الخلق، وامتازوا بطول القامات.

3 - إنهم لا يعقلون.

4 - إنهم أهل قوة.

ج: من سيء صفاتهم وحالاتهم:

1 - إنهم مفترون.

2 - طغوا في البلاد.

3 - إنهم مجرمون.

4 - أكثروا في البلاد الفساد.

5 - يتبعون أمر كل جبار عنيد.

6 - يبطشون بطش الجبارين.

7 - إنهم مستكبرون في الأرض بغير الحق.

8 - إنهم يجهلون.

9 - إنهم مغرورون بقوتهم، ويعلنون بالتحدي، ويقولون: من أشد منا قوة؟!

د: نِعَمٌ كثيرة، ومظاهر عُمْران:

1 - إنهم يبنون على كل تل عالٍ، وجبل مرتفع أبنية هائلة، وخارقة للعادة في فخامتها وضخامتها، وهي آية من آيات العمارة الضخمة والفخمة لمجرد التفنن والعبث.

2 - إنهم يتخذون المصانع، وهي القرى والمباني من القصور والحصون، طمعاً بالبقاء والخلود، والتمتع بها في حياتهم الخالدة بزعمهم. أو لأنهم يظنون أن هذه الأنواع الفخمة من موجبات طول عمرهم.

3 - لديهم أنعام كثيرة.

4 - لهم الكثير من البنين.

5 - لهم جنات كثيرة.

6 - لديهم مياه غزيرة، وعيون كثيرة.

7 - لهم مدن معروفة بفخامة وعظمة بنائها، وكثرة الأعمدة فيها، حتى سميت بـ **(إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ)**.

8 - ليس لبلادهم نظير في الدنيا كلها في عمرانها، وحسن بنائها، وفي الضخامة والفخامة.

هـ: طريقة هلاكهم:

1 - صب الله عليهم سوط عذاب.

2 - أرسل عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات.

3 - أرسل سحباً ظنوها سحب مطر.

4 - أرسل عليهم الريح العقيم، التي تدمر كل شيء بأمر ربها.

5 - ريح تنتزع الناس من مواضعهم وتلقي بهم بعيداً كأنهم أعجاز نخل منقعر.

6 ـ استمرت الريح عليهم سبع ليال وثمانية أيام.

7 ـ كانت أياماً حسوماً.

8 ـ ترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

9 ـ لم يبق لهم باقية لكي يمكن رؤيتها.

10 ـ أصبحوا لا يرى إلا مساكنهم.

لو أردنا التطبيق:

ولو أردنا تطبيق هذه الأمور على قوم من الناس في أيامنا هذه، فلعل الجميع يعلم أين هي الفخامة والضخامة، والجنات، والعيون، والأموال الطائلة، وفائض القوة، وكثرة العدة، وزيادة العدد.

ومن هم أهل القلاع الضخمة، والحصون الفخمة، والأبنية التي تبهر العقول في قمم الجبال، والقصور التي هي آيات في الجمال، وفي أي قوم توجد البسطة في الخلق، وذوو القامات الطوال.

بالإضافة إلى أنهم وإن كانوا أهل كيد ومكر، ولكن فيهم قلة في العقل**(1)**، وإمعان في التيه والجهل، والجحود للنبوات والرسالات، والصدود عن الحق، ومحاربة أهل الدين، وتكذيب الأنبياء،

(1) ويكفي شاهداً على ذلك: أنهم وهم في قمة القوة والتسلط يرضى عقلاؤهم، وتجيز نظمهم وقوانينهم أن تتزوج امرأة بحمار، ويسجلون هذا رسمياً في المحاكم والدوائر الرسمية.

وينغمسون في الجريمة والظلم والافتراء.

ومن هم الذين إذا بطشوا بطشوا جبارين، والمستكبرون في الأرض بغير الحق، والمشيعون الفساد في البلاد والعباد، والمغرورون بالقوة، فلا يرون أحداً أقوى منهم.

ومن هم الذين عمرت بلادهم حتى أصبحت بحيث قال: إنها لم يخلق مثلها في البلاد، وقد طغوا وبغوا على العباد، فأكثروا في البلاد الفساد، وهم يتعاطون مع الأمور بسفاهة ونزق وجهالة ورهق.

إن كل صفات عادٍ الأولى يراها الناس مجتمعة في عاد الثانية، التي هي في أيامنا هذه الحية الرقطاء، أمريكا، وتتبعها العجوز الشمطاء التي هي بريطانيا وفرنسا، وسائر الدول المستكبرة في أوروبا.

بالإضافة إلى أذناب لهم، استولوا على مقدرات الأمة بالإفك والعدوان، وأخلصوا بالولاء لعاد الثانية الظالمة، مصاصة دماء الشعوب، فآثروها بهذه الثروات، ورفدوا خزائنها بشلالات الذهب، التي حرموا منها شعوبهم.

والذي جمع بين هؤلاء جميعاً، ووحد كلمتهم مع عادٍ الثانية هو شدة عداوتهم وعداوتها للحق وأهله، وانسجامهم مع كل ما لها من صفات الرذالة والنذالة، وانبهارهم بما لها من حالات الغرور والطغيان والجهالة، حسبما وصفناها آنفاً.. فإن كل إناء بالذي فيه ينضح.

عباد الله يتبرون ما علوا:

غير أن عباد الله حين يرون مظاهر الفخامة والعظمة، وكل هذا الذي تعليه الحية الرقطاء أعني عاداً الثانية، والعجوز الشمطاء التابعة لها، وكذلك الأذناب الذين هم أمثال الذباب، حينذاك تتكون القناعة لديهم بأن تتبير وتحطيم هذا الذي بنوه وشادوه هو الذي يكبح جماحهم، ويمرغ آنافهم بتراب الذل والخزي، فيبادرون إلى تحطيم هذه المنشآت الضخمة التي تغذي استكبارهم، وتزيد في إجرامهم، وبغيهم، ويكون هذا التحطيم متكرراً وبالغاً وحاسماً، لأنه يريد أن يمعن في إزالة أي أثر للبذخ، والعلو والعتو. والفخامة والضخامة بحيث يصبح من الصعب تلمس أي أثر للحالة المجانبة التي كان عليها.. ولأجل ذلك يعاودون تكسير أجزائه مرة بعد أخرى حتى تصير كالرميم.. فيكونون بمثابة **(الرِّيحَ الْعَقِيمَ)** التي ضربت عاداً الأولى، فإنها **(مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ)**.

وهذا بالذات ما يفعله عباد الله، ولأجل ذلك جاء بالمفعول المطلق ليؤكد هذا الإصرار، فقال: **(تَتْبِيرًا)** أي تدميراً وسحقاً، وتفتيتاً بعد تدمير وسحق، وتفتيت.

الإمام الحجة والطواغيت:

ومن الواضح: أن تتبير العباد لما علته وشيدته الحية الرقطاء، التي هي أعظم قوة على هذا الكوكب.. وإسقاط كبرياء العجوز الشمطاء، وما يحوم حولهما من ذباب الأذناب أمر ضروري جداً في التمهيد لخروج الإمام الحجة عليه الصلاة والسلام.. لأن العتاة والطواغيت كلما علا نجمهم وزادت قوتهم، وتضاعف نعيمهم يصبحون أكثر شراسة، وأشد بطشاً بمن يتوهمون أنه سيزاحمهم على دنياهم.. وقد قال تعالى عن عاد الأولى: **(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)**، فكيف إذا كان شعاره «عليه السلام» هو إزالتهم، وتطهير الأرض من رجسهم. وأن يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً. وأن يقيم حكومة الله تعالى عوضاً من حكومة الشياطين، ثم محاسبة كل ظالم وآثم، ثم فلا بد من التمهيد بتتبير ما علاه أولئك الجبابر وتحطيمه، وإزالة آثاره.

ومن مفردات التمهيد له «عليه السلام» تهيئته الأجواء في بلد انطلاقته «عليه السلام»، لتصبح ملائمة لذلك الحدث الكبير والهائل، إذ لا بد أن يكون المحيط مستعداً لاحتضان حركته، والذود عنها.

وهذا يحتاج إلى توفير قناعة بقضيته وإيمان بها، وتسليم للأحاديث المروية عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» في الإرشاد إليه، والدلالة على إمامته.

وإذا كان بلد خروجه «عليه السلام» هو مكة، والمسجد الحرام بالذات، فلا يعقل أن يخرج في بلد يرفضه ويعاديه، ويتمنى أن يشرب من دمه، وأن يقطعه إرباً إرباً!!

ونحن وإن كنا نؤمن بأن ألطاف الله تعالى به، وتوفيقاته له لها دورها الكبير في النجاح والفلاح.. ولكن شرط أن يمارس حركته وفق مقتضيات النواميس والسنن الطبيعية، فإنها هي الأساس. والمعتمد في حركته، وليست المعجزة التي تُخْضِع إرادات البشر، وتسلب منهم القدرة على الاختيار..

ولأجل ذلك سيكون في حركته قتال، واستشهاد وجراح، وجهد وعناء، وعطش، وما إلى ذلك.

ولو كانت المعجزة هي التي ستهيمن على حركته «عليه السلام»، لم تكن هناك حاجة إلى غيبته، ولم يتأخر خروجه إلى هذا الوقت.. فقد كان عليه أن يستعمل المعجزة من اليوم الأول وينتهي الأمر. ولم تبق حاجة إلى هذه المعاناة من أولها إلى آخرها.. ولا يبقى معنى لتهيئته أسباب خروجه، وتوفير أسباب النصر، ولا معنى للجهاد بين يديه، فإن المعجزة يجب أن تغني عن ذلك كله.

إن ذلك كله يدل على أن الأمر ليس مرهوناً بالمعجزة، غير أن مما لا شك فيه: أنه «عليه السلام» سيحظى بكثير من التوفيقات والتأييدات والألطاف الإلهية على قاعدة: **(إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ**

وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)[1].

وهذا ما حدانا إلى القول: بأنه لا يمكن للإمام أن يخرج في محيط كله أعداء، بل لا بد من توفير أجواء ملائمة قادرة على حماية الدعوة، ومحيط يحنو عليها ويحتضنها..

وإذا كان التحدي الذي يأتي به يستهدف به جميع طواغيت الأرض، فلا بد أن تكون الحماية المتوفرة بحجم هذا التحدي كله، فمن يتحدى ألف رجل لا يهيئ نفسه لمواجهة رجل واحد أو رجلين مثلاً!!

وهذا يعطي: أن تتبير وتحطيم المواضع الحساسة، وإسقاط الهيمنة والاستكبار، وإلقاء الرعب في قلوب الأعداء بهذه الطريقة يصبح ضرورة قصوى في حركته «عليه السلام»..

ولذلك يسير الرعب بين يديه «عليه السلام» مسيرة شهر[2]. أي أنه إذا توجه إلى منطقة فإن جميع المناطق التي بين يديه إلى مسيرة شهر سوف يهزمها الرعب، وتستسلم.

فلعل دخول العباد إلى المسجد الحرام، وما يكون منهم من إنجازات كبرى سوى ذلك يكون من مفردات التمهيد لظهوره «عليه

---

(1) الآية 7 من سورة محمد.

(2) راجع: بحار الأنوار ج52 ص308 ومستدرك الوسائل ج11 ص114 ومستدرك سفينة البحار ج6 ص189 و 190 وميزان الحكمة ج2 ص1466 وإلزام الناصب في إثبات الحجة الغائب ج2 ص259.

السلام».

كما أن دخول المسجد قد يكون في نطاق عمل ينتهي بنشر الدعوة المؤيدة له «عليه السلام»، والمهيئة للبيئة الحاضنة لخروجه، والمساعدة له «صلوات الله وسلامه عليه».

هكذا تهلك عاد الثانية:

وأخيراً.. فقد روي عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أنه قال: «لتركبن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة، ومطابق النعل بالنعل، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»[1].

---

(1) راجع: مسند أحمد (ط دار صادر) ج2 ص325 و 511 وج3 ص84 و 89 وسنن ابن ماجة ج2 ص1322 وصحيح البخاري (ط دار الفكر) ج4 ص144 و (ط دار إحياء التراث العربي) ج7 ص170 وج15 ص235 وصحيح مسلم (ط دار الفكر) ج8 ص57 و (ط دار الكتب العلمية) ج16 ص189 وصحيح ابن حبان (ط دار الفكر) ج6 ص192 و (ط مؤسسة الرسالة) ج15 ص95 والمستدرك للحاكم ج4 ص455 ومجمع الزوائد ج7 ص261 والدرر لابن عبد البر ص225 والجامع الصغير ج2 ص401 وكنز العمال ج11 ص134 والدر المنثور (ط دار الفكر) ج7 ص466 وجامع البيان (ط المعرفة) ج10 ص121 والجامع لأحكام القرآن (ط دار الكتب العلمية) ج8 ص200 وتفسير القرآن العظيم (ط دار إحياء التراث العربي) ج4 ص152 وجامع المسانيد والمراسيل (ط دار الفكر) ج6 ص23 وج8 ص179 واللؤلؤ والمرجان (ط دار الفكر) ج1 ص827 والفتح الكبير (ط دار الفكر) ج3 ص8 و 334 والمصنف للصنعاني (ط دار الفكر) ج11 ص369 وراجع: كتاب سليم بن قيس (تحقيق الأنصاري) ص163 والإفصاح للمفيد ص50 والتعجب للكراجكي ص88 والطرائف لابن طاووس ص380 وبحار الأنوار ج31 ص144 و ج53

وإذا كان القرآن قد ذكر لنا ـ كما تقدم ـ: أن عاداً الأولى قد عاشت على هذه الأرض، وبنت وشادت، وطغت وبغت، وتمردت على الله، حتى صب عليها ربك سوط عذاب.. وقد عرفت بعض تفاصيل هذا السوط المصبوب مما سبق. لإنه تعالى بمقتضى الحديث الشريف المتقدم أعلاه سوف يهلك عاداً الثانية بنفس الطريقة، أي بريح صرصر عاتية، وأعاصير ضاربة، وريح تدمر كل شيء بأمر ربها.

وتنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر، يسخرها الله عليهم، في أيام نحسات، وهي ريح عقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، يسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، فلا ترى لهم من باقية، ويصبحون ولا يرى إلا مساكنهم.

وما ذلك على الله بعزيز.. لأن السنة قد جرت بأن يجري في هذه الأمة ما جرى على الأمم السالفة حذو القذة بالقذة، والنعل بالنعل، حتى لو دخلوا جحر ذب، لدخلتم فيه. كما ورد في الحديث.

ص140.

الفصل الرابع:

وَإِنْ عُـــــدتُّمْ عُـــــدْنَا..

(**عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا**).

الالتفات في الخطاب:

وبعد أن كان ضمير الخطاب هو المعتمد في قوله: (**وُجُوهَكُمْ**)، ثم صار ضمير الغائب هو المعتمد في قوله: (**وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ**) عاد لاعتماد ضمير الخطاب في قوله تعالى: (**عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا**).

وهذا يدل على أنه تعالى لم يكن يقصد بني إسرائيل في قوله تعالى (**مَا عَلَوْاْ**). بل كان يقصد قوماً آخرين. ولعلهم ـ كما قلنا ـ هم القوم الذين سميناهم عاد الثانية، وأتباعها، وأذنابها.

(عَسَى) لماذا؟!:

إن كلمة (**عَسَى**) تستعمل تارة: للدلالة على رجاء حصول الشيء، وتقريب الاحتمال.

ولكن إن اقتصر على مجرد التقريب، وإعطاء الاحتمال درجة من الأرجحية، فتستعمل كلمة «لعل» لكي تمنح الاحتمال هذه

الأرجحية..

وقد يراد بها: بيان خصوصية أخرى تزيد على مجرد بيان مقدار الاحتمال، وهي: أن يبين القائل أن لديه حالة من الإشفاق والرغبة الممزوجة بالعاطفة والمحبة، والميل القلبي لحصول الخبر المنصوب بكلمة **(عَسَى)**، وأنه من الأمور الصالحة.. ولذا قال تعالى هنا: **(عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ)**.

ومما يؤكد هذا العطف والإشفاق قوله: **(رَبُّكُمْ)** التي تعني الرعاية، والمحافظة، والإصلاح، والتدبير، وطلب الكمال، والتنامي والزيادة، وتقوية ضعفه، وإزالة عجزه، ورفع نقصه، وتلبية حاجته، من موقع العلم والقدرة والعناية بالمربوب، والرحمة له، والشفقة عليه.. فكلمة **(عَسَى)** تؤسس لعلاقة خاصة، وتعامل خاص من قبل المربوب مع ربه أيضاً. ومحبته له، وثقته به، وشوقه إليه، وشعوره بالطمأنينة والسكينة معه.

ولذلك قال: **(عَسَى رَبُّكُمْ)**، ولم يقل: «عسى الله»، لأن مقام الألوهية يوحي بالتعامل من موقع الهيمنة والقدرة والمالكية، ونحو ذلك.

ولم يقل سبحانه هنا: «عسى الله أن يرحمكم»، لأنه تعالى يريد للناس أن يشعروا أنهم في موقع الرعاية الربانية، وفي كنف الرحمة والتدبير، والشفقة، والأنس، والسكينة، والسلام. لا في موقع الخوف والرهبة، والقدرة، والهيمنة إلى حد يتوهم معها مصادرة حرية

الاختيار، وفرض الأمور عليهم بالقهر والغلبة والجبرية..

ضمير جمع المخاطبين:

وقد أكد سبحانه وتعالى هذا البيان الرفيق والشفيق بإضافة كلمة «رب» إلى ضمير جمع المخاطبين، وهو كلمة «كم» فقال: **(عَسَى رَبُّكُمْ)**، حيث لم يقل: «عسى الرب أن يرحمكم».. لأنه يريد أن يصل سبحانه الناس بنفسه، ويقربهم منه، ويشعرهم بحنوه عليهم، وبأنه شفيق ورحيم ورفيق بهم. وأن يلامس مشاعرهم بأعيانهم، وأشخاصهم بنحو مباشر.

ولو قال: «عسى الرب» لفاتت هذه الخصوصية، ولشعر كل إنسان أن ثمة نظرة عابرة قد مرت فوقه، ولم تستقر عليه، بل تجاوزته إلى غيره. فهو إذن غير مقصود بذاته، بل بما هو جزء غير ظاهر المعالم من مكونات الصورة العامة..

ثم قال تعالى: **(أَن يَرْحَمَكُمْ)**.. ومن الواضح: أن الرحمة منا هي انفعال نفساني خاص ينشأ عن رؤية حاجة، أو نقص، أو عجز، أو ضعف الآخرين.. وهذا الانفعال يدفعنا لمساعدته، ورفع نقصه، وسد عجزه، وقضاء حاجته، وتقوية ضعفه، وما إلى ذلك..

ولكن الرحمة من الله ليست من قبيل الانفعالات النفسانية. بل هي مظهر من مظاهر تجليات العلم الإلهي بحاجات الخلق وضعفهم، وعجزهم ونقصهم يتبلور على شكل تدبير حكيم، وعطاء من رب

عظيم، وفيض نعم من واهب كريم، ونحو ذلك..

لماذا لم يذكر العفو؟!:

وقد تحدث تعالى هنا عن الرحمة، لا عن العفو، فلم يقل: «عسى ربكم أن يعفو عنكم»، لأن مجرد العفو لا يعطي الشعور بالحنان والدفء، واللذة، والسكينة، والعطف، والرأفة، والتعبير عن الرغبة بنقله إلى مواضع السعادة، ورفع نقائصه، وتقوية ضعفه، وما إلى ذلك..

مع أنه تعالى يريد لهم أن يعرفوا ويتلمسوا هذه المعاني، وأن يشعروا بها، ليكون لها دور في هدايتهم إلى الطريق المستقيم، ولتسهم في إقامة الحجة عليهم إن اختاروا الامعان في الغي والضلال..

دلالات مفهوم الأولوية:

ولنا أن نستفيد من مفهوم الأولوية القطعية: أنه إذا كان بنو إسرائيل سوف يفسدون في الأرض كلها مرتين، ويعلون علواً كبيراً.. وسيجري لهم مع عباد الله كل هذا الذي مر بعض تفصيله، ثم سيعاملهم الله سبحانه بهذا المستوى من الرفق والرحمة، بالرغم من أن العقوبات لم تردعهم، وكل العبر والعظات والآيات البينات لم تمنعهم من مواصلة إجرامهم، والاصرار على ضلالهم، فما بالك بمن هم أقل فساداً وإفساداً من بني إسرائيل..

ألا يطمئن ذلك العصاة، ويدعوهم لمواصلة عصيانهم، وتمردهم

طمعاً في رحمة الله؟! وألا يعد هذا إغراء بالتمرد، وتهويناً لأمره؟!

ونجيب:

بأن هذا الرفق ببني إسرائيل، إن أعطى ثمرة إيجابية في هدايتهم وإعادتهم إلى الصواب، فهو عين الصواب.. وإن أصروا على الاستكبار والاستهتار، فمن الواضح: أن التسامح معهم في الدنيا إنما هو لإقامة الحجة عليهم، ولكي لا يبقي الله لهم عذراً.. وليس هذا عفواً عنهم، ليقال: إنه يوجب الإغراء بالمعصية، لأن العفو عنهم مشروط بتوبتهم وعودتهم، واستقامتهم، ولأجل ذلك لم يطمعهم بالعفو، بل أطمعهم بالرحمة، فقال: **(عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ)**، ولم يقل: «عسى ربكم أن يعفو عنكم»..

وإذا لم يتوبوا، فإنهم سيحاسبون ويعاقبون على جميع السيئات والمآثم التي ارتكبوها، والجرائم التي اقترفوها.

وأما تشجيع الآخرين على مواصلة ارتكاب المعاصي، فهو غير صحيح، لأنه تعالى قد جعل العقاب في الآخرة، ولم يجعله في الدنيا، سواء في ذلك أكبرت المعاصي أم صغرت، قلَّت أو كثرت..

ولو واجه الله تعالى الناس بالعقوبة في الدنيا على ذنوبهم لانتهى الأمر إلى مصادرة قرار الناس، وسلب اختيارهم. وهذا ظلم لهم..

بل إن هذا الرفق والتأني بالمجرمين والمفسدين يجب أن يقود العصاة إلى محبة الله، وإلى الكف عن التمرد عليه، وعن مواجهته بما يكره. وهو من موجبات إيقاظ فطرتهم ووجدانهم، ولا سيما إذا كان

فيهم بقية من خير، ولم يكونوا ممن أوغلوا في التمرد والعصيان حتى ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، فإن يقظتهم ستكون أقرب وأيسر، وتوبتهم ورجوعهم إلى الله أقرب منالاً من أهل الجحود، والطغيان..

يضاف إلى ما تقدم: أن هذا الرفق ببني إسرائيل المنغمسين في الفساد والطغيان، بالرغم من كل ما ارتكبوه، إذا لم يثمر لهم الهداية والرشاد، فإنما يدل على شدة عتوهم، وقسوة قلوبهم، وعظيم خذلانهم، وخزيهم..

وسيكشف للجميع أن كل ما سيلقونه من عقوبات في الآخرة سيكون قليلاً في حقهم. حتى لو زاد عذابهم على عذاب فرعون، فإن فرعون كما تقول الآية المباركة: **(عَلَا فِي الْأَرْضِ)**. ولم يوصف علوه بأنه كبير، بالرغم من أنه جعل أعزة أهل الأرض أذلة، وادعى الربوبية، ولكن الله وصف علو بني إسرائيل بأنه سيكون كبيراً، فقال: **(وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا)**.

كما أن بني إسرائيل بالرغم من أنهم قد استُعملت معهم مختلف الأساليب لردعهم عن الفساد والإفساد، والعلو الكبير، لم ينتفعوا بشيء من ذلك.. فقد أرسل تعالى لهم الأنبياء، وأظهر لهم المعجزات، وحباهم بالهدايات، وتألَّفهم بالتودد إليهم، وبعث العباد عليهم لردعهم عن فعلهم، وليريهم طرفاً من عواقب أمرهم، وما ينتظرهم من خزي وخذلان..

فإذا عاد بنو إسرائيل بعد هذا كله وسواه إلى الإفساد والعلو. فسيدرك كل أحد مدى سوء هؤلاء القوم، وشدة خبث طويتهم، وبوار

سعيهم. وسيدركون أنهم جهنميون عن جدارة واستحقاق..

الرحمة دليل الضعف:

1 ـ وقد لاحظنا: أن بني إسرائيل يفسدون في الأرض مرتين، ويعلون علواً كبيراً، وأنه يجتمع لديهم من الأموال ما لا يدخل تحت حصر وعد، وأن بنيهم يكثرون، ونفيرهم يفوق كل نفير.. ومع كل هذه القدرات الهائلة، ومع هذا الطغيان والعلو الكبير، الذي لم يوصف به حتى فرعون.. فإن الله سبحانه بالرغم من ذلك كله يقول لهم: **(عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ)**. فهو تعالى يطمعهم بالرحمة.. ولا يتهددهم بالعذاب والعقاب والانتقام. وتدمير القوى، وسلبهم الأموال والأعداد، وتفريق وتمزيق النفير من حولهم..

فيبدو لنا: أنه تعالى يريد أن يقول لهم: إن كل ما لديهم لا يجعلهم أقوياء، لكي يتعامل معهم بالعفو، أو ليواجههم بالقوة الأشد لتصحيح مواقفهم، والتأثير على قرارهم. بل هم ضعفاء يستحقون الشفقة والرحمة.

وهذا الأمر لا بد أن يعيدهم إلى أنفسهم، ليبحثوا عن أسبابه.. وأين تكمن نقاط ضعفهم، وعجزهم.. كما أن هذا يدل على مدى عظمة ربهم، وعلى أن عليهم أن يعيدوا حساباتهم من جديد.

2 ـ وإذا كان هؤلاء القوم مستكبرون، ولهم علو كبير على الله وعلى الناس، فإن الحديث عن ضعفهم على حد استحقاقهم للرحمة

سيكون مؤذياً وصادماً لغرورهم وعنجهيتهم. ويتأكد ذلك إذا كانت الأموال الهائلة، والأبناء الكثيرون، والنفير الأكثر.. لا تزال بين أيديهم، وتحت تصرفهم.

3 - ويتضاعف الألم إذا كان إظهار الرحمة والشفقة بواسطة كلمة **(عَسَى)** التي تزيد من تضعيف حصولهم على هذا الأمر. وفي وقت يرون أنفسهم مقهورين، ويعيشون مرارة ظهور عباد الله القليلي العدد المجهولين غير المعروفين أمام أعينهم بهذه القوة التي تمكنوا بها من دخول المسجد الحرام، ومن تتبير ما علته وبنته عاد الثانية على النحو الذي ذكرناه.

ويرون أنهم لا يستطيعون أن يحركوا في وجههم ما يملكونه من قوة.. وأن عليهم أن يرضوا بالخضوع والخنوع والاستكانة، مع ما يملكونه من ضخامة في الإمكانات، وكثرة في الأعداد، وحشد في النفير..

4 - والأمر الذي يزيد في حيرتهم، وألمهم: أنهم لا يمكنهم تفسير ما جرى ويجري لهم على أيدي عباد الله على أنه مجرد انتكاسة حصلت صدفة، لأمور حصلت الغفلة عنها، أو التهاون فيها..

فإن انتصار عباد الله عليهم، لم يحصل مرة واحدة.. بل هو قد تجاوزهم إلى غيرهم، فلئن كانت هناك عاهة فيهم مكنت عباد الله من النصر عليهم مرتين.. فإن انتصارهم قد تجاوزهم إلى غيرهم. فها هم يدخلون المسجد الحرام دخول قوة وظفر، كما أنهم قد تبروا ما علاه

المستكبرون الذين يرون أنفسهم ويراهم الناس الأقوى في العالم.. مع قلة عدد هؤلاء العباد، وضعف إمكاناتهم المادية، وكونهم مغمورين غير مشهورين..

وهذا يعطي مبرراً ومصداقية قوية للحديث عن ضعف الأقوياء، بالمال والأبناء والأكثر نفيراً, وحاجتهم للرحمة، واستحقاقهم للشفقة والرأفة.. فإنه حديث له أدلته، ومعه شواهده القوية، والماثلة على أرض الواقع.

5 - وأخيراً.. فإن من الطبيعي أن يكتشف بنو إسرائيل من هذا التعبير: أنهم برغم كل ما يملكون.. فإن ثمة شيئاً يفقدونه، لا يعوضه المال مهما عظم، ولا الأبناء مهما كثروا، ولا النفير مهما اجتمع وازداد..

6 - وستكون نتيجة بحثهم عن هذا المفقود: هي أن يكتشفوا أنه هو نفسه الذي يملكه عباد الله القليلون والمجهولون اسماً ورسماً، الذي مكنهم من تحقيق هذه الإنجازات الهائلة مرات وكرات.. إنه الدين الحق، والكون مع الله، والعمل بما يرضيه، والالتزام بأحكامه.. فإن هذا هو الذي يعطي كل شيء لمن يفقد جميع الأشياء.. وإذا فقد، فإن كثراتهم لا تعوضه، وقدراتهم لا تغني عنه بني إسرائيل. وسائر قوى الشر والضلال والطغيان إنما يفقدون الرعاية الإلهية التي تربيهم وتنميهم، وتصنع خصائصهم الإنسانية، وتدبرهم، وتهديهم وتزرع فيهم القوة والبأس، والخير، والفكر الصحيح، والنظرة السليمة إلى الأمور، وتجعل

الإنسان غير مهتم بالكثرات والأحجام، لأنه يستغني عنها وعن كل شيء بقدرة الله تعالى، وبرضاه، وبتوفيقاته وتدبيره..

الهدنة المفروضة على بني إسرائيل:

ويفهم من قوله تعالى: **(عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا)**: أنه حين يعلن عباد الله عن موقفهم من بني إسرائيل، ويظهرون لهم بمظهر المعادي لهم، والناقم عليهم بسبب إفسادهم، وحين يرون العباد يدخلون المسجد، ويتبرون ما شاده الطغاة سوف يسقط في أيديهم، ويتضاءل إفسادهم بصورة تلقائية بدرجة كبيرة، حتى ليبدوا كأنها هدنة يفرضها عليهم الواقع الموضوعي، المملوء بالرهبة، والحذر..

وذلك يمهد السبيل لمواجهتهم بالتحذير القوي الذي يقول لهم: **(وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا)**.

العودة للإفساد مشكوكة:

ثم إن جميع ما تقدم سوف يجعل عودة بني إسرائيل إلى الإغراق في الإفساد، حتى يشمل الأرض من جديد، موضع شك وريب، فإن ما عاينوه من عباد الله يقطع الشك باليقين لديهم: بأن يد عباد الله طائلة، ولا يحجزها عنهم إلا التكليف الإلهي، الذي سوف يصبح ناجزاً وحاضراً بمجرد عودتهم إلى الإفساد الكبير في الأرض، وكلمة «إن» كما سبق وقلنا إنما تستعمل عند الشك في حصول الشرط..

ومن الواضح: أن الله سبحانه عالم بما كان وبما سيكون.. ولكنه لا

يريد أن يخبر بما هو عالم به، لكي لا يتوهم أنه تعالى يتدخل في الأمور، ويسيرها بصورة جبرية وقاهرة. فآثر أن يجري الكلام وفق طبيعة الأمور، وما تأتي به الأسباب، وبحسب ما يفهمه الناس منها.. وإن كان يُضَمِّن الكلام ما يشير إلى الحقيقة بنحو، أو بآخر..

والذي نفهمه: من كلمة «إن» الشرطية هنا: أن الإفساد سيبقى هو المفضل والمحبوب لبني إسرائيل، وهو الذي يسعدهم ويفرح قلوبهم، وتشتاق إليه نفوسهم، ولا يهنأ لهم العيش بدونه، فإنه لهم غذاء، ولحقدهم الذي لا ينتهي دواء، وللغليل الذي في صدورهم شفاء..

ولكن، ما الحيلة لهم وهم يرون عباد الله لهم بالمرصاد، يترصدونهم، ويراقبون حركتهم، وأعمالهم لكي يبطشوا بهم، بمجرد ظهور بوادر تبلور التكليف الإلهي المرهون بإفسادهم الكبير والخطير في الأرض.

مقارنة.. واستنتاج:

وإذا راجعنا الآيات الكريمة نرى: أنه تعالى بعد أن ذكر الإفساد الأول لبني إسرائيل وعودة الكرة لهم، وإمدادهم بالأموال والبنين، وكثرة النفير، قال لهم: **(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا)**، فاستفاد من كلمة «إن» في موردي الإحسان والإساءة، ليفيد: أنهما متوازيان في مستوى الاحتمال والوقوع..

وقد وقعت الإساءة منهم فعلاً، حيث عادوا إلى الإفساد من جديد.. وإنما ذكر سبحانه وتعالى هذا الأمر معتمداً على كلمة «إن» ليفيد أن الاختيار والقرار في الإفساد يعود إليهم، وأنه لا جبر من قبل الله تعالى فيه.

ولكن ورود هذه الفقرة في سياق الحديث عن الإفساد الأول، ثم تعقيبه بذكر وعد الآخرة، الذي صدَّره أيضاً بكلمة «إذا» في قوله تعالى: **(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآَخِرَةِ)** قد أوضح أنهم سوف يختارون الإفساد. وهذا ما حصل فعلاً.

وفي المورد الثاني قال لبني إسرائيل أيضاً: **(وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا)**، مستفيداً أيضاً من كلمة «إن» المفيدة للتشكيك بوقوع الشرط، ليدل على أن الاختيار والقرار لهم.

وليدل أيضاً على أن الأسباب الطبيعية المتوفرة تدل على أنهم قد لا يجرؤون على العودة للإفساد العام والشامل بسبب ما رأوه من عباد الله، وما ظهر من شدة بأسهم تجاههم وتجاه غيرهم أيضاً.

كما أنه تعالى لم يعقب الكلام بما يشير إلى حتمية عودتهم، فهذا وذاك جعلنا نقول: إن كلمة «إن» أريد بها بيان أن الاختيار والقرار عائد لهم.. وأنه لا حتمية لعودتهم للإفساد الكبير، لأن طبيعة الأمور تقضي بأن لا يختاروا العودة..

الإفساد في الأرض هو المعيار:

ولا بد أن نشير إلى أن بعث العباد على بني إسرائيل إنما هو في صورة إفسادهم في الأرض، وعلوهم العلو الكبير. والإفساد في الأرض لا يكون إلا عظيماً وهائلاً وشاملاً..

فإذا ارتدع بنو إسرائيل عن الإفساد بهذا المستوى، فلا يبعث الله العباد عليهم.

ونحن نعلم: أن المفسد بطبيعته، وبحسب ما اختاره لنفسه من نهج وسلوك إنما يكف عن الإفساد الذي يسبب له المشكلات التي لا يقدر على تجاوزها. ولكنه يبقى في دائرة الفساد والإفساد، التي اختارها وارتضاها لنفسه..

فإذا اقتصر إفساده على محيط بعينه، ولم يكن عاماً، ولا مفسداً لحياة أهل الأرض بصورة عامة، بل يرجئ حسابه إلى الآخرة، كما يحاسب سائر العصاة. وهذا بالذات ما هو حاصل هنا، وأن بني إسرائيل حين لم يشمل إفسادهم الأرض، ولم يكن كبيراً، فلا يبعث الله تعالى عباد الله عليهم. بل يعاملهم كما يعامل كل عاص وظالم.. فإن بعض أعمال العاصي والظالم قد تترك لها آثاراً عليه في الدنيا وسائرها يكون عقابه في الآخرة..

وهذه هي سنة العدل الإلهية (**وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً**)(1).

فقوله تعالى: **(وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا)** لا يدل على أن كل إفساد يمارسه سوف يحتم بعث العباد عليهم، بل يدل على أن عودتهم إلى الإفساد الشامل هو الذي يحتم بعث العباد عليهم.

وأما الإفساد في مستوياته الأدنى من ذلك، فيعاملون فيه كما يعامل سائر الناس.

الضمير في عدنا:

وقد رأينا: أنه تعالى حين ذكر الإفساد الأول قال: إنه بعث العباد على بني إسرائيل. وفي الإفساد الثاني.. تحدث أيضاً عن نفس هؤلاء العباد، وما سيكون منهم تجاه بني إسرائيل.. ولكنه في المرة الثالثة تحدث عن نفسه، ولم يشر إلى العباد بشيء.. فقال: **(وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا)**.

ولعل سبب تغيير مسار الحديث على هذا النحو هو التصعيد في التهديد ليكون رادعاً وقاطعاً؛ لأن من يتكرر منه الإفساد، ولا يردعه ما جرى عليه في المرة الأولى والثانية.. وما شاهده في المرة الثانية من دخول العباد للمسجد، ومن تتبير ما علاه أقوى طاغوت على وجه الأرض.. فلا بد أن يكون السبب في جرأته. وعدم ارتداعه هو اعتقاده بأنه شعب الله المختار، الذي يجب أن يكون الله سبحانه في خدمته، وأن

---

(1) الآية 49 من سورة الكهف.

يكون راضياً بفساده، والمحامي عنه في إفساده..

ولعله يتوهم أيضاً: أن ما فعله العباد في الإفسادين السابقين، ثم دخولهم المسجد، وتتبيرهم ما علاه الطاغوت كان مجرد استثناء غير مفهوم الأسباب، وغير قابل للقياس عليه. وأن شيئاً ما قد دعا الله سبحانه لأن يتباطأ عن نصرة أبنائه وأحبائه، ولعله في المرات التالية، لا يتركهم، بل يعود إلى نصرهم، والانتقام لهم من عدوهم..

فإذا جاء تهديدهم من قبل من يرون أنفسهم خاصته، وشعبه المختار، وأبناءه وأحباءه **(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)**(1)، فإن هذا التهديد سيكون أمض، وحسرتهم عليهم أشد.. لأن السبل تكون قد تقطعت بهم..

ويزداد هذا الألم إذا كلمهم الله تعالى بضمير جمع المتكلم، أي من موقع العظمة، والجبروت، والعزة، والقوة، ومالكية جميع الأسباب..

ومن البديهي: أن الله إذا كان هو الذي سيحاربهم، فلن تنفعهم أموال وأبناء، وقدرات وما إلى ذلك.. وسيصبح ذلك كله في معرض البوار والاستلاب منهم وعنهم، ولن تجديهم الحيلة، ولا ينفع المكر.. ولن تبقى أمامهم أية خيارات معقولة، أو مقبولة سوى الانكفاء المخزي والذليل..

---

(1) الآية 18 من سورة المائدة.

التهديد الأصعب:

ثم قال تعالى: (**وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً**). وهذا تهديد بعد تهديد، ليعرف من يؤمن بالآخرة من بني إسرائيل: أن الأمر لا ينتهي بخسارة الدنيا، بل ستتواصل الآلام عليهم وتستمر إلى الآخرة أيضاً..

أما الذين لا يؤمنون بالآخرة من بني إسرائيل، فإنهم لا يستطيعون نفيها بصورة قاطعة ونهائية؛ لأن غاية ما يمكنهم ادعاءه: أنهم لم يحصل لهم اليقين بها من الأدلة التي في حوزتهم. وهذا لا يعطيهم الحق بالنفي القاطع. هذا إن لم يكن إنكارهم لها جحوداً لما يعلمون أنه الحق..

ومن الواضح: أن عدم القدرة على النفي كاف في تحتم التحرز، ولزوم حفظ الإنسان لنفسه من المهالك المحتملة..

فإن من لا يعلم بالشيء ليس له أن يتعامل معه على أساس أنه غير موجود، فالسائر في ليل مظلم لا يأمن على نفسه من المزالق والمهالك. ويحتاج في حفظ نفسه لكثير من الجهد والعناء..

وتوقي الجاهل بالأمور أصعب وأشد من عمل العالم المتيقن بوجود المهالك، الذي يكون قد بحث وعرف، وأعد واستعد لمواجهتها، وأحضر معه ما يقيه منها..

فإن الجاهل لا يعرف من أي شيء يتوقى، وكيف يتحرز..

والذي يتوقى به في الدنيا، وهو أمواله، وأبناؤه، وجيوشه لا ينفعه في

الآخرة.

لماذا (حَصِيراً)؟!:

وقد قال تعالى: **(وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً)**. والحصير هو الذي يستقر الإنسان عليه، فإذا كان هذا الحصير، الذي يريد الكافر أن يستقر عليه هو جهنم ونيرانها، فكيف يمكن لهذا الكافر أن يستقر فيها، أو عليها؟!

وإذا كانت «حصير» مأخوذة من الحصر، فإن ذلك يعني التلويح لهم بأنهم سوف لا يجدون منها مهرباً، ولا ملاذاً..

البشارة والإنذار:

ثم قال تعالى: **(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيراً وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيماً)**[1]. صدق الله العلي العظيم.

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله..

---

(1) الآيتان 9 و 10 من سورة الإسراء.

كلمة أخيرة:

وبعد.. فإنني أسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت لبيان ما أحببت بيانه من أمور رأيت أنها قد تكون مما أشارت إليه الآيات الشريفة التي قصدنا إلى التعرف على بعض ما ترمي إليه، وتدل عليه..

وأعتذر عن بعض ما جاء البيان فيه قاصراً، أو مشوباً ببعض التكرار، أو الإطناب الممل، أو الإيجاز المخل.. كما وأعتذر أيضاً عن أية سقطة، أو هفوة، أو تقصير، فإن العصمة لله تعالى وحده..

وبعد.. فلم يبق لي إلا أن أودع القارئ الكريم شاكراً له صبره على معاناة قراءة هذه المطالب.. على أمل اللقاء به في بحوث أخرى، وعلى صفحات كتاب آخر.. وأرجو مرة أخرى أن لا يغيب عن باله أن الكتاب كان دروساً ألقيت على بعض الإخوة الأكارم، ولم يكن الهدف الاستقصاء في التحقيق، ولا تتبع الأقوال والنصوص..

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى، محمد وآله الطاهرين..

حرر بتاريخ 15 شوال 1433 هـ. ق. الموافق لتاريخ 2 أيلول 2012م. ش.

عيتا الجبل (عيتا الزط سابقاً) ـ جبل عامل ـ جنوب لبنان.

جعفر مرتضى الحسيني العاملي.

عامله الله بلطفة وإحسانه.

الفهـــارس:

1 ـ الفهرس الإجمــالي..
2 ـ الفهرس التفصيلي..

1 - الفهرس الإجمالي

الباب الأول: حديث الإسراء..توطئة للحديث عن بني إسرائيل..

الفصل الأول: الإسراء ليلاً..: 47/15

الفصل الثاني: المسجد الحرام هو المبدأ..: **77/49**

الفصل الثالث: المسجد الأقصى هو البيت المعمور..: **101/79**

الفصل الرابع: كتاب الهدى لبني إسرائيل..: **135/103**

الفصل الخامس: نوح لا سواه!!: **166/137**

الباب الثاني: وَعْدُ أُولاهُمَا..

الفصل الأول: بنو إسرائيل: إفسادان.. وعلو كبير..: **206/169**

الفصل الثاني: الإفساد، وجوس العباد..: **..............239/207**

الفصل الثالث: رَدُّ الكرة..: **275/241**

الفصل الرابع: الإنتظار للإختبار.. أو مهلة

واختبار......**301/277**

الباب الثالث: وعد الآخرة ..

الفصل الأول: سوء الوجوه..: **.........................321/305**

الفصل الثاني: دخول المسجد..: **332/323**

الفصل الثالث: تتبير ما علوا..: **352/333**

الفصل الرابع: وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا..: **......................376/353**

2 - الفهرس التفصيلي

تقديم: 6

قصة هذا الكتاب: 6

مؤاخذتان على الكتاب: 7

أحرجنا تقسيم الكتاب:.. 9

رجاء واعتذار:.. 10

الآيات الكريمة:... 13

الباب الأول: حديث الإسراء..توطئة للحديث عن بني إسرائيل..

الفصل الأول: الإسراء ليلاً..:

الإسراء في اللغة: 20

إلى أين كان هذا الإسراء؟!: 21

لماذا كان الشروع بالتسبيح والتنزيه؟!:.................................. 22

المقصود بكلمة سبحان هنا:... 23

لماذا الحديث عن التنزيه؟!: 24

لماذا أسرى بعبده؟!: 24

قال: سبحان الذي، ولم يقل: سبحان الله!!: 27

متى كان الإسراء؟!: 28

لماذا التسبيح العملي؟!:... 33

الباء.. لماذا؟!:.. 35

هذا هو مقتضى الحال: 38

حجم السماوات:... 42

مقام العبودية: 45

العبودية غاية الخلق:.. 46

الإسراء بالروح أو بالجسد أيضاً:... 48

إنكار معجزات الرسول!!:.. 51

الإسراء بالليل:.. 51

لماذا لم يكن بالنهار؟!:.. 52

الفصل الثاني: المسجد الحرام هو المبدأ..:

من أين؟! وإلى أين؟!: 58

بين المسجدين: 58

الإشارة إلى جهة البعد فقط:.. 59

من أين كان الإسراء؟!: 60

لماذا مسجد؟! ولماذا حرام؟!: 61

الكمال درجات؟!: 65
الرسول هو الأكمل والأفضل: 66
البركات حول المسجد: 67
الضمائر في الآية المباركة: 67
من الغيبة إلى الحضور، ثم الغيبة: 70
الفرق بين البركة والقداسة:... 71
معنى البركة:... 71
توضيح غير واضح:... 74
باركنا أم قدسنا؟!: 75
لم يذكر مباركة المسجد الحرام:... 75
البركة حول المسجد!! لماذا؟!:.. 76
الغاية من الإسراء: 77
الرؤيا حقيقية لا مجازية:.. 78
الآيات التي رآها ′: 81
لماذا السميعية والبصيرية؟!: 81
الحصر والتأكيد لماذا؟!: 82
الضمير في (إِنَّهُ): 84
فائدة ضمير الفصل: 85

السَّمِيع أولاً لماذا؟!:.. 85

لماذا السَّمِيعُ البَصِيرُ؟!:.. 87

الفصل الثالث: المسجد الأقصى هو البيت المعمور..:

مصلى الملائكة: 92

عدد الإسراءات: 100

نسبوا إلى الإمامية:.. 102

إسراءات مختلفة في الروايات: 103

رواية سعد السعود: 107

استفادة للعلامة المجلسي &:... 112

البيت المعمور هو المسجد الأقصى: 112

الفصل الرابع: كتاب الهدى لبني إسرائيل..:

ما الربط بين هذه الآية وسابقتها؟!:.................................... 118

الإيتاء والإعطاء:.. 119

ألف: آتى..:... 120

ب: أعطى: 124

الإسناد إلى ضمير الجمع: 125

لماذا موسى دون سواه؟!... 125

التشريف لخصوص موسى ×: 129

الكتاب، ولام العهد: 130
لماذا كتاب؟!: 131
لم ينسب الكتاب إليهم: 132
موسى × نبي لبني إسرائيل:... 133
هل الهداية تحتاج إلى جعل؟!: 134
الهدايات الإلهية:.. 135
حاجة الهدايات إلى الهداية التشريعية: 136
لماذا هُدًى؟!: 140
اتخاذ الوكيل:.. 145
لم يقل: لا تَتَّخِذُواْ غيري وكيلاً: 145
كلمة دون تشير إلى المقام:.. 145
الوكيل أدنى المراتب:.. 146
بين الولي والوكيل:.. 148
حق جعل الولاية:... 151
الولاية بنظر البشر العاديين: 151
تدني مستوى بني إسرائيل: 152
الإختلاف في الضمائر: 152

الفصل الخامس: نوح لا سواه!!:

إعراب كلمة ذرية: 157
لماذا نوح لا إبراهيم مثلاً؟!: 157
البشر ذرية الناجين من الطوفان: 170
الثناء على نوح:.. 171
أهمية ربط الإنسان بتاريخه: 173
توحيد الرموز الكبرى: 178
العبد الشكور: 179
(كَانَ) هل هي زمانية؟!: 180
وسام العبودية لنوح: 180
نوح الشكور: 180
الحمد والثناء والشكر: 182

الباب الثاني: وَعْدُ أُولاهُمَا..

الفصل الأول: بنو إسرائيل: إفسادان.. وعلو كبير..:

الإفساد والعلو الكبير:.. 192
كثرة المؤكدات على الوقوع: 194
حتمية الحصول:.. 196

القضاء هنا إبلاغ: 197

قضاء لا ينافي الاختيار: 197

اليهود أم بنو إسرائيل؟!: 199

لماذا لم ينسب الكتاب إلى بني إسرائيل؟!: 204

لماذا اختص بنو إسرائيل بكل ذلك؟!:................................ 206

الفساد فرع الإفساد: 207

الصلاح هو الأساس: 208

أي إفساد يراد؟!: 208

الحكمة تجسِّد معنى الصلاح:... 211

التأكيدات بالعشرات:... 215

لماذا كل هذا؟!: 223

ما المراد بالأرض؟!:.. 224

العلو الكبير مرة واحدة: 226

العلو رذيلة ممقوتة: 227

بين العلو والإستعلاء:... 229

أيهما أسبق؟!: 233

الفصل الثاني: الإفساد، وجوس العباد..:

توقيت وتأكيد:.. 237

تأكيد بعد تأكيد:.. 237

لا جبرية في بعث العباد:.. 240

لماذا عليكم؟!:... 243

تنوين التنكير في كلمة عباداً:.. 244

التشريف والتكريم:.. 245

هم والله أهل قم:.. 245

بماذا يتميز العباد؟!:... 246

عباداً لنا مرة أخرى:... 249

المواجهة الطويلة الأمد:.. 251

بأس العباد: 251

قبل الحديث عن الجوس:.. 252

المراد بالجوس:... 253

ما يستفاد من الجوس:.. 256

مجرد جوس:.. 261

لم يقل: خلال البلاد:... 264

الديار مواضع الأمن والطمأنينة: 264

الألف واللام في «الديار»: 265

ثلاث تأكيدات: 266

بين وعدين:.. 267

من التصور إلى التصديق:.. 269

الفصل الثالث: رَدُّ الكرة..:

ردُّ الكرة في الآية: 273

رد الكرة لا يعني النصر: 275

التأكيدات في: (ثُمَّ رَدَدْنَا):.. 277

من الذي يرد الكرة؟!: 277

رد الكرة غير بعث العباد: 285

لماذا قدم كلمة لكم؟!:... 285

الألف واللام لماذا؟!:.. 286

ثبات العباد في المواقع:.. 287

الإمداد بالأموال والبنين: 289

الإمداد يحتاج إلى زمان: 290

مثلث الأموال والبنين والجيوش:.. 291

الأموال والأولاد هما الأهم: 293

تنوين التنكير: 293

كثرة البنين لماذا؟!: 294

لماذا لم يمدهم بالذرية؟!: 295

كثرة النفير:... 296

حب المال:.. 297

الإمداد: 298

جَعَلُ الَكْثَرَة!!: 300

جعل الكثرات: 304

الجيش والنفير:... 308

الفصل الرابع: الإنتظار للإختبار.. أو مهلة واختبار..:

القرار الحاسم بعد رد الكرة:.................................. 312

لا شك في إسائتهم: 314

لماذا عبر بالإحسان والإساءة؟!:................................ 317

لماذا على أنفسهم، ولها؟!: 320

الإحسان، والإساءة لمن؟!:.................................... 323

تناغم التحذير مع الاهتمامات: 326

لم يذكر الله تعالى العقوبة والمثوبة: 327

(لِأَنْفُسِكُمْ)، لا إلى أنفسكم:................................... 330

لم يشر تعالى إلى العمل: 331

(فَلَهَا)، أم فإليها؟!:.. 332

لماذا وضع هذه الفقرة هنا؟!: 333

الحر الرياحي مثل أعلى: 336

الباب الثالث: وعد الآخرة..

الفصل الأول: سوء الوجوه..:

وعد الآخرة:.. 343

راجع المؤكدات:... 345

الإبهام لماذا؟!:... 347

اللامات الثلاث:... 348

لام العاقبة:... 348

تكرار اللام لماذا؟!:.. 350

الآخرة لا الثانية!: 352

سوء الوجوه: 353

لماذا سوء الوجوه؟!:.. 354

سوء الوجوه فقط:... 357

الألم المضاعف: 359

الفصل الثاني: دخول المسجد..:

بداية: 363

أي مسجد يدخله العباد؟!: 363

ليس المقصود المسجد الأقصى: 364

دخول المسجد كيف يتم؟!: 367

ما الفرق بين أول مرة، والمرة الأولى؟!:............................ 368

المسجد هو المحور:.. 371

الفصل الثالث: تتبير ما علوا..:

الإفساد هو المحور، لا العلو!!:.. 374

أخطأوا في إعرابها وفي معناها:.. 375

عاد الثانية:... 378

عاد الأولى في القرآن:.. 378

خلاصة جامعة:... 382

لو أردنا التطبيق: 385

عباد الله يتبرون ما علوا:.. 387

الإمام الحجة والطواغيت: 388

هكذا تهلك عاد الثانية: 392

الفصل الرابع: وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا..:

الالتفات في الخطاب:... 396

(عَسَى) لماذا؟!:.. 396

ضمير جمع المخاطبين:.. 398

لماذا لم يذكر العفو؟!:.. 399
دلالات مفهوم الأولوية: 399
الرحمة دليل الضعف: 402
الهدنة المفروضة على بني إسرائيل:.................................. 405
العودة للإفساد مشكوكة:... 405
مقارنة.. واستنتاج: 406
الإفساد في الأرض هو المعيار: 408
الضمير في عدنا:... 409
التهديد الأصعب: 411
لماذا (حَصِيراً)؟!:.. 412
البشارة والإنذار: 412
كلمة أخيرة:... 413
1 ـ الفهرس الإجمالي.. 417
2 ـ الفهرس التفصيلي 420
كتب مطبوعة للمؤلف 389

كتب مطبوعة للمؤلف

1 ـ الآداب الطبية في الإسلام

2 ـ إسرائيل.. في آيات سورة بني إسرائيل.. تفسير ثمان آيات..

3 ـ ابن عباس وأموال البصرة

4 ـ ابن عربي سنيّ متعصب

5 ـ أبو ذر لا إشتراكية.. ولا مزدكية

6 ـ أحيـوا أمـرنـا

7 ـ إدارة الحرمين الشريفين في القرآن الكريم

8 ـ الإسلام ومبدأ المقابلة بالمثل

9 ـ الإمام علي والنبي يوشع ʻ

10 ـ أفلا تذكرون «حوارات في الدين والعقيدة»

11 ـ أكذوبتان حول الشريف الرضي

12 ـ أهل البيت ^ في آية التطهير

13 ـ أين الإنجيل؟!

14 ـ بحث حول الشفاعة

15 ـ براءة آدم × حقيقة قرآنية

16 ـ البنات ربائب.. قل: هاتوا برهانكم

17 ـ بنات النبي ’ أم ربائبه؟!
18 ـ بيان الأئمة وخطبة البيان في الميزان
19 ـ تخطيط المدن في الإسلام
20 ـ تفسير سورة الفاتحة
21 ـ تفسير سورة الكوثر
22ـ تفسير سورة الماعون
23 ـ تفسير سورة الناس
24 ـ تفسير سورة هل أتى (2/1)
25 ـ توضيح الواضحات من أشكل المشكلات
26 ـ الحاخام المهزوم
27 ـ حديث الإفك
28 ـ حقائق هامة حول القرآن الكريم
29 ـ حقوق الحيوان في الإسلام
30 ـ الحياة السياسية للإمام الجواد ×
31 ـ الحياة السياسية للإمام الحسن ×
32 ـ الحياة السياسية للإمام الرضا ×
33 ـ خسائر الحرب وتعويضاتها
34 ـ خلفيات كتاب مأساة الزهراء ÷ (6/1)
35 ـ دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام (4/1)
36 ـ دراسة في علامات الظهور

37 ـ دليل المناسبات في الشعر

38 ـ ربائب الرسول ′ «شبهات وردود»

39 ـ رد الشمس لعلي ×

40 ـ زواج المتعة (تحقيق ودراسة) (3/1)

41 ـ الزواج المؤقت في الإسلام (المتعة)

42 ـ سلمان الفارسي في مواجهة التحدي

43 ـ سنابل المجد (قصيدة مهداة إلى روح الإمام الخميني وإلى الشهداء الأبرار)

44 ـ السوق في ظل الدولة الإسلامية

45 ـ سياسة الحرب في دعاء أهل الثغور

46 ـ شبهات يهودي

47 ـ الشهادة الثالثة في الأذان والإقامة

48 ـ الصحيح من سيرة الإمام علي × (1 / 53)

49 ـ الصحيح من سيرة النبي الأعظم ′ (35/1)

50 ـ صراع الحرية في عصر الشيخ المفيد

51 ـ طريق الحق (حوار مع عالم جليل من أهل السنة والجماعة)

52 ـ ظاهرة القارونية من أين؟! وإلى أين؟!

53 ـ ظلامة أبي طالب ×

54 ـ ظلامة أم كلثوم

55 ـ عاشوراء بين الصلح الحسني والكيد السفياني
56 ـ علي × والخوارج (2/1)
57 ـ الغدير والمعارضون
58 ـ القول الصائب في إثبات الربائب
59 ـ كربلاء فوق الشبهات
60 ـ لست بفوق أن أخطىء من كلام علي ×
61 ـ لماذا كتاب مأساة الزهراء ÷؟!
62 ـ مأساة الزهراء ÷ (2/1)
63 ـ ماذا عن الجزيرة الخضراء ومثلث برمودا؟!
64 ـ مختصر مفيد (أسئلة وأجوبة في الدين والعقيدة) (16/1)
65 ـ مراسم عاشوراء «شبهات وردود»
66 ـ المسجد الأقصى أين؟!
67 ـ مقالات ودراسات
68 ـ منطلقات البحث العلمي في السيرة النبوية
69 ـ المواسم والمراسم
70 ـ موقع ولاية الفقيه من نظرية الحكم في الإسلام
71 ـ موقف الإمام علي × في الحديبية
72 ـ ميزان الحق «شبهات وردود» (4/1)
73 ـ نقش الخواتيم لدى الأئمة ^
74 ـ الولاية التشريعية

75 ـ ولاية الفقيه في صحيحة عمر بن حنظلة